..... ١

قضايا
تربوية وأخلاقية

قضايا تربوية وأخلاقية ٢

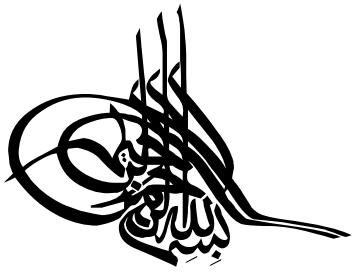

قضايا
تربوية وأخلاقية

سماحة الشيخ ياسر عودى

عضو الهيئة الشرعية في مكتب المرجع سماحة آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله(رض)

٤ ..... قضايا تربوية وأخلاقية

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨م

المقدمة

الحمد لله بجميع محامده كلها والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين والهادي للسالكين في دروب الأخلاق والمفاهيم وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين الذين جسدوا القرآن بأقوالهم وأفعالهم فكانوا على رأس المخلوقين وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وأصحابه المنتجبين وبعد.

هذه مقالات تربوية ومفاهيم أخلاقية كتبناها في أوائل التسعينات محاولين فيها الاختصار وتقديم ما ينفع مما يمكث في الأرض وابتعدنا عن الإطالة لأن الغاية ليست بحوثاً موسعة بل زبدة مختصرة لا ترهق القارئ وتعطيه لمحة أساسية في كل عنوان ليستعين على فهم المطلوب منه في علاقته مع الله والأنبياء والأولياء والناس من حوله وما فرض له من حقوق وعليه من واجبات من خلالها خصوصاً بعد هذا الانحدار الأخلاقي في معاملة الناس لبعضهم وتهتكهم لأستارهم وسيطرة الخرافة عليهم واستبداد الحكام بهم وتسيرهم مع كل مستورد على أساس أنه حضارة فأساؤوا استعماله خصوصاً العالم الافتراضي الذي أمات العلاقات الأسرية والاجتماعية وكثرة الكذب والخداع والمداهنة خصوصاً في الدين حتى شوهوا العقيدة وزوروا مفاهيم الدين فأصبح الكذب حلالاً بداعي إسقاط أكبر الرموز الدعوتية المخلصة والبهتان وسيلة تقرب إلى الله وما إلى ذلك من انقلاب المفاهيم وتردي الأخلاق والمعاملة بين الناس مما نحتاج فيه إلى العودة للأصالة والأخلاق وتذكر ما نسيناه.

وقد نوَّعنا البحث ليشمل زبدة أخلاقية تعرّفه على ما فقد من مجتمعاتنا وصدئ من أخلاقنا ليسمو في إنسانيته ويرتقي في سلم رضا ربه.

وختمناها بنموذجين رائعين للرجال والشباب المتمثلين بشخصية الشاب المتأله محمد بن عبد الله ﷺ وآخر للنساء والمتمثل بشخصية أعظم النساء السيدة الزهراة عليها السلام شاكرين لمن بذل جهداً ومالاً في طبع هذا الكتاب سائلين الله عز وجل أن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم.

ياسر يوسف عودى

٢٥ ذو القعدة ١٤٣٨هـ

الفصل الأول

العلاقة مع اللَّه عز وجل

إن وجود الإنسان على هذه الأرض مع كثرة ما أعطي من بدائع الخلق سواء في نفسه أو على كوكبه الذي يعيش فيه، وتسخير ما في الأرض وإسباغ الآلاء عليه ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[١] يرتب عليه واجبات وحقوقاً يجب أن يؤديها من خلال علاقته مع نفسه أو مع الآخرين من حوله أو مع خالقه الذي منَّ عليه بهذه النعم وإلَّا يصبح وجوده عبثاً لا فائدة فيه فيكون خلافاً للمطلوب ونقضاً للغرض الذي خلق من أجله ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] فهنا مطالب عدة مختصرة لا يسعها المقام نذكرها بمنِّه تعالى في حلقات متتالية نبدؤها:

علاقتنا بالله عز وجل وفيها مقدمتان وموضوع:

المقدمة الأولى: إن الإنسان مفطور على توحيده عز وجل مجبول على الإقرار بعبوديته تعالى الذي صوره وقدره كما في قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[١].

وقد ورد في الأحاديث المفسرة كما في خبر هشام يسأل الإمام أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية فقال: «**فطرهم جميعاً على التوحيد**».

المقدمة الثانية: إن البداهة تقضي بشكر المنعم الذي أنعم عليك وأداء شيء في مقابل نعمته وهذا ما يحكم به الوجدان والفطرة السليمة والعرف القائم، ولهذا يجب على الإنسان أن يشكر خالقه المنعم عليه بنعم لا تُقدر ولا تُحصى ولا يستطيع مهما جهد في شكره أن يرد جزءاً من سبعين جزءاً من شيء واحد من نعمه عز وجل، لكن شكر الله يكون بعبادته والانصياع لأوامره والابتعاد عن نواهيه، والعبادة فرع معرفته ومعرفته إنما تكون بآثاره والتفكر فيها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢].

الموضوع: إذا تم هذا نقول وبالله المستعان: العلاقة التي يجب أن تكون بين الفرد وربه المفطور على توحيده، هي علاقة العبودية المحضة بحيث يشعر الإنسان أن كل ما لديه من ملك ونعم و ما يرتبط به وما حوله، وأن كل شيء يتقلب فيه هو من خالقه، وبهذا المعنى ورد في حديث صفوان البصري عن الإمام الصادق عليه السلام قلت: يا أبا عبدالله ما حقيقة العبودية؟ قال: «**ثلاثة أشياء أن لا يرى العبد لنفسه في ما خوله ملكاً لأن العبيد لا يكون لهم ملك يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله به، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً**» (أي بمعنى أنه لا يستطيع أن يجعل لنفسه الحرية مطلقاً في أي عمل يقوم به، فالعبد عند سيده الإنسان يمكن تدبيره بحيث يجعل له سيده الحرية دبر وفاته في مقابل قيامه بعملٍ ما، أما أمام الله فلا يمكن جعل الحرية لأي إنسان لأنه يؤول إليه ولا يمكن أن يخرج عن ملكه مطلقاً لا في حياته ولا بعد وفاته فيشعر أنه عبد قن أمام خالقه)، «**وجملة اشتغاله في ما أمره تعالى ونهاه عنه... فهذا أول درجة التقوى**».

---

(١) سورة الروم، الآية: ٣٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

فإذا عرف العبد هذه الأمور وآمن بها واستيقنتها نفسه وكانت علاقته مع ربه على أساسها وأنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً وأنه الذي رزقه وقدره ثم السبيل يسره فيقرُّ بعبوديته ومملوكيته لله عز وجل وعليه: العيش في هذا المعنى ينقله إلى درجة الشكر لهذه النعم سواء بالقول أو باللسان أو الإقرار بالجنان أو العمل بالجوارح وهذا كله عبادة له عز وجل، وطاعته لله مهما عظمت إنما هي نزر يسير وقدر حقير في جنب هذا الرزق الوفير، وبالجملة فحقه علينا بعد الإقرار بالعبودية له ومعرفة معناها تأدية واجباته والفرائض من خلال طاعته والإخلاص له وعدم الشرك به جلَّ شأنه وهذا ما عبَّر عنه الإمام زين العابدين عليه السلام «في رسالة الحقوق: **فأما حق الله الأكبر فإنك تعبده لا تشرك به شيئاً فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة ويحفظ لك ما تحب**»، وكذا ورد في نهج البلاغة عنه عليه السلام: «**لكنه سبحانه جعل حقه على العباد أن يطيعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه**».

وقبل الخوض في العبادة ينبغي للسالك فيها أن يتدبر معرفة الله عز وجل حتى يحسن الشكر لنعم الله من خلال توحيده وعبوديته.

ومعرفة الله عز وجل تعطي النتائج العظيمة والجليلة في الرقي نحو الله، وقد ورد في هذه المعاني عنهم عليهم السلام: «**غاية المعرفة الخشية**».

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**من كان بربه أعرف كان من الله أخوف**».

ومعرفة الله لها طرق كثيرة والوصول إليه بعدد أنفاس الخلائق، وأول الطرق ما ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت**».

بحيث إن هذه المعرفة توصله في العبادة والعروج إليه إلى الدرجات والمراتب وليس هذا فقط، بل يستطيع العارف إذهاب العلل عن نفسه وأسقامها من خلال اتصاله به جل وعلا، فقد ورد عن الرضا عليه السلام: «**إن معرفة الله عز وجل أنس من كل وحشة**

وصاحب من كل وحدة ونور من كل ظلمة وقوة من كل ضعف وشفاء من كل سقم».

بحيث يأنس العاشق ويذوب الوله مع معشوقه بمعرفته عز وجل فلا يأنس بسواه ولا يرى شافياً غيره من كل ما يؤلمه في حياته ويستصغر ما دونه فتصبح الأشياء بلا قيمة عنده مع فقدها لأن العظيم هو الله وما يذهب ويأتي هو منه، «**عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم**».

فالعارف لا بدّ وأن يتحلى بصفات، منها الخوف الشديد من الله والبكاء من خشيته والشوق إليه عز وجل..

والحاصل: إن نتيجة المعرفة هي العبادة أو فقل العبادة والمعرفة ينبغي أن يكونا عند السالك إليه أمرين متحدين فلا عبادة بلا معرفة ولا معرفة لا توصله إلى العبادة، لذا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه وباشرها بجسده وتفرغ لها فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم يسر**».

«**رأس العبادة التفكر في معرفته**».

ومهما ارتقى العبد في العبادة والمعرفة فهو لا يستطيع أن يؤدي حقه تعالى شأنه، لذا ورد عن رسول الله ﷺ: «**إن حقوق الله جل ثناؤه أعظم من أن يقوم بها العباد وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ولكن أمسوا وأصبحوا تائبين**».

وفي الختام ينبغي أن تكون علاقة الإنسان مع ربه علاقة خوف وخشية وعبادة وتوبة دائمة لئلا يكون الإنسان ناسياً لذكره تاركاً لأدبه لاهياً عن أمره ونهيه الذي فيه صلاحهم وقوامهم، فلو تركوا في غير عبادة لطال عليهم الأمد وقست منهم القلوب كما ورد عن مولانا الرضا عليه السلام: «**وإذا قست القلوب استوجب النار صاحبها واستحق العقاب فاعلها فلا يكون مؤدياً لحقه عليه وتنتفي العلاقة في ما بينه وبين ربه فيخرج عما استخلفه فيه ويخون ما أمنه عليه فيستحق السخط والنيران ومن الله البعد والحرمان**».

علاقة الفرد بالأنبياء والأوصياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1].

في هذه المقالة يقع البحث حول العلاقة بين الإنسان والأنبياء والأوصياء، ما هو أساسها؟؟ وكيف يجب أن تكون؟؟ وللجواب عن هذين السؤالين نقدم ثلاث مقدمات مختصرة يليها بحث موضوع بما يسع له المقام.

المقدمة الأولى: بعد الفراغ عن إثبات الصانع لهذا الكون وأن هذا الوجود لا بدّ له من موجد كما المعلول والعلة، وأن الخالق تنزه عن مجانسة مخلوقاته وأنه مغاير لهم في ذاته ومتعالٍ عنهم في صفاته فلا يرقى إليه راقٍ ولا يمكن إدراك كنه عزّ وجل إذ العقول محدودة، والمحدود لا يدرك المطلق إلى بآثاره ودلائله المتجلّية بتنوع خلقه وإرسال رسله بينه وبين خلقه أدلاء ينقلون ما يريد ويعملون بأمره.

المقدمة الثانية: وهي مرتبطة بما قدمناه في الحلقة الأولى، من الفراغ عن معرفة الله عز وجل والتألق في حقيقة العبودية التي تُذهب صدأ القلب وتنور حنايا

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٦.

الروح لتزكو النفس وليصلح العمل فيؤدي قسطاً من الشكر للمعبود حتى لا يكون بنعمة الله جحوداً.

المقدمة الثالثة: من البديهي أن بني البشر يحتاجون في حياتهم وإدارة شؤونهم وتنظيم أمورهم حتى فيما يتصل في عباداتهم إلى قانون ودستور يسيرون على أساسه: ومن البعد بمكان أن يكون هذا القانون وضعياً من صنع بني البشر لأنه سيكون محدوداً ناقصاً خاضعاً لأهواء وتأثيرات بيئية وعرقية وما إلى ذلك مما لا يسع المقام لبحثه هنا فلا بدّ أن يكون هذا القانون إلهياً شاملاً عاماً يحكم على أساس المصالح والمفاسد العامة للعباد.

وهذه الأمور الثلاثة وردت الأحاديث في مضامينها ونورد حديثاً واحداً في المقام عن الفضل بن شاذان عن مولانا الرضا عليه السلام: فإنه قال: «**فَلِمَ وجب عليهم معرفة الرسل والإقرار بهم والإذعان لهم بالطاعة.. قال: لأنه لما لم يكن في خلقهم وقواهم ما يكملوا لمصالحهم** (أي ما يثبتون به لمباشرة الصانع) **وكان الصانع متعالياً عن أن يرى وكان ضعفهم وعجزهم عن إدراكه ظاهراً فلا بدّ إذاً من رسول بينه وبينهم معصوم يؤدي إليهم أمره ونهيه وأدبه ويقفهم على ما يكون به إحراز منافعهم ودفع مضارهم إذ لم يكن في خلقهم ما يعرفون به وما يحتاجون إليه في منافعهم ومضارهم.**

فلو لم يجب عليهم معرفته وطاعته لم يكن لهم في مجيء الرسول منفعة ولا سد حاجة ولكان إتيانه عبثاً لغير منفعة ولا صلاح وليس هذا من صفة الحكيم الذي أتقن كل شيء» (**انتهى**).

على ضوء ما قدمنا نقول: ثبت لا بدية السفراء أو الرسل... وعليه علاقتنا مع الرسل والأنبياء كبشر أولاً الإقرار بكونهم رسل الله وأنبياءه وثانياً معرفتهم وماهية دورهم عليهم السلام. طبعاً بعد مجيئهم بما يثبت نبوّتهم من خلال المعاجز الدالة على صدق رسالتهم فالأنبياء عليهم السلام إذ يمثلون الله على الأرض في تجسيد الشريعة المبعوثين بها لإبلاغها للناس فيما يتصل بحياتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعباداتهم وما إلى ذلك مما يحتاجونه في أمر دنياهم وآخرتهم.

فدورهم دور تبليغ رسالة الله ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[١]، وإنذار الناس من العقاب وتبشيرهم بالثواب حتى تنتظم الحياة وتعم العدالة وتتحقق الخلافة في الأرض.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[٢].

وعليه علاقتنا بالأنبياء سيّما خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ﷺ علاقة رسالية تتحرك في جميع علاقاتها وعباداتها ومعاملاتها وحبها وبغضها وسلوكها وكل أفعالها، من الرسالة تبدأ وإليها تعود بهذا نعرف دورهم العظيم الذي يقومون به وما يتحملونه من أعباء جسيمة في سبيله.

وقبل هذا لا بدّ أن نتعرف على شخصية هذا الإنسان الذي يقوم بهذا الدور العظيم.

فالرسول لا بدّ أن يكون في صفاته الإنسانية الأخلاقية والسلوكية معصوماً عن الذنب في أفعاله كاملاً لا نقص فيه حتى يمكن أن يكون القدوة والأسوة التي يحتذي بها الناس ويبلغ الصحيح عن الله وإلا كان خلاف ما يريده عز وجل منهم ونقضاً لغرضه من إرسالهم.

ومن خلال وصولهم لمرحلة الكمال الإنساني وذوبانهم في الله (عز وجل) كانصهار الحديد بالنار وقربهم إليه وغيرها من الصفات التي يرجع بها إلى المطولات استحقوا الزعامتين الدينية والدنيوية فهم ساسة العباد وقادة البلاد والأدلاء على الآخرة وأفضلهم وآخرهم نبينا محمد ﷺ الذي لا يمكن الوصول إلى معرفة حقائقهم الكمالية الإنسانية لأنهم دون الخالق وفوق المخلوقين ولأن النبي قال لعلي: «**ما عرف الله إلا أنا وأنت وما عرفني إلا الله وأنت وما عرفك إلا الله وأنا**». ولكننا نقتفي

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٦.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٦.

شيئاً من أثرهم ونتدرج في معرفتهم على قدر عقولنا.

فطاعتهم أو اتباعهم فيما جاؤوا به عن الله عز وجل والخضوع لما أمروا به ونهوا عنه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾[1] فطاعة الرسول من طاعة الله، وطاعة أولي الأمر الذين هم خلفاء رسول الله ﷺ وحجج الله على العباد وأمناؤه في البلاد، الأئمة الاثنا عشر أولهم علي بن أبي طالب عليه السلام وآخرهم المهدي عجل الله فرجه الشريف بحسب اعتقادنا، وما ورد في الصحيح عندنا أيضاً من طاعة رسول الله ﷺ ومن طاعة الله لأننا نعتقد بضرورة إطاعة أولي الأمر كما ورد في كتاب الله عز وجل.

فالكلام الذي يجري هناك يجري هنا، لأن الارتباط وثيق بين حركة النبوة وحركة الخلافة للأوصياء أو الإمامة التي هي امتداد لحركة النبوة وأساس لحقيقة الإيمان بحيث يكملان بعضهما.

وفي الجملة الرابط بين الاتباع لهم والطاعة هو الحب الذي يعيشه الإنسان لله عز وجل ولأنبيائه ورسله بعد معرفتهم والحب في خط الإسلام لا ينفك عن التبعية لأنه لا يمكن أن يجتمع في قلبك حب عارم ومخالفة عارمة لمن تحب وهذا ما قاله الشاعر:

أتعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

فمن أراد أن يخلص في عبوديته لله بناء على حبه الحقيقي فليتبع هذه الشريعة التي هي مبنية على الحب كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «**وهل الدين إلا الحب**» الممثل بالإخلاص لله والخضوع لتعاليم الشريعة السمحاء، الإسلام الذي هو صراط الله الذي يسلك بسالكه إليه تعالى وهذا ما جاء به الأنبياء والرسل وسيدهم وخاتمهم

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٩.

محمد بن عبد الله ﷺ وعليه علاقتنا به ﷺ علاقة التبعية فيما جاء من عند الله من مجموع المعارف الخلقية والعملية وغيرها، ولا ينال الإنسان حب الله وعبوديته الحقيقية إلا باتباع رسله وما جاؤوا به من عنده، لذا خاطب الله عز وجل نبيه ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث قال: «**ومن سرَّه أن يعلم أن الله يحبه فليعمل بطاعة الله ويتبعنا**». والأحاديث الواردة في هذا الموضوع كثيرة يرجع فيها إلى المطولات.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

العلاقة مع العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[1].

بعد أن تحدثنا في الحلقتين السابقتين عن العلاقة مع الله ثم مع أنبيائه وأوصيائهم وباعتبار أننا انقطعنا عن الاتصال المباشر بالأولياء أو خلفاء النبي محمد ﷺ الاثني عشر وآخرهم الحجة المنتظر (عج) كان لا بدّ من تحديد من يرجع إليه في غيبته لأخذ أمور الدين عنه لأنه لا يتسنى لكل فرد أن يعرف أمور دينه من مداركها المقررة شرعاً. والذين يرجع إليهم في هذا المجال هم الفقهاء العلماء المتصدون لأمور الدين وأحكامه من خلال دراسته في أدلته بحيث أفنوا لتحصيل ذلك أعمارهم وعليه لا بدّ من تحديد أمور ثلاثة في العالم الذي يرجع إليه:

من هو العالم؟؟ وما هي مواصفاته؟؟ وكيف تكون العلاقة معه؟؟ ونجيب على هذه العناوين بإيجاز مستعينين بالله تعالى.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.

أولاً: من هو العالم؟

العالم هو من وصل إلى درجة علمية معينة يستطيع من خلالها أن يستخرج الحكم الشرعي ويكشف النقاب عنه من مداركه المقررة شرعاً كالكتاب بحيث يستطيع فهمه لغة ومعنى والإحاطة بناسخه ومنسوخه عامة وخاصة وسائر شؤونه والسنة التي يستند اليها للأخذ بالأخبار الصحيحة أو الموثوقة بعد الفراغ عن خلوها من الإشكال في سندها ومتنها أو الإجماع التعبدي الكاشف عن رأي المعصوم أو العقل بحسب ما قرره فقهاؤنا أعلى الله مقامهم في محله، وقد ورد في مقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام الصادق عليه السلام في صفة العالم الذي يرجع إليه أنه قال: من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا (وهذه صفات العالم الفقيه) فليرضوا به حكماً فإني جعلته عليكم حاكماً[1]، إذا من كانت لديه المقدرة العلمية على البحث والنظر في الحلال والحرام في أحكام الشريعة عبر الأدلة يكون هو العالم وعليه يترتب على الناس الرجوع إليه والأخذ منه وهذا ما يحكم به العقل من الرجوع إلى أهل الاختصاص في اختصاصهم في موارد الفقه كما يرجع المريض إلى الطبيب وفي بناء الدار إلى المهندس وهكذا الجاهل بالحكم الشرعي يرجع إلى العالم به، أما في العقيدة والمفاهيم والتاريخ فلا بد من أن يحصلها المكلف بنفسه من كتاب الله.

ثانياً: ما هي مواصفات العالم؟

قد ورد تحديد صفات للعلماء في الأحاديث نذكر بعضاً منها:

فعن الإمام الصادق عليه السلام: «**من تعلم العلم وعمل به وعلم لله ذكر في ملكوت السماوات عظيماً**».

وعنه عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألا أخبركم بالفقيه حق الفقيه.. من**

(١) أصول الكافي: كتاب فصل العلم، حديث١٠.

لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم من عذاب الله ولم يرخص لهم في معاصي الله ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره»[١].

قيل لأمير المؤمنين عليه السلام: «**من خير خلق الله بعد أئمة الهدى ومصابيح الدجى؟**».

قال: «**العلماء إذا صلحوا**».

من خلال هذه الأحاديث نستنتج أن العالم لا بدّ أولاً وبالذات أن يطلب علمه لله عز وجل وأن يعظ الناس بما جاء في الشرع فلا يحكم بغير ما أنزله الله عز وجل ويعتمد دائماً على الكتاب العظيم وأن يكون عاملاً بهذا العلم الذي تعلمه لله عز وجل وأن يعلمه للناس الذين يحتاجونه.

وكذا هناك صفات أخرى منها ما ورد عن الصادق عليه السلام: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «**إن للعالم ثلاث علامات: العلم والحلم والصمت**».

أن يكون حليماً فلا يغضب إلا لله عز وجل وأن يكون صمته عن الباطل فلا يتكلم إلّا بالحق.

ووردت صفات أيضاً عن الإمام العسكري عليه السلام منها: «**من كان من الفقهاء صائناً لنفسه حافظاً لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه**».

فإذا تحلى العالم بهذه الصفات، العلم والخوف من الله عز وجل والعمل به لله كان مؤتمناً على الدين وعلى الناس أن ترجع إليه وتسمع منه وتأخذ بحكمه وإلا تكون قد آذنت بحرب من الله ورسوله وأهل بيته لأنهم هم الذين أمروا الناس بالرجوع إليه، وعدم الرجوع معصية ومبطل للعمل.

وهنالك صفات أخرى وإن كان بعضها غير ملزم ولكنها مكملة للمروءة ينبغي التحلي بها من قبل العالم منها ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «**ينبغي للعالم أن يكون قليل**

---

(١) أصول الكافي: الجزء الأول، باب صفة العالم، حديث ٢.

الضحك كثير البكاء لا يمازح ولا يصاخب ولا يماري ولا يجادل وإن تكلم تكلم بحق وإن صمت صمت عن الباطل وإن دخل دخل برفق وإن خرج خرج بحلم».

وأما إذا كان العالم والعياذ بالله لا يتحلى بمثل هذه الصفات فينبغي أن نحذره على ديننا ولا نأتمنه عليه ولا نأخذ منه أحكامنا لأنه لا يكون من أمناء الرسل ولا من المهتدين بل منكباً على دنياه أو آمراً بضلالة أو تابعاً لسلطان أو داعياً لخرافة أو غلو أو فتنة. .

وقد وردت الأحاديث الكثيرة في هذا المعنى وخصوصاً الذين يتبعون السلاطين ليعطوهم الأحكام على طبق أهوائهم وليأخذوا منصباً دنيوياً هنا أو هناك فيستغلون علمهم لمصالحهم الشخصية، فهؤلاء ينبغي الابتعاد عنهم ونورد هنا بعضاً من هذه الأخبار المحذرة من اتباع أمثال هؤلاء والمحددة لصفاتهم فعن النبي ﷺ: «**من ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً**».

وعنه ﷺ: «**الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل: يا رسول الله ما دخولهم في الدنيا؟ قال: اتباع السلطان فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على أديانكم**».

وعن الصادق عليه السلام: «**ملعون ملعون عالم يؤم سلطاناً جائراً معيناً له على جوره**».

وعنه عليه السلام: «**إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يحوط ما أحب**».

وهناك أشخاص آخرون تسنح لهم فرص معينة يصلون من خلالها الى مراكز غير جديرين بها فيدعون علماً وهم في الحقيقة جهلاء وينسبون أنفسهم إلى العلم وهم ليسوا من أهله لكنهم كانوا صنيعة ظروف معينة، فهؤلاء كالجهلاء الذين يلبسون جلباب النسك والزهد ليغشوا الناس بمظهرهم فتصدر عنهم مسائل هم بالأصل لا يعرفون لها حكماً لأنهم لم يتعلموا، وهناك أخطر من هؤلاء وهو العالم المتهتك الذي يصد عن سبيل الله بتهتكه وتصرفه اللاأخلاقي وما شاكل ذلك، لذا ورد في الحديث عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**قصم ظهري اثنان: عالم متهتك وجاهل متنسك فالجاهل يغش الناس بتنسكه والعالم يغرهم بتهتكه**».

ثالثاً: كيف تكون العلاقة مع العلماء؟

ورد في الحديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**وحق سائسك بالعلم التعظيم له والتوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه والإقبال عليه وأن لا ترفع عليه صوتك ولا تجيب أحداً يسأله على شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدث في مجلسه أحداً ولا تغتب عنده أحداً وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه ولا تجالس له عدوّاً ولا تعاد له ولياً فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله جل اسمه لا للناس**».

وهناك أمور أخرى حددت في أحاديث أخرى مشابهة منها عدم المشي أمامه واحترامه وعدم رفع الصوت في مجلسه وعدم ذكر قول فلان وفلان عنده وعدم الأخذ بثوبه والسلام على مجالسيه وتخصيصه بالتحية وما إلى ذلك من الآداب الواردة والتي ينبغي لكل متعلم أن يراعيها مع أستاذه، فمن علمني حرفاً كنت له عبداً لأنه بذلك ينير القسم المظلم في فكرنا ويصنع منا شخصية علمية مدركة واعية مؤدبة خيرة مؤمنة صالحة ورعة زكية الى ما شاء الله من الصفات الجيدة التي نأخذها عن العلماء الذين يصنعون المجتمعات المؤمنة الصالحة الموحدة لله عز وجل وينيرون طريق الجاهلين ويحفظون الدين، ولذلك ورد في فضلهم ومنزلتهم الشيء العظيم الوفير نورد بعضاً منها ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر**»، وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**عالم ينتفع بعلمه أفضل من عبادة سبعين ألف عابد**»، وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**النظر إلى وجه العالم عبادة**». وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام عن هذا العالم فقال: «هو العالم الذي إذا نظرت إليه ذكرك الآخرة» ومن كان خلاف ذلك فهو فتنة خصوصاً من أمر بالبدع وفرق بين المؤمنين ودعا إلى عصبية.

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «**أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد**».

وعنه صلى الله عليه وآله: «**طالب العلم ركن الإسلام ويعطى أجره مع النبيين**».

وعنه ﷺ: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**».

وعنه ﷺ: «**العلماء ورثة الأنبياء يحبهم**».

وعنه ﷺ: «**يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح عليهم مداد العلماء على دماء الشهداء**» وهم إنما استحقوا هذه المراتب العظيمة والرتب الشريفة لأنهم حفظوا الدين والأمة والنهج السليم والقويم لخط أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين وكانوا أفضل من الشهداء لأنهم هم الذين يصنعون الشهداء من خلال صنع شخصيتهم المؤمنة القوية المخلصة لله ولرسوله ولأهل بيته الطاهرين.

وما نأسف له ويدمي قلوبنا في هذا الزمن التهتك اللامحدود والافتراءات الغريبة على العلماء وتناولهم بشتى الألفاظ الشنيعة التي لا تصلح أن تقال لكافر لأنها لا تنسجم مع شخصية الإنسان المؤمن والمتزن فنجد بعض الجهلة الذين ابتلي بهم الدين وأهل العلم قد بثوا سموماً وفرقوا اتحاداً كنا نتغنى به ونفاخر على سائر من سوانا وكنا نعتقد أن من لم يكن من أهل العلم يجب إسكاته ومن كان منه عليه أن يلتزم بالنقد الواعي البناء وآدابه أو فليترك هذا السلك لأنه يصبح حينئذٍ متهتكاً ووبالاً على الدين وقاطع طريق إلى الله لا دالاً عليه.

نصيحتي الأخوية للجميع أن يرجعوا الى الله ويتقوه لأنه سائلنا جميعاً يوم القيامة عن كل شيء ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1] سائلنا عن وحدتنا وعن الذين يفرقون والذين ساعدوا في التفرقة وعن العلماء وحفظهم وتعظيمهم والرجوع إليهم واحترامهم وما إلى ذلك من الأمور الواضحة كالشمس والبينة كالأمس، لذل أطلب من إخواني المؤمنين عدم الخوض في هذه الأمور واحترام العلماء وترك غير الصالح منهم مع عدم الكلام عليه والرجوع إلى الصالح وتعظيمه كما بينت سابقاً واحترام أهل العلم، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا**

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

تزدرين العالم وإن كان حقيراً ولا تعظمن الأحمق وإن كان كبيراً».

وقال عليه السلام: «**من وقر عالماً فقد وقر ربه**».

نسأل الله تعالى أن يوحد صفوفنا ويجمعنا على الخير والهدى وتحكيم الإسلام لا الأهواء وأن يرزقنا آداب التحاور والتناصح.

فائدة مهمة:

لقد كثر في هذا الزمان وعلى لسان كثير من أهل العلم ومن ورائهم بعض المرجعيات التي تحمل أفكار الشيخية من غلو وخرافة وكرامات مزعومة. والشيخية الجديدة هي أخطر على خط أهل البيت وأتباعه من أهل الكفر والجحود لأنها تصنع الفتن وتفرّق بين الناس وتضلّل كل من خالفها الرأي بإسم الدفاع عن مراتب أهل البيت عليهم السلام وقد حذّر منهم الإمام العسكري عليه السلام لأنهم اختزلوا العقول وعطّلوها وأحيوا البدعة وأماتوا السنة. يقول في آخر حديثه عن العلماء وآخرون يتعمدون الكذب علينا ليجنوا من عرض الدنيا ما هو زادهم إلى نار جهنم، ومنهم قوم نصاب لا يقوون على القدح فينا فيتعلمون بعض علومنا الصحيحة، فيتوجهون به عند شيعتنا ثم يضيفون إليه أضعاف أضعافه من الأكاذيب علينا التي نحن براء منها فيتقبّله المستسلمون من شيعتنا على أنه من علومنا، فضلّوا وأضلوا وهم أضرّ على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه.

علاقة المؤمن بأخيه الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه المقالة المختصرة تتعلق بأسس علاقة الإنسان مع الإنسان أولاً ثم علاقة المؤمن بأخيه المؤمن فنقول وبالله التوفيق ههنا عناوين:

العنوان الأول: حقوق المرء:

من أروع ما ذكر كقاعدة للبشرية تسير عليها في مجال إرساء العلاقة بين أفرادها كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام: «**الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**». وفيها نظر الإمام للإنسان بما هو إنسان بغض النظر عما يحمله من فكر ديني أو سياسي دونما التفات لأي اختلاف في اللون أو العرق أو ما شابه، فجعل له احترامه وكيانه الذي ينبغي للآخرين أن يقدروه على أساسه وأعطى صفة النظير في الخلق والأخ في الإنسانية لكل من تختلف معه في التوجه. فعلى الإنسان أن يحترم أخاه الإنسان في مشاعره وفكره فلا يعتدي عليه ولو بكلمة تسيء إليه أو تثير أحاسيسه لأن جميع أفراد الإنسان يشتركون في الخلقة ويتساوون في الإنسانية.

العنوان الثاني: حقوق المؤمن:

وإذا كان هذا الإنسان مؤمناً فيصبح حقه مضاعفاً واحترامه في حقوقه ومشاعره

وكيانه وماله وعرضه وما يحوط به آكد في هذا المقام. . لذا نرى في القرآن الكريم والأحاديث المروية عن أهل البيت عليهم السلام تأكيداً على هذه المسائل ونذكر بعضها تبركاً وتعلماً ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، هذه الآية ترتقي بعلاقة المؤمنين إلى مرتبة الأخوّة بما يستتبع ذلك من الاحترام المتبادل والإحساس بالمسؤولية تجاه المؤمن في الجوانب كافة وليس فقط على مستوى المشاعر والأحاسيس، بل تتعدى ذلك إلى أمور عملية كقضاء حاجته وحفظه في غيبته وغفران زلته وعدم استعتابه وما إلى ذلك مما يؤثر إيجاباً في بناء المجتمع الصالح، وورد في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: «**وأما حق أخيك فتعلم أنه يدك التي تبسطها وظهرك الذي تلتجئ إليه وعزك الذي تعتمد عليه وقوتك التي تصول بها فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله ولا عدة للظلم بحق الله ولا تدع نصرته على نفسه ومعونته على عدوّه والحؤول بينه وبين شياطينه وتأدية النصيحة إليه والإقبال عليه**».

نستخلص من كلامه عليه السلام أن المؤمن يجب أن يعتبر أخاه المؤمن كجسده فكما يحتاج إلى أعضائه للاستعانة بها في قضاء حوائجه فكذا أخوك المؤمن تستعين به وتعينه وتلجأ إليه في المصاعب وتوحد قوتك معه في قبال العدوّ لتنتج معه العزة والكرامة وتسدي له النصيحة عند خطئه وتبعده عن المعصية إذا مال إليها لا أن تتركه عند ارتكابها فيضيع بلا ناصر ولا ناصح ويتفكك بذلك الرابط الذي يؤدي بدوره إلى تفكك المجتمع.

بل على العكس لا بدّ من احتضانه وإسداء النصح له والإكثار من اتخاذ الإخوان في الله عز وجل ليكون المؤمن عوناً فقد ورد عن الإمام عليه السلام قوله: «**عليك بإخوان الصدق فأكثر من اكتسابهم فإنهم عدة عند الرخاء وجنة عند البلاء**». وبذلك تقوى شوكة المؤمنين ويعلو عزهم، ويقدمون نموذجاً رائعاً لمجتمع ديني يلتزم الرسالة.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

أما إذا عكسنا الصورة بحيث لم يرع المؤمن حق أخيه بل ولم يحفظه في غيبته ولم يدله على الصواب، وكان ظالماً له ولم يراع له أي حق فرض عليه عقلاً أو نقلاً فإنه بذلك يعطي صورة عن مجتمع ممزق متخلف يعيش الأحقاد والتفكك، كما نشاهد في زماننا عند أدنى اختلاف في الرأي لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**المؤمن أخو المؤمن عينه ودليله لا يخونه ولا يظلمه ولا يغشه ولا يعده عدة فيخلفه**».

فإذا وجدت هذه الأمور بين المؤمنين فهذا أذان بقلة الدين عندهم فعليهم حينئذ أن يرجعوا إلى عقولهم وقلوبهم ليصفوها من الأحقاد والضغينة والغل الذي يحملونه على بعضهم والظنون السيئة التي يرتبون عليها آثاراً عاقبتها وخيمة، لأن من لم يستطع أن يحب أخاه المؤمن ويخلص له لا يستطيع أن يحب دينه بالشكل المطلوب كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من حب الرجل دينه حبه أخاه**»، فإذا أحب دينه أحب أخاه وإلا فلا يقوى الرجل على حب دينه إن لم يحب إخوانه المؤمنين. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[1]. ونرى في هذا الزمن أدعياء كثر يخربون أكثر مما يعمرون، ويفرقون أكثر مما يجمعون، ويحملون في قلوبهم الضغينة والحسد والحقد والجفاء والخيانة والظلم وكل هذه الصفات السيئة البشعة الشيطانية على إخوانهم المؤمنين ويترجمون ذلك بكلام هنا ومقالات هناك، يفسقون ويكفرون ويلعنون وأقل ما يفعلونه يقاطعون المؤمنين فهل هذا من الدين أو من الإسلام في شيء؟. كلا وحاشا وقد ورد: «**إذا قال المؤمن لأخيه المؤمن: أنت عدوي فقد كفر أحدهما**».

وورد أيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله: «**أدنى الكفر أن يسمع الرجل عن أخيه الكلمة فيحفظها عليه يريد أن يفضحه بها أولئك لا خلق لهم**».

أيها الإنسان أيها المؤمن اختلافك مع أخيك في الرأي أو التوجه أو الخط أو

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

الأسلوب أو أي شيء آخر لا يعطيك الحق مطلقاً في أن تعاديه أو تشتمه أو تلغيه، وأي مبرر تقدمه في هذا الإطار هو جهل وضلالة منك وعذر أقبح من ذنب ومرض في قلبك وعقلك يجب أن تتراجع عنه والرجوع عن الخطأ فضيلة. لا أن تجد المبررات الواهية الشيطانية للهجوم عليه تحت مسميات مخترعة كالمصلحة الإسلامية وغيرها.

وفي هذا المقام نصيحتي للجميع، كباراً وصغاراً، مما أراه في واقعنا وعلى ضوء ما قدمته ولا أعيد ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤﴾[1]، ارجعوا الى الله واتقوه وعززوا وحدتكم فكفاكم تمزيقاً وتفريقاً وإفساداً ونشراً للأحقاد بين الناس فالأخطار المحدقة بنا أكبر مما تتصورون وكلكم مسؤول فاتقوا الله في بلاده وعباده فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم.

العنوان الثالث: المكاشفة والتناصح:

إن المكاشفة والمصارحة تجلو القلوب وتريح النفوس فقد قال إمامنا الجواد عليه السلام: «**لو تكاشفتم لتناصحتم**». أما البعد عن الإخوان والعمل بالظن من دون التماس الحقائق من إخوانك مباشرة وعدم المكاشفة تولد الجفاء فيستحق صاحبها مقت الله والناس كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إياك والجفاء فإنه يفسد الإخاء ويمقت إلى الله وإلى الناس، وإياك والقطيعة وعدم المبادرة إلى مصالحة أخيك وعدم قبول عذره أن اعتذر اليك وفتح قلبه وعقله لك**» فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ملعون ملعون رجل يبدؤه أخوه بالصلح فلم يصالحه**»... وحتى لو فرض أنه لم يصالحك وكان مخطئاً معك ولم يبادلك بذلك.

وإن حصلت القطيعة منه فصله أنت وكن أقوى منه في صلته على قطيعته، فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**لا يكونن أخوك أقوى على**

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

قطيعتك منك على صلته ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان».

نتعلم في الإسلام أن نصل من قطعنا ونحسن إلى من أساء إلينا فهذه أخلاق النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام وقد نزلت في نبينا الآية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾[1]. لأنه كان يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه.. وهذا ما علمنا إياه وندبنا إليه لنقتدي به ونعمل بسيرته فهل نطبق ذلك أو ينطبق علينا الحديث الشريف: «**أقل ما يكون في آخر الزمان أخ يوثق به أو درهم حلال**»، وهل نحتاج دائماً إلى مداراة الآخرين لنأمن شرورهم ونحيا بسلام؟؟ إن هذا ليس من الإسلام في شيء وقد نفى أمير المؤمنين عليه السلام أخوة من يحتاج إلى المداراة لتتقي شره ولسانه فقال: «**ليس لك بأخ من احتجت إلى مداراته**»، بل يجب أن يرى المؤمن نفسه كنفس أخيه وإلا فلا خير فيه كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «**لا خير في صحبة من لم ير لك مثل الذي يرى لنفسه**».

يجب أن تكون علاقة المؤمن بأخيه المؤمن علاقة المحبة والتسامح والحفظ والاحترام والنظر في حاجاته وأدائها وحمل همومه وآلامه ومشاركته في أفراحه وأتراحه وتنزله منزلة نفسك، فكما أنك تراعي نفسك وتؤدي حقوقها عليك مراعاة إخوانك وتأدية حقوقهم هذا هو معنى الأخوة الذي ورد في الآية الكريمة وهذا ما علمنا إياه أمير المؤمنين بقوله عليه السلام: «**إن أخاك حقاً من غفر زلتك وسد خلتك وقبل عذرك وستر عورتك ونفى وجلك وحقق أملك**».. وروي عنه عليه السلام: «**أخوك الذي لا يخذلك عند الشدة ولا يغفل عنك عند الجريرة ولا يخدعك حين تسأله**»... فلا بدّ أن تتغاضى عن كل مساوئه وتنظر إلى الرابط الذي بينك وبينه وهو الإسلام فتدوم علاقتك به من خلال دينك مهما كثر خطؤه، فقد قال عليه السلام: «**الإخوان في الله تدوم مودتهم لدوام سببها**»، والسبب هو الدين والدين يدوم فعليك بدوام العلاقة معه، هذا هو الإسلام وهذه أخلاقه وتعاليمه التي وردت للعمل بها لا إبقاءها في بطون الكتب

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

وكل ما خلا ذلك باطل من أعذار واهية وقطيعة حاقدة وضغينة جاهلية وعصبية عمياء، ولو فرضنا وجد هذا والعياذ بالله فعامله على أساس أنه نظير لك في الخلق نحترمه كإنسان.

الخاتمة: على ضوء ما قدمنا نستخلص أن الأخوة بين المؤمنين لا يلغيها شيء طارئ على العلاقة فيما بينهم من الاختلافات المتعددة الجوانب، فإذا كنا نفهم القاعدة التي ننطلق من خلالها وهي أننا جميعاً نعمل على ظاهر الأحكام الفقهية التي نزلها الله تعالى منزلة الواقع وإن خالفته إذا كانت مبنية على الأدلة المقررة في محلها يجب حينئذ التماس العذر لمن نختلف معه، دلني عصمنا الله وإياك أي شيء يعطي لأحدنا الحق في تكفير الآخر أو قطيعته أو إلغاء أخوته.

علاقة الإنسان ببيوت اللّه (المسجد)

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1].

موضوع المساجد من الأولويات التي اهتم بها الإسلام، لأنها الأساس في بناء شخصية الإنسان المسلم الرسالي، لذلك حث على إعمارها بالصلاة والذكر والدعاء والموعظة واعتبارها متاريس للمسلمين الذين ينطلقون منها بعد التعبئة الروحية ليواجهوا الحياة بأخلاق الإسلام فردياً واجتماعياً وأسرياً وليقفوا صفاً منيعاً أمام التحديات والأخطار التي تحاك ضدهم سياسياً وثقافياً وحتى عسكرياً فقد كانت انطلاقة رسول الله ﷺ في المدينة المنورة من المسجد لتثقيف الناس علمياً وروحياً وجهادياً، ولذلك يجب أن نولي المسجد اهتماماً كبيراً ليس فقط على صعيد بنائه كما نرى في هذه الأيام مع الأسف من دون عمارته بذكر الله وأخوف ما نخافه أن ينطبق علينا أن مساجدنا عامرة من كل شيء إلا من الإيمان، فقد ورد في علائم آخر الزمان عن الإمام الصادق عليه السلام: ورأيت المساجد قد زخرفت... وقوله ﷺ: «**وأصبح المؤمن ذليلاً والمنافق عزيزاً مساجدهم معمورة بالأذان خالية من الإيمان واستخفوا بالقرآن**» إلخ. فإننا نرى في زماننا تعاطياً سلبياً مع المساجد من حيث عدم الحضور فيها والتحدث بصوت مرتفع وترك الجماعة والخوض فيها بشؤون الدنيا وابتعاد الجيران عنها وحتى إننا نرى بعض مساجد المسلمين أصبحت أداة للفرقة بين المؤمنين والفتنة بين المسلمين والتكفير والتضليل والبهتان للآخرين الذين نختلف معهم في الرأي والمنهج حتى داخل المذهب الواحد والجماعة الواحدة وما إلى ذلك

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٨.

حول هذا الموضوع خصوصاً في شهر الله تعالى شهر العبادة والتعبئة الروحية ومعرفة مقام الربوبية لعلنا ننال شيئاً من الرحمة الإلهية وإلا اتصفت أنفسنا بالشقية.

عناوين البحث

العنوان الأول: الحضور إلى المسجد والجلوس فيه:

وهو من الأمور التي أعطي صاحبها أجراً عظيماً لأن المسجد اعتبره الله بيته بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[1] فقد نسبها إليه وعظمها وأراد للمسلم أن يتعلق قلبه بها، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله... ورجل قلبه متعلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه**»...، وقال ﷺ: «**من مشى إلى مسجد من مساجد الله فله بكل خطوة خطاها حتى يرجع إلى منزله عشر حسنات ويمحى عنه عشر سيئات ويرفع له عشر درجات**». وليس ذلك إلا لأنه وفد على الكريم، ومن أكرم من الله عندما تزوره في بيته ليجزيك، فقد ورد أن في التوراة مكتوباً: إن بيوتي في الأرض المساجد فطوبى لمن زار مساجدي، قيل لأمير المؤمنين عليه السلام عن الجلوس في الجنة، فقال عليه السلام: الجلسة في الجامع خير لي من الجلسة في الجنة، لأن الجنة فيها رضا نفسي والجامع فيه رضا ربي. فقدم عليه السلام رضا ربه على رضا نفسه. وورد أيضاً الحث على الجلوس في المسجد كما عن رسول الله ﷺ وهو يقول لأبي ذر: «**يا أبا ذر إن الله يعطيك ما دمت جالساً في المسجد بكل نفس تتنفس فيه درجة في الجنة**». وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من مشى إلى المسجد لم يضع رجلاً على رطب أو يابس إلا سبحت له الأرض إلى الأرضين السابعة**».

العنوان الثاني: جار المسجد:

وأولى الناس بالمسجد جيرانه الذين من حوله فعليهم عدم تركه لأن الأحاديث

---

(١) سورة الجن، الآية: ١٨.

التي وردت وأنقل بعضها زجرت وبشكل عنيف ترك الحضور فيه لهؤلاء والجار حدده أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**حريم المسجد أربعون ذراعاً والجوار أربعون داراً من أربعة جوانبها**»، فلو أن جيران المسجد حضروا فيه لا نرى مسجداً خالياً أو حضوره خفيفاً وخصوصاً في هذا الزمن التي ترتفع فيه الأبنية فلو حضروا لا يوجد لهم أمكنة. وورد عن الإمام الصادق عليه السلام: شكت المساجد الى الله تعالى من جيرانها فأوحى الله عز وجل إليها: وعزتي وجلالي لا قبلت لهم صلاة واحدة ولا أظهرت لهم في الناس عدالة ولا نالتهم رحمتي ولا جاوروني في جنتي. وورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ليوشك قوم يدعون الصلاة في المسجد أن نأمر بحطب فيوضع على أبوابهم فتوقد عليهم نار فتحرق عليهم بيوتهم طبعاً هذا الزجر للذين يستخفون بالمساجد على نحو المبالغة إن صحت الأحاديث.

أقول: هذا التقريع المخيف والزجر العنيف ربما يكون لعدم احترامهم حق الجيرة التي هي مفروضة على الناس مع بعضهم فكيف إذا كان الجار هو بيت الله عندئذ يكون ترك الحضور فيه من قبل جاره هو عدم احترام بيت ربه وحقه المفروض عليه وكيف يحترم الله من لا يحترم بيته؟. وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: لا صلاة لمن لم يشهد الصلوات المكتوبات من جيران المسجد إذا كان فارغاً صحيحاً.

ملاحظة: يقول علماؤنا أعلى الله مقامهم: إن الصلاة لا تقبل ليس بمعنى بطلانها بل بمعنى خسران الأجر فإن عدم القبول لا يعني رفع التكليف، فمن صلى في بيته أسقط التكليف عنه إلا أن الله لا يعطيه الأجر فلا يقبلها منه. واعلموا أيها المؤمنون وخصوصاً جيران المساجد أنها تشكو عليكم يوم القيامة، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ثلاث يشكون إلى الله عز وجل مسجد خراب لا يصلي فيه وعالم بين جهال ومصحف معلق قد وقع عليه الغبار لا يقرأ فيه**». وثانياً ليس بالضرورة حضور صلاة الجماعة فيه مع كون الإمام مبتدعاً مفرقاً للناس بل يزوره بعد انتشارهم منه.

العنوان الثالث: فوائد المسجد:

إن فوائد المسجد كثيرة جداً لأنها مظهر الوحدة في الصلاة ومنطلق لوحدتهم

على جميع الأصعدة الاجتماعية والسياسية والدينية وما إليه، وسبب لتعاونهم وتعاضدهم وتكاتفهم ووقوفهم صفاً منيعاً بوجه أعدائهم، وليس هذا التفرق الموجود عند المسلمين إلا لأنهم لم يحسنوا الاستفادة من هذا المعنى، وهنالك فوائد أخرى غير الأجر العظيم تستفاد من المسجد حددها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى ثمانية: أخاً مستفاداً في الله، أو علماً مستطرفاً، أو آية محكمة أو يسمع كلمة تدل على هدى أو رحمة منتظمة أو كلمة ترده عن ردى، أو يترك ذنباً خشية أو حياءً**». فالأخ الذي يتعرف عليه يكون عوناً له في الدنيا بقضاء حوائجه ويتكامل معه في كل شيء وينفعه في آخرته، فقد ورد أن الله يستحي أن يعذب العبد بين إخوانه، وينتفع علمياً من خلال الدروس والمواعظ التي تلقى في المسجد ويحفظ آيات من الكتاب مما يتلى على أسماعه ويهتدي الى الطريق الصحيح إذا كان جاهلاً ببعض الأمور وتنزل عليه الرحمة لأنه إن لم يكن أهلاً لها وكان في المسجد من هو أهل لها، فإذا نزلت تشمل الجميع بلطفه تعالى، وإذا تعود على فعل ذنب فقد يسمع كلمة يترك فيها ذنبه، إما من خشية الله عز وجل أو حياء من إخوانه الذين استفادهم وعليه تتكامل شخصيته المؤمنة الملتزمة العارفة.

العنوان الرابع: الكلام في المسجد وعدم توقيره:

من الآفات التي ابتلينا بها في مساجدنا رفع أصواتنا وعدم احترام المكان الذي نحن فيه وهذا مع الأسف مرض عام لا يلتفت إليه المؤمنون وأحياناً يتعمدون ذلك بدواعٍ يعتبرونها شرعية وهي في الأصل شيطانية، وقبل أن أنقل روايات في هذا المقام أسأل إخواني لو أن أحد الزعماء أو القيادات التي يتبعونها دخلوا إليها في أماكنها هل يرفعون أصواتهم لديهم هل تعلو ضحكاتهم أمامهم أم يجلسون بين أيديهم جلوس العبد الذليل بين يدي المولى الجليل بكل أسف ولوعة؟.

أقول: إننا لم نترب حتى الآن تربية دينية بعيدة عن كل انتماءاتنا ولذلك أقول

بكل محبة لإخواني: يجب عليهم الالتفات إلى ذلك حتى ولو لم يعجبهم من في المسجد لأن الله لا يطاع من حيث يعصى، ومن هنا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**ملعون ملعون من لم يوقر مسجداً**». أي لم يجعل له قدسية الانتساب إلى الله لأنه بيت الله فيلعب فيه ويرفع صوته وقهقهته وما إليه من الأفعال التي لا يرضاها الله. وكذا أخاف أن ينطبق علينا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يذكر علائم آخر الزمان فيقول له سلمان: يا رسول الله ومتى يكون ذلك؟ فقال صلى الله عليه وآله أموراً... إلى أن قال: «**وقطعتم زكاتكم وأظهرتم منكراتكم، وعلت أصواتكم في مساجدكم وجعلتم الدنيا فوق رؤوسكم والعلم تحت أقدامكم**».

العنوان الخامس: ما نهي عن فعله في المسجد:

قلنا فيما سبق: إن المسجد هو للعبادة والذكر وليس لما تعارف الناس عليه فيتمون صفقاتهم ويتحدثون بأمور الدنيا التي لا تهم حياتهم وما إلى ذلك، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر: «**يا أبا ذر الكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، يا أبا ذر من أجاب داعي الله وأحسن عمارة مساجد الله كان ثوابه من الله الجنة فقلت: كيف يعمر مساجد الله؟ قال: لا ترفع الأصوات فيها، ولا يخاض فيها بالباطل ولا يشترى فيها ولا يباع واترك اللغو ما دمت فيها فإن لم تفعل فلا تلومن يوم القيامة إلا نفسك**». وعن محمد بن علي بن الحسين قال: قال عليه السلام: جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم ورفع أصواتكم وشراءكم وبيعكم والضالة والحدود والأحكام. وتجنيب المسجد هؤلاء رعاية عدم تنجيس المسجد لأن الصبي لا يؤمن منه وكذا المجنون بحركاته التي تحدث حالة من الضحك فيبتعد عن جو العبادة وتحدثنا عن رفع الصوت والبيع والشراء من أمور الدنيا لا ينبغي المشاكسة والمساومة عليها في المسجد والضالة يكره الإنشاد عنها في المسجد، وكذا لا يكون المسجد لإقامة الحدود والقضاء حتى يرفع منه جميع أنواع الظلم إن وجد في القضاء والحدود لأن القضاء إنما يكون على البينة وقد تكون في الواقع زوراً... وكذا نهى

رسول الله ﷺ عن إنشاد الشعر الذي ليس فيه مدح أهل البيت وذكر فضائلهم وذكر الموت وما إليه مما يتعلق بالدين.

العنوان السادس: الصلاة في المسجد:

هذا كله الذي قدمناه من الأجر في المشي نفسه إلى المسجد للصلاة فرادى وللتعبد بشكل فردي، أما لو كان المشي الى المسجد لطلب صلاة الجماعة والمحافظة عليها فإن الأمر على الصلاة يزيد ولا يحصيه إلا الله إذا ازدادت الجماعة على العشرة، وأما السير نفسه إليها فقد ورد عن النبي ﷺ: ألا ومن مشى إلى مسجد يطلب فيه الجماعة كان له بكل خطوة سبعون ألف حسنة. ربما هذا العدد كناية عن الكثرة والله العالم.

وحتى أن الصلاة في المسجد فرادى من دون جماعة أفضل من الصلاة جماعة في غير المسجد لذلك ورد عن إبراهيم بن ميمون قال: قلت للإمام أبي عبد الله عليه السلام: إن رجلاً يصلي بنا نقتدي به فهذا أحب إليك أو في المسجد؟ قال عليه السلام: المسجد أحب إلي.

ملاحظة: في هذا الفرع هناك مسألة مهمة يجب لفت النظر إليها وهي أننا نشاهد في مساجدنا أنهم يصلون فرادى مع انعقاد صلاة الجماعة وهذا مما أفتى مراجعنا العظام بحرمته حتى أن بعضهم استشكل في صحة الصلاة وفرض الإعادة خصوصاً إذا كانت تمثل هذه الصلاة فرادى تفسيقاً لإمام الجماعة. وعدم الثقة بالمصلين خلقه حيث يظهر من حاله ولو لم يتكلم.

العنوان السابع: مستحبات المسجد:

من المستحبات الأكيدة أن يذهب المصلي إلى بيت الله وهو متوضئ يمشي بوقار ولكنه متزين ومتطيب يقدم رجله اليمنى عند الدخول واليسرى عند الخروج منه يدعو بالمأثور: «**إلهي عبدك ببابك يا محسن قد أتاك المسيء فتجاوز بجميل ما عندك عن قبيح ما عندي يا كريم**»، والصلاة على محمد وآله وغيره مما يرجع إليه في محله. وأن يكون أول الداخلين إليه وانتظار الصلاة وآخر الخارجين منه. وأن يصلي ركعتين تحية للمسجد وما إليه مما استخرج من الأحاديث الشريفة الواردة في هذه الأبواب.

العبادة وموقعها من الإيمان

إن للعبادة دوراً أساسياً في بناء شخصية المسلم عقيدة وأخلاقاً وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1].

فكان غاية الخلق هي العبادة وحقيقة العبادة المعرفة وبها يشتد الرابط العقيدي والارتباط بالخالق، فأظهر مظاهرها الصلاة وهي ابتهال لمعبود واحد ومخاطبة خالق أوحد وكل العبادات كذلك يجب ربطها عقائدياً بإله واحد لا شريك ولا نظير ولا ندّ ولا عديل له. فيعظم مستواه الإيماني ويتعمق في ذاته العشق الإلهي فينصاع إليه كلياً ولا يرى لنفسه بعد ذلك تدبيراً ولا حولاً وإنما الحول والقوة والتدبير لهذا الإله الذي له الطاعة المطلقة والتسليم لأمره.

ثم ما تحويه هذه العبادة واللجوء إلى الله من معان وأفكار تحسن ذاته وترفع مستواه الروحي والسلوكي فإن كل مفردة من مفردات العبادة تحمل معنى روحياً سلوكياً رفيعاً تنعكس على الذات وتعمل على تحسين الداخل ليعكس على الجوارح تعاملاً جميلاً وأخلاقاً فاضلة.

إن العبادة في روحها ومعناها تصنع الإنسان وتحرك فيه إنسانيته ليعيش الشعور مع الآخرين فيحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم، فقلب الإنسان الذي يعيش إنسانيته لا يعرف الحقد والعداوة والبغضاء لأنه يعفو عمن ظلمه ويصل من قطعه ويعطي من

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

حرمه وبذلك سما رسول الله ﷺ واستحق المدح والثناء، منه تعالى إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] وبهذه العبادة ارتفع أهل البيت صلوات الله عليهم إلى أعلى الدرجات والمراتب ولحق بهم التابعون بإحسان إلى يوم الدين، فالعبادة هي التي تصنع المنزلة الرفيعة عند الله تعالى وهي أساس الإيمان ومرتكزة وهي التعبير الفريد عن حقيقته وعمقه في الذات فكلما عظمت درجة الإيمان عظمت عبادته وعلت درجته وسمت نفسه وعظمت شخصيته.

ونورد في هذا المختصر بعض العناوين:

الأول: معالجة المفهوم الشائع الإيمان بالقلب على نحوين:

ـ إن تفسير معنى الإيمان عند كثير من الناس بأنه مرتبط بالقلب ولا أهمية للأفعال الخارجية فتسقط عند هؤلاء أهمية العبادة إذ لا قيمة لها وبالتالي ليست واجبة عليهم ما دام الإيمان بالقلب، فالله تعالى أرادنا أن نؤمن به، أما التشريعات القانونية والسلوكية والعبادية فهذه راجعة إلى كل زمان ومكان بحسب مقتضياته وتطوراته وعليه لا يكون هناك فرق بين الإسلام والإيمان عندهم ولكن هذا المعنى والمعتقد مخالف لنظر الإسلام فالله تعالى يشير إلى بطلان ذلك بقوله تعالى في (سورة الحجرات: ١٤): ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إن هذه الآية تعطي الجواب عن أنه هناك فرق بين الإسلام والإيمان ولكن الإيمان له خصائص زائدة عن الإسلام.

فالإسلام يمثل الانقياد العملي والتسليم الطوعي مع أوامر الله ونواهيه بحيث يصبح الشخص جزءاً من المجتمع المسلم بما يفرضه عليه من حقوق وواجبات سواء

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

جاء إسلامه نتيجة ظروف خارجية ضاغطة كحال من دخل الإسلام رهبة أو جاء رغبة وطمعاً في الأرباح التي يمكن أن يحصل عليها من إسلامه إلى غيرها من الدوافع (وطبعاً الإسلام يكمن فيه نطق الشهادتين وفي بعض الأخبار شهادة التوحيد ليدخل في الإسلام).

فالله لم يجعل الإسلام شرطاً للدخول في الإيمان بل ارتضى أن ينسجموا مع الجو الإسلامي العام ويخرجوا من مجتمع الكفر لتبدأ بعد ذلك عملية التوعية والتربية الروحية والفكرية من داخل الأجواء الإسلامية ليبني قناعته بالإسلام.

ـ أما الإيمان فإنه قناعة فكرية وروحية يجسدها السلوك الخارجي عملاً ليكون قناعة في الفكر وشهادة باللسان وحركة في العمل كما روي عن الإمام علي عليه السلام في ما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الإيمان هو الإقرار باللسان وعقد في القلب وعمل بالأركان**».

ولذلك لم يقبل الله تعالى الإيمان من الأعراب (والظاهر أنهم سكان البادية الذين لم يتفقهوا في الدين ولم يعيشوا الوعي العميق للمضمون الفكري والروحي للإسلام) ولذا أمر رسوله بفضح هؤلاء وواقعهم البعيد عن الإيمان ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ لأن الإيمان يعبّر عن عمق الإحساس بالعقيدة كقناعة في جانب الفكر والشعور ليتحرك عملاً بالجوارح وتطبيقاً لأحكام الدين ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ فقد أسلمتم أمركم بالكلمة والطاعة وأوقفتم حربكم ضد الدعوة والرسالة ودخلتم المجتمع المسلم وبدأتم تندمجون فيه ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فقد تحتاجون إلى الوقت الطويل لتتخلصوا من رواسب الشرك وعاداته وتنفتحوا على أفكار الإيمان وحقائقه لتختزنوا إشراقة النور الإلهي في عقولكم وقلوبكم فتترجم طاعة وعملاً خارجياً.

الثاني: الإيمان والإسلام:

روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**يا علي اكتب فقلت: ما أكتب؟ قال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم الإيمان ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال والإسلام ما**

جرى على اللسان وحل به الزواج من المسلمة».

إلى غيرها من الروايات التي تؤكد أن الإيمان بالقلب هذا المفهوم الشائع لا قيمة له في الدين الإسلامي إلا أن يقترن بالعمل وكلمة النبيﷺ ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال يستفاد منها أن الإيمان القلبي الذي لا يتبعه العمل يكون إيماناً كاذباً سطحياً يذهب عند أي عاصفة دنيوية أو ثقافية أو غيرها، فمن السهل حينئذ أن يتحول هذا الإيمان إلى كفر في مهب الريح، ولذا شرط النبيﷺ شرطين أساسيين الأول: أن يقر هذا الإيمان بالقلب ومعنى ما وقر أي ما استقر أي لا يمكن زحزحته وقلعه، فإذا وصل إلى هذه الرتبة تلقائياً تحقق الشرط الثاني وهو قوله: (**صدقته الأعمال**) لأنها صورة تعكس استقرار الإيمان في القلب فإذا لم يكن هناك عمل فليس هناك إيمان بالقلب ومن هذا نستوحي بطلان المفهوم السائد جملة وتفصيلاً.

الثالث: حقيقة الإيمان:

مما يدل على بطلان هذه النظرية قولهﷺ: الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان: انظر معي إلى الفقرة الأولى (معرفة بالقلب) إن لفظة المعرفة توحي بالمعنى الكبير الذي يتضمن دراسة الأمور بوعي وإدراك وعلم ودراية، فالمعرفة تعني وضوح الشيء أمامك وضوحاً لا لبس فيه، فإذا وصل الإيمان بالقلب إلى درجة المعرفة فمن السهل النطق به على اللسان ويترجم في الأعمال، أما إذا لم يكن هناك علم ومعرفة فلا إيمان، ثم كيف يمكن معرفة وجود هذا الإيمان بالقلب ودرجة هذا الإيمان؟ فمجرد الدعوى على ذلك لا تفيد شيئاً في المقام وأفضل جواب لذلك ما ورد عن أمير المؤمنينعليه السلام: «**بالإيمان يستدل على الصالحات وبالصالحات يستدل على الإيمان وبالإيمان يعمر العلم**»، يستفاد من الحديث بالنقض أن عدم وجود الأعمال الصالحات يدل على عدم الإيمان فدليل الإيمان وجود مثل تلك الأعمال الصالحات والأكثر لطافة الفقرة الثالثة من الحديث حيث إن الإيمان دافع قوي للتعلم وزيادة المعرفة فوجوده يعمر العلم.

الرابع: المزاوجة بين الإيمان والعمل الصالح:

بعد ما قدمناه نعرف العلاقة القوية والرابط المتصل بين الإيمان والعمل الصالح، بل قد نقول بعدم وجود فرق أصلاً لأن الإيمان بلا عمل لا يطلق عليه اسمه حينئذ وهذا ما أكدته الآيات الكثيرة في القرآن الكريم إلى درجة أنك ربما لا تجد آية تتحدث عن الإيمان إلا وهي مقرونة بالعمل الصالح قال تعالى في سورة طه الآية ٨٢: ـ ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

وقوله تعالى في سورة البقرة الآية ٦٢: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله تعالى في سورة آل عمران الآية ٥٧: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ وآيات كثيرة وصل تعدادها إلى أكثر من خمس آية في القرآن مما أحصيته تفيد في أجوائها المعنى نفسه مما يوحي بأن الإيمان مقرون بالعمل وفي بعضها تفصيل لذلك العمل من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والسير في طريق الهداية الذي يشمل كل تعاليم الإسلام وعلى رأسها أوامر الله تعالى ونواهيه والحرص على التوبة لأنها رأس التقوى بذلك يستحق العبد صفة الإيمان وبالتالي ينقلب إلى الجنان واستيفاء الأجر من الله تعالى من دون بخس ولا نقص والفوز برضاه سبحانه.

الخامس: الأثر الدنيوي والأُخروي لهذه الأعمال:

ثم إن هذا الإيمان الذي يستقر في القلب يؤثر أثره في الإنسان بحيث يجعل العشق والحب لله تعالى فلا يحوي قلبه غير الله ولا يتربع على عرش قلبه إلا الله سبحانه، وهذا الحب والعشق يقوده إلى العمل بلا إشكال وهذا العمل إن كان مثل الصلاة فإنه يطهره من الذنوب ويسقط عن كاهله الخطايا وهذا ما ورد من تفسير قوله

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١]. حيث فسرت الحسنات بالصلاة التي تذهب السيئات وهذا المعنى قريب جداً لأنه ورد عن لسان رسول الله ﷺ حيث قال: «**يا علي إنما منزلة الصلوات الخمس لأمتي كنهر جارٍ على باب أحدكم فما يظن أحدكم لو كان في جسده درن ثم اغتسل من ذلك النهر خمس مرات أكان يبقى في جسده درن؟ فكذلك الصلوات الخمس لأمتي**». وعليه فإن هذا أثر عظيم يخلصنا من التبعات الصغيرة التي لا تتعلق بحقوق الآخرين وهذا مفاد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وقال تعالى في آية أخرى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢].

ومن الآثار الدنيوية انعكاس تلك الصورة الجلية البيضاء النقية المفعمة بالحب والإيمان التي تزكي نفس الإنسان وتسمو بروحه وكذلك تنعكس على صورته الخارجية وسلوكه الشخصي فتظهر جلياً في كلماته وحركاته، فالارتباط وثيق إذا بين من يعيش الإيمان في قلبه ولا يعيش الحب الذي يقوده إلى الاتباع وبين من يعيش الإيمان الحقيقي قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٣] فالحب المعبر عنه بالإيمان لا يكون حقيقياً إلا مع الانقياد والطاعة واتباع الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام ولذلك أكد الله تعالى على حب النبي وأهل بيته عليهم السلام في القرآن لأن الحب والمودة يفيد هذا المعنى، أما الحب الذي لا يفيد معنى الانقياد فلا قيمة له ولا معنى لأن يطلب الله تعالى من نبيه أن يأمر المسلمين مودة أهل بيته فالإنسان بطبيعة الحال إذا أحب شخصاً فإنه يحب أقرباءه ويودهم إذا كانوا على شاكلته لاحترامهم وتقديرهم له، فالمعروف عند العرب أن المرء يكرم في ولده ولذلك قال تعالى: ﴿قُل

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[١] أي الحب المليء بالإيمان المؤدي إلى الاتباع والانقياد إلى تعاليمهم الرابطة التي تقودنا إلى الله سبحانه وتعالى. ولذلك ورد عن الإمام الباقر عليه السلام تأكيداً لهذا المعنى: «**أفحسب الرجل أن يقول أوالي علياً ثم لا يقتدي به فمحمد خير من علي، أفيكفي الرجل أن يقول أحب محمداً ثم لا يكون فعالاً (أي عاملاً بسنته وكتابه) من كان ولياً لله فهو لنا ولي ومن كان عدواً لله فهو لنا عدو**». وهذا ما يحكم به العقل السليم ألا ترى الشاعر يقول:

أتعصي الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمري في الفعال بديع
إن كنت تحبه حقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

هذا هو الأساس في التولي لأهل البيت العمل والطاعة وهذا موافق لكتاب الله عزّ وجل حيث يقول: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ وقال تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[٢] تماماً بعكس ما عليه أكثر الناس اليوم حيث يدخلون الناس الجنة بمجلس عزاء أو زيارة مقام أو نذر أو مشي إلى الزيارة حافياً، وترى بعضهم أن من كان في قلبه ذرة حب لعلي بن أبي طالب عليه السلام لا يدخل النار. وحب علي حسنة حيث لا تضر معها سيئة ولا يعتبرون حب أهل البيت عليهم السلام بالعمل والطاعة مما يخالف نهجهم وسنتهم وقرآنهم فتدبر رعاك الله ولا تكن كسائر الفرق التي تدعي دخولها الجنة وأنها من الفرق الناجية هذا الحديث المكذوب الداعي إلى العصبية والمخالف لكتاب الله وحال من وضع الحديث حال اليهود والنصارى حيث قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٣].

وهناك فوائد أخرى تركناها في هذا المختصر، وأما الفوائد الأخروية فواضحة

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ـ ٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١١١.

جلية حيث وعد رب البرية، والله تعالى لا يخلف الميعاد من يعمل صالحاً وهو مؤمن بالجنة ونعيمها الذي لا يفنى والخلود الذي لا يبيد وإعطائهم أجورهم لا ينقص منها شيء بل يزيد وأمنهم من الخوف والجزع يوم الفزع الأكبر ونجاهم من الحزن والألم ومع كل تلك البشائر بشرى يرونها بأعينهم في الدنيا عند قبض أرواحهم كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2].

هذا كله أيها العزيز متوقف على صفاء التوحيد لله تعالى، وعدم الإشراك معه أحداً من خلقه مهما علا أو سما في درجاته عند ربّه.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥.

العمل الصالح

البحث عن هذا العنوان هو في الحقيقة بحث عن هوية الإنسان وحركته في الحياة إذ إنه من حيث الأصل: الحياة كلها مبنية على العمل، والمؤثر فيها وفي إعمارها وإحيائها وفاعليتها هو العمل وبدونه تتوقف عجلة الحياة، ولذلك ركز القرآن الكريم على هذا المفهوم على المستوى الفردي والاجتماعي، فقيمة العمل الصالح عند الله تعالى قيمة عالية وخاصة عندما يرتكز على العقيدة الصحيحة، ولذلك نجد في القرآن أكثر من خمسين آية تتحدث عن العمل الصالح والحث عليه والانطلاق من خلاله لأن هناك فرقاً بين العمل الذي ينطلق من عادة ذاتية أو تقليد اجتماعي أو مزاج شخصي أو من حالة طارئة على فكر، وعمل الإنسان من دون امتداد روحي وشعوري مرتبط بعقيدة وإيمان يحثانه على ذلك العمل، ولذلك نجد تأكيداً في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1].

أكدت هذه الآية على ارتباط قيمة العمل الصالح بالإيمان بالله تعالى لأن هذا الارتباط يخرج العمل عن بعده الذاتي الشخصاني إلى طلب وجه الله تعالى به فيبعده عن العجب بعمله والمنة فيه وما إلى ذلك ليصبح هذا العمل متجلياً بحقيقة ذلك الارتباط الإيماني على أساس حاجة الحياة إليه لا على أساس حاجة العامل إلى

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

نتائجه المادية، وهذا ما يفسر اندفاع الناس إلى العمل الصالح ولو على خلاف رغباتهم الخاصة انطلاقاً من محبة الله للعمل لأن الإيمان بالله يفرض تقديم ما يحبه الله تعالى على رغبات الإنسان وهذا بخلاف من ينطلق في عمله من رغباته الخاصة التي يريد من خلالها تحقيق ثمرات دنيوية قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1] فهذه الآية المباركة تبيّن العمل الإنساني الجدير بالاحترام والقيمة، فالإسلام يهتم بدوافع العمل لا بمنافعه فقط، فلا عمل إلا بنيّة وما لم تتوفر النية الصالحة لا يكون العمل صالحاً مهما كانت منافعه، كما يقيّم الإسلام العمل بحسب الإطار الفكري الذي يظلّله وهو في الإسلام الإيمان بالله واليوم الآخر. والسبب في ذلك أن الإسلام يهدف إلى صنع الإنسان وليس مجرد تنظيم سلوكه الخارجي. ولذلك فرّق أمير المؤمنين بين العملين والمنبعين فقال: «**اعلم أن لكل عمل نباتاً وكل نبات لا غنى به عن الماء والمياه مختلفة فما طاب سقيه طاب غرسه وحلت ثمرته وما خبث سقيه خبث غرسه وأمرّت ثمرته**».

نتائج العمل الصالح:

ففي هذا الحديث إشارة واضحة إلى أن ما طاب سقيه وكان منبعه الإيمان انطلاقاً مما أكدته الآية ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[2] فإن نتائجه تكون زاكية تمتد على مرِّ الزمن وتتفاعل مع كل مؤمن لتنمو وتكبر وما كان لله ينمو.

أما ما خبث غرسه وكانت أغراضه مادية دنيوية فإنك تجد في ثمراته الخبث وهذا حال الكثير من أهل الدنيا الذين يلبسون استغلالهم للفقراء والمحتاجين ثوب المشاريع الخيرية ليحققوا مركزاً اجتماعياً هنا أو مأرباً وجاهياً هناك.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٩.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٧.

أثر العمل الصالح:

ونلاحظ في آيات متعددة وفي الأحاديث أن الله تعالى امتدح أصحاب العمل الصالح وأعدَّ لهم المكانة العالية عنده في الآخرة ويرى في الدنيا أيضاً الأثر الطيب لعمله الصالح من امتداح الناس له أو من شعوره بالسرور والفرحة العارمة إذا أدخل السرور على قلب يتيم أو مسكين أو ساعد في حل مشكلة أو بناء صرح تعليمي أو ساهم في تخفيف آلام المرضى سواء بمساعدتهم الطبية أو بناء مشفى لهم أو مجمع سكن يُزوج فيه الشباب وما إلى ذلك من أعمال الخير التي يشعر الإنسان فيها بالغبطة من تحقيق هذه الأمور ومن هنا نجد مدى اهتمام المولى عزَّ وجلَّ في من يعملون الصالحات وأورد لك ثلاث آيات:

الأولى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾[1].

الثانية: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾[2].

الثالثة: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[3].

فالآية الأولى تحدثت عن الحياة الطيبة التي قد تشمل الدارين، فمن سعى في الدنيا للعمل الصالح يضاعف الله له ما أنفقه ويزيد في ماله ويشعر بالسرور لما يرى من رفع آلامٍ في عيون من استفادوا من عمله ويرفع الله عنه ألواناً من البلاء، وربما هناك ألطاف خفية أخرى لا ندركها، وفي الآخرة يعطيه جزاء عمله حتى يرضى. وأنت تدرك أيها القارئ العزيز أن الإنسان مهما عظم ماله لا يشبع فكلما زاد ماله كلما أحب أن يزيد أكثر وهذا معناه عدم الرضا بما وصل إليه فيا ترى كم هو عظيم عطاء الله يوم القيامة لهذا الإنسان حتى يرضى بعطائه من خلال الحياة الطيبة؟.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٦٧.

(٣) سورة طه، الآية: ٧٥.

والآية الثانية تشير إلى أنه من الناجحين الذين أفلحوا في عملهم الصالح فقدموا إرادة الله على إرادتهم فكانوا من الفائزين. وهكذا تبين الآية الثالثة الدرجات العالية والمراتب الرفيعة لهؤلاء، وإذا مررنا سريعاً على آيات القرآن نجد آثاراً عجيبة للعمل الصالح ولسانها: بشرى بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار ـ لهم أجرهم عند ربهم ـ لهم أجر عظيم ومغفرة لذنوبهم ـ طوبى لهم وحسن مآب ـ لا كفران لسعيهم ـ يدخلهم الله في الصالحين ـ لهم من الجنة غرفاً في روضة يحبرون ـ لهم أجر غير ممنون ـ هم خير البرية إلى غير ذلك من الأوصاف الواردة في القرآن وليس ذلك إلا لجلالة العمل الصالح وعظيم آثاره على النفس وعود المنفعة على المجتمع.

ملاحظات في الآيات:

وهناك ملاحظة مهمة في الآيات التي سبق ذكرها وهي أن الفلاح يوم القيامة له شروط ثلاثة: الإيمان بالله والتوبة من المعاصي والعمل الصالح وكأن الكمال يكمن في هذه الأمور الثلاثة، بل إن الإيمان والعمل الصالح أمران مقترنان متلازمان في كثير من آيات القرآن كما ذكرنا، لأن الإيمان إذا دخل إلى الأعماق تجلى خارجاً من خلال العمل الصالح فهو بمثابة شجرة والعمل ثمرته. كما أن الآية الأولى لم تفرق بين الذكر والأنثى في العمل الصالح وهذه عظمة الإسلام في إعطاء الحق لكل إنسان وعدم التمييز بين الذكور والإناث في نتائج الأعمال وأن المرأة مخلوق كالرجل مساوٍ له في الحياة ولكل فرد منهما حقوق وعليه واجبات وأن نتائج الأعمال وأثرها الأخروي والدنيوي واحدة من حيث الثواب والعقاب.

ولذا بقدر ما يكون العمل لله سبحانه وتعالى خالصاً بقدر ما تكون درجته عالية للذكر والأنثى وهذا ما عبَّر عنه الإمام زين العابدين عليه السلام بقوله: «**إن أحبكم إلى الله عز وجل أحسنكم عملاً وإن أعظمكم عند الله عملاً أعظمكم فيما عند الله رغبة**».

أي بقدر ما يرغب بالعمل إلى الله أكثر يكون العمل أعظم وتكون درجته أعلى

وهذا ما عبّرت عنه الآية الثالثة ﴿لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾[١].

شرط العمل النية:

وهذا الحديث ينطلق بنا إلى جهة أخرى من البحث وهو أن الشرط الأساسي في قبول العمل الصالح وترتيب الآثار عليه من الثواب والدرجات والفلاح والحياة الطيبة وما إلى ذلك هو نيّة ذلك العمل فمعنى قولهعليه السلام: «**أعظمكم فيما عند الله رغبة**»، أي أن تكون نياتكم خالصة لله تعالى من دون إشراك نية أخرى في المقام، فالرغبة إلى الله أمر داخلي بين كل عامل وبين ربه وإخطار ذهني يحدد من خلاله القصد إلى الفعل الذي يقوم به فإن كان كله لله كان أعظم قرباً من الله، وإن كان بعضه لله فإن دخلت فيه نوايا أخرى لا تفسده كتشجيع الآخرين على العمل الصالح بقي على أثره، وإن رغب فيه لأمر دنيوي محض أفسدت نيته عمله. لذا ينبغي أن نُعلِم فاعلي الخير والقائمين على العمل الصالح أن لا يفسدوا أعمالهم بأهوائهم وأن تكون أعمالهم كلها لله سبحانه وتعالى ولا يقصد فيها إلا وجهه.

الحث على العمل:

في كلام لأمير الكلام عليعليه السلام في نهج البلاغة يوجه الناس إلى أن يعملوا الصالحات إن كانوا ممن يرجون الآخرة، فالإنسان إن أحب الصالحين عليه أن يعمل بعملهم وإن أبغض المذنبين عليه السعي إلى ترك فعلهم لا أن يكون ممن ينتقد غيره لأدنى ذنب ارتكبه أو يقلل من فعل غيره للخير بأقل مما هو عليه ويريد للناس أن يمتدحوه لفعل صغير جداً قام به لأنه يستكثر عمله ويكثر من الكلام ليدل على عمله، وقالعليه السلام: «**لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل.. يحب الصالحين ولا يعمل عملهم ويبغض المذنبين وهو أحدهم.. يخاف على غيره بأدنى من ذنبه ويرجو لنفسه**

---

(١) سورة طه، الآية: ٧٥.

بأكثر من عمله.. يقصر إذا عمل ويبالغ إذا سأل.. فهو بالقول مدل ومن العمل مقل».

وما أكثر هؤلاء في هذا الزمن الذين يدلون على أخطاء غيرهم وينتقصون من أعمالهم ويقللون من أهمية غيرهم ولا يرون عيوبهم ويعظمون أعمالهم ويعطون كل الأهمية لأنفسهم.

لا يستويان:

لا يستوي الإنسان العامل للصالحات مع غيره المجترح للسيئات كما لا يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور ولا البرد والحرور، فالفرق بين الضدين واضح، فالله تعالى ميز بين أصحاب العمل الصالح وأصحاب العمل السيئ في الحياة الدنيا وفي الآخرة قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] إن من يعتقد أن الله تعالى يساوي بين هذين الفردين ساء حكمه ولم يعدل فيه لأن الحق لا يوجد عنده إلا العدل.

وفي آية أخرى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

وإليك رواية عن رسول الله ﷺ تبيّن لك الفرق الواضح بين العملين فليس غرس شجرة كمن قطعها وليس من خلف ولداً صالحاً كمن يخلف ولداً فاسداً عاقاً لوالديه.

قال ﷺ: «**سبعة أسباب يكتب للعبد ثوابها بعد وفاته: رجل غرس نخلاً أو حفر بئراً أو أجرى نهراً أو بنى مسجداً أو كتب مصحفاً أو أورث علماً أو خلف ولداً صالحاً يستغفر له بعد وفاته**».

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٨.

العلاقة الزوجية النموذجية

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وقال: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2].

من أهم العلاقات التي ركز عليها المولى تعالى وكان لها رعاية خاصة في لسان الشارع العلاقة الزوجية باعتبارها تشكل نواة المجتمعات وأساس الأُسر، ولذلك رسم الشارع المقدس لهذه العلاقة خطين عامين أحدهما حقوقي والآخر سلوكي أخلاقي تسمو من خلالهما الحياة الزوجية الى مستوى العلاقة المثالية التي تعطي النموذج الإسلامي في التلاحم بين فردين متغايرين غالباً في الصفات والعادات، وينتج مودة رائعة في التعاطي المتبادل، ورحمة ولين في غفران زلات أحدهما للآخر واتحاداً فريداً بين ذاتين تسكنان إلى بعضهما ليبعدا عنهما العناء والألم، وليعطي السكن الخارجي سكناً داخلياً ورابطاً روحياً فيحلقان معاً في كل ما يخصهما من شؤون ويستر أحدهما الآخر ليشكل ذلك مع الاتحاد ستراً للعيوب وجُنة واقية من المعاصي ومواجهة للمصاعب لينتج كل ذلك حياة هادئة هنيئة وسعيدة قائمة على التضحية والوفاء وحسن التبعل الذي يضمن استمرار الأسرة.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

هناك جانبان للعلاقة الزوجية يتكاملان:

الأول: الجانب الحقوقي في العلاقة الزوجية وهو قائم على طاعة الزوجة للزوج في أداء حقوقه المفروضة مما يطلبه ويحتاجه جنسياً، وكذا يجب عليه أداء حقوقها من نفقة ودخول عليها وإن كانت من ناحية أخرى لا يجب على الزوجة القيام بشؤون المنزل ولا حتى الحمل ولا الرضاعة لولده، ولكن أعتقد أن هذه الأمور فرضت لتكون قانوناً يرجع إليه عند الاختلاف في تحديد الواجبات. وأرى أن هذه الأمور مفروضة على الزوجة من قبل الشرط العرفي بقدر استطاعتها حتى لو لم تذكر صراحة في ضمن العقد خلافاً لما عليه الكثير من الفقهاء.

الثاني: الجانب السلوكي الذي ركز الإسلام عليه بشكل كبير حيث أعطى النموذج السامي في المعاملة الطيبة الجميلة، وقد ذكرنا البيان القرآني في هذا المجال في المقدمة، وفي ما يلي مجموعة من الروايات التي تتحدث عن أهمية التعاطي الأخلاقي المبتنى على المودة حيث ترتقي الحياة الزوجية معه إلى مستوى عالٍ من السعادة والاستقرار لأن الحياة الزوجية إذا بنيت على أساس الحقوق والواجبات من دون التضحية والوفاء والتنازل حتى عن بعض الحقوق الواجبة في بعض الحالات فقد تتحول إلى جحيم فيعتذر كل واحد الى الآخر بعدم وجوب ما يطلب منه وعليه لا تعود هناك حياة زوجية ذات رابط روحي وسعادة مفعمة بالأحاسيس والمشاعر، بل تتحول إلى مؤسسة أشبه بالعسكرية تحكمها القوانين يقدم فيها العامل ما يطلب منه من عمل. ولكن الإسلام جعل هذه الحقوق والواجبات كما قلت للرجوع إليها عند الاختلاف ولتكون قانوناً ودستوراً للبشرية ولذا طلب الإسلام من الزوجين أن تكون علاقتهما أرفع مستوى من القوانين وأسمى هدفاً ومعنى ليتحقق الاطمئنان النفسي والراحة الجسدية والسعادة الدنيوية والأخروية فتدخل في كل جوانب الحياة الزوجية حتى في شربة الماء ولقمة الطعام التي يقدمها الزوج للزوجة وبالعكس. فقد ورد عن النبي ﷺ: «**إن الرجل ليؤجر في رفع اللقمة إلى في** (فم)

امرأته». وورد عنه ﷺ: «**إذا سقى الرجل امرأته أجر**». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما من امرأة تسقي زوجها شربة ماء إلا كان خيراً لها من عبادة سنة**».

وطلب الإسلام منهما أن يتعاملا بكل محبة ورفق ولين لا سيما في الكلام مع بعضهما، حيث إن للكلام وقعاً كبيراً في استمالة القلب وركون النفس فيعطي ذلك دفعاً لكل منهما لتحمل صاحبه وخدمته بكل سرور ورضاً.

فقد ورد عن النبي ﷺ: «**قول الرجل للمرأة: إني أحبك لا يذهب من قلبها أبداً**». وورد عنه ﷺ: «**حق المرأة على زوجها أن يسد جوعتها وأن يستر عورتها ولا يقبح لها وجهاً**».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن المرء يحتاج في منزله وعياله إلى ثلاث خلال يتكلفها وإن لم يكن في طبعه ذلك: معاشرة جميلة وسعة بتقدير وغيرة بتحصن**». هذا الحديث ناظر الى تعليم المرء التعود على هذه الخصال حتى لو لم تكن فيه حرصاً على تماسك العائلة وسعادتها. فالمعاشرة الجميلة والتوسعة على العيال بحسن التقدير لا بالإسراف والتبذير وغيرة الزوج على عرضه الذي يصونه لا الذي يخونه ويخلق الشك من خلاله، يدفع بالحياة الزوجية إلى التماسك والاستمرار وصيانتها من الانحراف والانجراف.

وورد عنه عليه السلام قوله: «**لا غنى بالزوج عن ثلاثة أشياء بينه وبين زوجته وهي الموافقة** (في ما يرضي الله) **ليجتلب بها موافقتها ومحبتها وهواها، وحسن خلقه معها واستعماله استمالة قلبها بالهيئة الحسنة في عينها، وتوسعته عليها**». وكذلك ورد عنه في ما يختص بالزوجة ومعاملتها لزوجها ليعطيها من خلال هذا الحديث درساً عملياً راقياً فيقول: «**لا غنى للزوجة في ما بينها وبين زوجها الموافق لها عن ثلاث خصال وهن: صيانة نفسها من كل دنس حتى يطمئن قلبه إلى الثقة بها في حال المحبوب والمكروه وحياطته ليكون ذلك عاطفاً عليها عن زلة تكون منها وإظهار العشق له بالخلابة** (القول الطيب) **والهيئة الحسنة لها في عينه**».

بهذه الأمور تستمر حياتها مع زوجها وتحافظ على ديمومتها وتصون نفسها وبيتها وتحفظ سعادة دارها وعيالها. وكذلك أمر الإسلام بالرفق بالمرأة باستعمال اللين والرحمة معها، فقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وأما حق الزوجة فأن تعلم أن الله عز وجل جعلها سكناً وأنساً... فتعلم أن ذلك نعمة من الله عليك... فتكرمها وترفق بها وإن كان حقك عليها أوجب فإن لها عليك أن ترحمها**».

وتوجه الإسلام إلى الزوج الذي يقضي أوقاته بالسهرات بعيداً عن زوجته وعياله بالقول في ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وآله: «**جلوس المرء عند عياله أحب الى الله تعالى من اعتكاف في مسجدي هذا**».

وما هذا الأجر الذي أعطي له والحافز الذي دفع إليه وفضل على الاعتكاف في مسجده صلى الله عليه وآله إلّا لأن في الاعتكاف حالة روحية شخصية ومنافع تعود إليه، أما في جلوسه مع عياله فإنه يرعى شؤونهم ويعلمهم مسائل دينهم ودنياهم وتجاربه في الحياة وحل مشاكلهم وما إلى ذلك مما يعود بالنفع الجماعي عليهم، وتوطيد العلاقة بينهم وزيادة روابط المحبة والاستقرار، وأعطيك أيها القارئ العزيز نموذجاً آخر رائعاً يعطي دفعاً قوياً للأسرة ويهدئ النفوس من بعض مشاكل الحياة وهمومها فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «**من دخل السوق فاشترى تحفة فحملها إلى عياله كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج ويبدأ بالإناث قبل الذكور**»، نفهم من ذلك أن الهدية عامل مؤثر في سعادة الأسرة حيث يترك بصماته في القلب والنفس وخصوصاً عند من لا يكون منتجاً كالإناث فتلتفت إليهن بهدية لتدخل السرور بها على قلوبهن وتشعرهن بأن هناك من يهتم بهن.

وقبل أن أختم البحث بأروع نموذجين للعلاقة الزوجية أقول: إن هناك تعاليم أخرى لم أذكرها يرجع في شأنها إلى المطولات لعدم اتساع المقام لا سيما العلاقة الجنسية بينهما وتنظيمها لترتفع عن مستوى الحيوانية وعدم الشعور بالآخر إلى مستوى الانسجام التام الذي يحقق الهدف للطرفين. وهذا الأمر من أهم العناصر

لاستمرار العلاقة الزوجية لأنها قائمة على الرابطين الروحي والجسدي وهما يتكاملان ولا يمكن إغفال أي واحد منهما.

خاتمة: من أروع النماذج للعلاقة الزوجية علاقة النبي ﷺ بالسيدة خديجة الكبرى عليها السلام حيث إنه عندما فارقته حزن حزناً شديداً وسمي ذلك العام بعام الحزن ليس ذلك إلا لأنها كانت له نعم الزوجة الصالحة الوفية المطيعة فآمنت به عند نزول الوحي وكانت أول النساء إسلاماً وأطيبهن حديثاً وأحسنهن خلقاً ومنطقاً، بشوشة ودودة تزيل آلامه من قومه عند استقبالها له بالحفاوة والتكريم والإجلال والتعظيم، وقد وقفت الى جانبه وقفة الرجال الأشاوس الأوفياء لله ورسوله فبذلت مالها ووضعته تحت تصرفه حتى قال ﷺ: «**قام الإسلام على سيف علي ومال خديجة وحمى أبي طالب**». وكان من احترامه لها أنه لم يدخل عليها زوجة ثانية في حياتها لأنها الوفية الموافقة له والمطيعة لله ولرسوله.

وأيضاً العلاقة بين أمير المؤمنين علي عليه السلام والصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام مثال آخر للعلاقة النموذجية بين الزوجين حيث إنها لم تعص له أمراً ولم ترفع بوجهه صوتاً، وكانت الوفية الموافقة له في كل شيء ولذلك عندما دنت منها الوفاة قالت له: يا بن عم ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتني، فقال عليه السلام: معاذ الله أنت أعلم بالله وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفاً من الله أن أوبخك بمخالفتي... كيف لا وهي فاطمة عليها السلام.

توجيه: أيها الأزواج صونوا زوجاتكم وبيوتكم وبدلوا التعاسة إلى سعادة فإن الجيد من الكلام خارج وله أثره والسيّئ خارج وله أثره فبدلوا السيّئ بالجيد تتنعموا في الدارين، وتعلموا من سادة الأمة وقادتها رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام والسيدة خديجة الكبرى عليها السلام والسيدة فاطمة الزهراء عليها السلام كيف تكونون أزواجاً صالحين لتقدموا للناس أروع الأمثلة للحياة الزوجية المثالية لأن السعادة لا تأتي من دون جهد، والجهد يحمل في طياته التضحية، والتضحية لا تكون من دون حب،

والحب لا يدخل القلب من دون المعاشرة الجميلة والكلام الطيب واللين وخفض الجناح وغفران الزلة بالرحمة وإقالة العثرة بالسعة وحسن التدبير بالعقل وكرم التودد باللطف، وفوق كل هذا ومعه الطاعة لله والخوف منه بهذا تكون السعادة.

ولذلك قال الرسول ﷺ «**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**».

نظرة إسلامية إلى الحاكم وعلاقاته في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر

إذا قلبنا صفحات التاريخ وكلمات العظماء في شتى العصور وسالف الدهور وبحثنا في كتب المؤرخين لنقف على دستور كامل يحدد صفات الحاكم ومستشاريه ووزرائه وجلساءه الذين لهم التأثير الكبير في إدارة الحاكم أو الوالي لشؤون الأمة ودستور يُعنى بمختلف شؤون الدولة والرعية فإننا لن نجد أفضل وأروع من كلمات تستحق أن تكتب بماء الذهب تضمنها عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى واليه على مصر مالك الأشتر النخعي الذي كان من خيرة صحبه حيث قال فيه الأمير عليه السلام: «**كان لي كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وآله**».

هذا العهد الذي يتجاوز في مضمونه زمنه، ورجالاته ليكون دستوراً يصلح لكل زمن، لأنه يقوم على مبادئ إنسانية لا تغير فيها تقادم السنون شيئاً.

وسنستعرض في هذا البحث عن صفات الوالي على أن نعرض لمواضيع شتى يتضمنها هذا الكتاب الجليل في بحوث أُخرى.

صفات الحاكم

ونعني بالحاكم كل من له سلطة ما، سواء ضاقت أم اتسعت ويأتي على رأس هذه الصفات، أن يكون تقياً ورعاً يخاف الله تعالى ويؤدي فرائضه وسننه، فإنه إن ترك طاعة الله استكبر واستعلى على الفقراء والمساكين. قال الأمير عليه السلام في كتابه

لمالك الأشتر في أول صفة للحاكم يأمره بها: «**أمره بتقوى الله وإيثار طاعته واتباع ما أمر في كتابه من فرائضه وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها**».

الصفة الثانية: أن يكون الوالي من مناصري الله عز وجل لأن الحاكم إذا كان من محازبي قوة عظمى في الأرض لا دين لها ويخشاها على حكمه وكرسيه ولا يستطيع أن ينفذ حكم الله في الأرض خشية تلك القوة وخوفاً منها فإنه لا محالة سيجور في حكمه وسيتنازل عن مصالح وطنه وأمته وسيدخل شعبه واقتصاده وحريته وسياسته وما إلى ذلك من شؤون دولته في تبعية للغير، هذا المعنى أكده الأمير عليه السلام في عهده للأشتر بقوله: «**وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره وإعزاز من أعزه**».

وإذا راعى الله في أحكامه ومواقفه ولم يخف في الله لومة لائم وناصر الله بكل ما أوتي من قوة في قلبه وعقله وجوارحه فإن الله تكفل بنصر من ينصره وإعزاز من يعزه.

الصفة الثالثة: التي ينبغي أن تكون في الحاكم أكثر من غيره هي مغالبة الهوى ومحاربة النفس وهذا وإن كان يرجع إلى الصفة الأولى أي التقوى، إلا أنه أفردها وأكد عليها لأن الوالي أو المسؤول هو في معرض المغريات والمشتهيات ووقوع المال العام تحت يده أكثر من غيره بدرجات كبيرة فهو في معرض للمديح والثناء وهذا ما يجعل شخصيته منتفخة إلى حدٍّ تصل به إلى ما لا يحمد عقباه خصوصاً إذا كان لا يسمع انتقاداً أو اعتراضاً وأيضاً الوالي في معرض البطش بمن دونه لأنه يملك السلطة والقوة فيصبح أقرب إلى الظلم وأسرع الى الخطيئة منه ما لو لم يكن ذا قوة، قال عليه السلام: «**وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعجها عند الجمحات فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربي**».

وفي هذا المقام تستحضرني لفتة قرآنية جميلة حيث يأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وهو الرسول الأعظم والمفضل على سائر الخلق أن يقوم قسماً من الليل فرضاً حتى يتعبأ

روحياً ويتعبد متخشعاً ليشحن نفسه بالأنس الرباني والخوف الإلهي معللاً ذلك بانشغاله في النهار في الأعمال ومراجعات الناس وقيادتهم في شتى شؤونهم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[1] . . . فإذا كان المولى عز وجل فرض ذلك على المعصوم عن الذنب الذي لا يمكن أن يفكر فيه فضلاً عن القيام به فما حال غير المعصوم؟ إن الحاكم أحوج ما يكون إلى ذلك لأنه القادر على فعل أي شيء فإذا لم يكن له رادع من دين وخوف من الله فنعوذ بالله من جوره.

بعد هذه الصفات العامة التي يجب أن تكون في الوالي خاصة وفي الناس عامة، يوجهه إلى إدراك أن فعل الحاكم يدل على صلاحه أو فساده، ويجري ذلك على ألسن الناس في مدح حاكمهم في عدله ورعايته لشؤونهم والقيام بمصالحهم وفي ذم حاكمهم إذا ظلم أو جار في حكمه وهذا يعني أنه محط الأنظار والمراقبة في كل أفعاله وحتى في حركاته وسكناته، وإلى هذا أشار الإمام بقوله عليه السلام: «**وإن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن الناس**».

فإذا كان الحاكم واحداً من الرعية قبل أن يكون راعياً فعليه أن يتقي الله ويبعد نفسه عن الهوى ويمسكها عما لا يحل له لأنه مراقب من الله تعالى والرعية. وهذا يدل على أن الأمة لا بدّ أن تراقب الحاكم وتصوب حركته وتسدي له النصيحة لا أن تتبعه اتباعاً أعمى هاتفاً دائماً بحياته وزعامته.

الصفة الرابعة: أن يكون الحاكم مكباً على العمل لا خمولاً متقاعساً، فإذا كان الحاكم نشيطاً ومتحركاً فإن في الحركة بركة وصلاح البلاد وعمارتها وراحة الرعية وأما إذا كان خمولاً لا يحب العمل ميالاً إلى الراحة فالنتيجة واضحة وهي خراب البلاد ولذا قال عليه السلام: «**فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح**».

---

(١) سورة المزّمل، الآيات: ١ ـ ٥.

الصفة الخامسة: الرحمة وهذه من أهم الصفات في الحاكم وقد جعل الله تعالى هذه الصفة مشتركة بينه وبين عباده وإن اختلفت في حدودها وماهيتها وهذه صفة النبي محمدﷺ حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1] فقد كان قلب رسول اللهﷺ أوسع القلوب وأعظمها رأفة ورحمة بحيث كان يتمنى الخير لعدوّه والهداية لظالمه وهو أرأف بالمؤمنين من الأم بطفلها، فإذا اتصف الحاكم بهذه الصفة عطف على الضعيف وأعطى السائل وقضى حاجة المحروم وعفا عن الإساءة التي تتصل به، أما إذا كان حقوداً أو خبيثاً يعيش اللؤم في نفسه وطبعه فإنه ظالم لا محالة ولذا يقول الإمامعليه السلام لمالك: «**واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً**»، فإذا لم يتصف الحاكم بالرحمة يتحول في نفسه مع قوته وسلطانه إلى سبع متوحش ناهب لثروات الناس وظالم لهم ويحضرني في المقام ما ورد في سيرة أبي عبد الله الحسينعليه السلام حيث كان يبكي فقيل له: مم بكاؤك يا بن رسول الله؟ قالعليه السلام: أبكي لهؤلاء القوم لأنهم سيدخلون النار بسببي: ما أروع هذه الرحمة والحنان الذي تجده في قلبه على قاتله وسالبه وظالمه... ثم بعد ذلك أعطى الإمامعليه السلام أفضل نظرية عبر التاريخ في الإنسانية واحترام الإنسان بقولهعليه السلام: «**إنهم** (أي الرعية) **صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**» فإن أي إنسان ولو اختلف معك في العقيدة والمنهج وفي اللون والعرق واللغة والبلد فهو نظير لك في الخلق، فإذا شعر الحاكم بذلك أحس بحقوقه ومآسيه وخوفه واستطاع أن يعفو عنه أو يسد خلته أو يقضي حاجته أو يقوي ضعفه وما إليه. وإذا كان الإنسان الآخر يشاركك في العقيدة فله إضافة إلى حق إنسانيته حق الأُخوّة الإيمانية فتصبح رعايته آكد ومطالبة الحاكم بها أشد.

إن أجمل شعور يستبطن الرقي ويختزن علو النفس ورفعة الأخلاق هو الشعور

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

بإنسانية الإنسان، وفقدان هذا الشعور يؤدي الى عدم احترام الإنسان في مرضه وشيخوخته وعجزه وحاجاته الحياتية وضيقه الاقتصادي وضعف قوته وهذا ما نراه من الحكام فهم ما أن يصلوا الى سدة الحكم حتى يتمايزوا عن الخلق فاستكبروا وعتوا وأفسدوا في الأرض فساداً كبيراً وخلت قلوبهم من الرحمة الإنسانية والرأفة الأخوية! فهم يظلمون وينهبون ثروات الناس ولا يشبعون وحالهم كحال جهنم يوم القيامة يطلبون المزيد بغير خجل أو رادع.

الصفة السادسة: العفو فإذا ملئ قلب الحاكم بالرحمة والخوف من الله وعاش إنسانية الآخر ابتعد عن التجبر والظلم، مع مقدرته عليه إعمالاً للعفو في غير ما يتصل بتعطيل حكم الله من إقامة الحدود لأن فيها صلاح المجتمع وردعه عن القيام بالفواحش، أما إذا لم يكن فيه حدّ أو أتت عليه شبهة أو عاد أمره الى نفس الحاكم فعليه أن يكون عفواً ليعفو الله تعالى عنه قال عليه السلام: «**فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه فإنك فوقهم ووالي الأمر عليك فوقك** (وهو الأمير عليه السلام) **والله فوق من ولاك**».

وإلا فليأذن هذا الوالي أو المسؤول بحرب من الله، وبذا يكون قد أعلن العداء لله في ما أمره به وأشار إلى ذلك الأمير عليه السلام بقوله لمالك الأشتر: «**ولا تنصبن نفسك لحرب الله فإنه لا يدي لك بنقمته**» (أي ليس لك يد في دفع نقمة الله عنك).

بعد هذه الصفات الأساسية في الحاكم أخذ يوجهه توجيهات تفصيلية كعدم الندم عن أي عفو يصدر عنه لأنه إن ندم عاد الى أخذ المعفو عنه بذنبه ولربما يؤدي به إلى ظلمه قال عليه السلام: «**ولا تندمن من عفو**» وعدم الفرح بإقامة العقوبة على مستحقها لأن الفرح يؤدي الى الشماتة ولربما ابتلي هو وأحبته بمثل من أقام عليه العقوبة فعليه أن يسأل الله العافية مما ابتلى به غيره قال عليه السلام: «**ولا تبجحن بعقوبة**».

وعلى الحاكم أن يعلم أنه إذا استطاع الفرار من الحكم على الناس بوجود عذر لهم أو شبهة في الأدلة وعدم اكتمالها فعليه الفرار من ذلك كله قال عليه السلام: «**ولا**

تسرعن إلى بادرة وجدت منها مندوحة» (أي الفرار) أي لا تبادر وتسرع إلى الحكم في الأمور وأنت تستطيع الفرار منه، وعليه أن لا يعتبر أن الله تعالى أمّره على الناس فعليهم الإطاعة في الصحيح والفاسد وبمجرد صدور الأمر منه فعلى الرعية الإطاعة فإذا شعر الحاكم بمثل هذا الشعور فقد دخل المرض قلبه وأفسد عمله وأغضب ربه واستوجب عقابه قال عليه السلام: «**ولا تقولن إني مؤمر آمر فأطاع فإن ذلك إدغال في القلب ومهلكة للدين**».

وعلى الحاكم أن يستشعر عظمة الله سبحانه وعظيم امتنانه وأن بيده ذهاب سلطانه وموته وحياته قال عليه السلام: «**وإذا حدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مخيلة** (أي خيلاء) **فانظر إلى عظيم ملك الله فوقك وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك**»، فإذا استشعرت قوة فوق قوتك وسلطاناً فوق سلطانك كان ذلك رادعاً لك عن فسادك وقهرك واستعمال أبهتك وخيلائك ويعيد إليك التوازن في تفكيرك قال عليه السلام: «**فإن ذلك يطاحن إليك من طماحك ويكف عنك من غربك** (أي حدتك) **ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك**».

ثم أمره الأمير عليه السلام أن لا ينازع الله تعالى في صفته فإن الشعور بالعظمة والكبرياء واستعمال القهر والجبروت موجب لسخط الله عليه وإذلاله في الدنيا فشاهد كثيراً من الحكام كيف أن الله أذلهم بعد رفعتهم وفي الآخرة يبعثهم الله كالذر يطؤهم الناس بأقدامهم لأنهم عاشوا التكبر في حياتهم قال عليه السلام: «**وإياك ومساماة الله في عظمته والتشبه به في جبروته فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال**». ثم يأمره بالإنصاف في الرعية وعدم تقريب الخاصة على العامة والتسوية بين الناس في الحكم والعطاء واتباع طريق الوسطية والاعتدال في الأمور وغيرها من التفاصيل.

وبكلمة جامعة لكل ما تقدم، فعلى الحاكم وفق هذا العهد الدستور أن يكون مقسطاً عاملاً بالعدل والإنصاف مع نفسه ومن ولي شأنهم.

ميزان العدل بين الخاصة والعامة

في حديثنا عن صفات الوالي الذي يدير شؤون الأمة ذكرنا بعض ما ينبغي أن يتحلى به وبقي بعض آخر نطل عليه من خلال كتاب كتبه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الى واليه على مصر مالك الأشتر. من هذه المزايا أن يكون الحاكم منصفاً عادلاً بحيث ينصف الله في إقامة حدوده فلا يتعداها وإنصاف الناس ويساوي بينهم فلا يقرب القريب ويغدق عليه المال والسلطان ويبعد البعيد، ولا يقيم الحكم على الضعيف ويسقطه عن الغني وما الى ذلك مما يرجع الى ميزان العدل والإنصاف ففي ترك هذا الميزان ظلم للعامة وجور عليها وهذا ما نلاحظه في كثير من الحكام وأصحاب السلطان حيث يقربون زمرتهم ويغدقون عليهم ويمنعون العطاء والوظائف عن مخالفيهم ويميز بينهم تبعاً للقوة والضعف، والوجاهة وعدمها والغنى والفقر وما الى ذلك ومن كان ذلك شأنه... فليأذن بحرب من الله تعالى وزوال نعمته عنه وتحولها الى نقمة لأن الله تعالى لا يرضى بالظلم لعباده قال عليه السلام: «**انصف الله وانصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك إن لم تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده وهو للظالمين بالمرصاد**».

ثم إن الإمام دعاه إلى اتباع طريق الوسطية في الأمور، والمقصود بالوسطية الاعتدال وإعطاء كل ذي حق حقه فلا يظلم المظلوم ولا يطمع الظالم، وفي ذلك رضا الله سبحانه وتعالى ورضا العامة من الناس لأن الرعية إذا أخذت حقوقها وحصلت على مبتغاها مما هو حق لها على الوالي كانت راضية قال عليه السلام: «**وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية**» ثم نبه الإمام عليه السلام في كتابة المالك الأشتر إلى مسألة مهمة في الحكم وهي أن يعمل الوالي على رضا عامة الناس طبعاً في حدود الحق والعدل لأن في ذلك مصلحة للعباد وحفاظاً على استمرارية الدولة وتفرغها لدرء الفتن الخارجية لأنها تكون حينئذ مأمونة الجانب من الداخل برضا العامة، وكأن في كلام الإمام معادلة ثبتت بالتجربة في

عامة الدول وهي أن حاشية الوالي أو ما يسمى بالخواص أي الوزراء والمستشارين والنواب وغير ذلك إذا كانوا في حالة رضا تام فإنه يستكشف من رضاهم سخط العامة لأن في رضاهم رضاً لأطماعهم ومصالحهم وما يتصل بشؤونهم وشؤون المتعلقين بهم من تسهيل أمورهم وتقديم ذلك كله على مصالح العامة والعامة سيلاحظون ذلك فيحقدون على الخاصة، والعكس صحيح فإن الخاصة إذا كانت ساخطة وغير راضية لأن الوالي لا يقدم مصالحها على مصالح الخاصة، أما إذا كان الناس عنده سواء فتكون حينئذ العامة راضية، ويمكن للحاكم أن يتحمل سخط الخاصة لأنهم من أتباعه وحاشيته، أما سخط العامة فلا يمكن تلافيه إذ ربما يؤدي إلى إسقاط الدولة، هذا كله عدا عن سخط المولى سبحانه عليه ولذا قال عليه السلام: «**فإن سخط العامة يجحف برضا الخاصة وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة**».

وعلى هذا فإن رصيد الدولة والحماة لها هم العامة المؤمنون بها وليس الخاصة الذين تعودوا على الرخاء وهربوا من البلاء وقدموا مئات الأعذار عند العناء وأقل الناس شكراً لدولتهم من كثرة العطاء، هذا إذا لم يخونوا واليهم وأمتهم ويبيعوا أنفسهم للأعداء ولذا نبه الإمام عليه السلام في كتابه لمالك إلى تلك الحقيقة قال عليه السلام: «**وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة في الرخاء وأقل معونة له في البلاء... وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين وجماع المسلمين للأعداء العامة من الأمة فليكن صغوك لهم وميلك معهم**».

ثم شرع الإمام في تنبيهه إلى ما يبتلى به الحاكم كثيراً وهو كثرة المتبرعين بإفشاء أسرار الناس أمام الحاكم أو ما يعبر عنهم بالعيون والوشاة أو الجواسيس فهناك نموذج من الناس يتقربون تزلفاً إلى الولاة بالكلام على غيرهم وفضح أسرارهم وإظهار عيوبهم ليسقط المتناول بالكلام من عين السلطان أو المسؤول، فالأمير عليه السلام حذر من هؤلاء وأمر الوالي بإبعادهم عن مجلسه وبغض فعلتهم قال عليه السلام: «**وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمصائب الناس فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها**»... «**ولا تعجلن الى تصديق ساع فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناصحين**».

فالواجب على الحاكم والرعية أن يستروا على عيوب الناس وأخطائهم لأن المولى هو ستار العيوب وغفار الذنوب إلا اللهم إذا أدت عيوب بعض الناس إلى إفساد المجتمع فحينئذ لا بدّ من التصدي لها والنهي عنها والأولى بالعفو والستر هو الحاكم والمسؤول عن الرعية، فالإمام يحذره من هؤلاء الوشاة ويعتبرهم من الغشاشين حتى لو كانوا بهيئة الناصحين لأنهم يسعون إلى إسقاط الآخرين والأفظع من هذا ما نشاهده في زماننا وكل زمان من الذين يلفقون التهم ويدبرون الحيل والمكائد لإسقاط الآخرين لمجرد الاختلاف معهم.

ثم بعد ذلك نأتي إلى تحديد مواصفات المستشارين والوزراء. بعد أن أنهى إرشاداته القيمة للوالي ومواصفاته، فعلى الوالي اختيار الوزراء والأعوان الذين تنطبق عليهم تلك الصفات حتى يصلح أمر الولاية والمولى عليهم وأول تلك الصفات أن لا يكون المستشار بخيلاً لأن مشورته تمنع العطاء وتوقع البلاد والعباد في الضيق وتكديس الأموال عند الوالي وزمرته، والبخيل بطبيعته مناع للخير من خلال خوفه من الوقوع في الفقر لأنه لا ينظر إلى الذي يرزق العباد بل إلى ما تحت يده فيدخره فإذا أراد الحاكم الإنفاق في مجال استصلاح الأراضي والطرقات والتوسعة على الناس وزيادة العطاء وما إلى ذلك يمنعه البخيل من ذلك ويحذره من ذهاب مال الدولة وعند ذلك يزول حكمه ولا يطاع أمره لذا قال عليه السلام: «**ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر**».

والصفة الثانية: أن لا يكون المشير جباناً لأن هناك تحديات تواجه البلاد قد تؤدي إلى زعزعة الأمن والاستقرار فيها أو إلى اختلالها من قبل الطامعين فيها وفي خيراتها أو إلى حروب المجاورين لها على أرضها أو إلى الفتن التي تشغل أهلها في تنوعهم لمصلحة الطغاة أو ما إلى ذلك، فالجبان الذي لا يقدر على المواجهة سيجبن الوالي ويضعف موقعه ويسلب منه المقدرة على المواجهة من جراء الخوف الذي يستحوذ عليه ولذا قال عليه السلام: «**ولا جباناً يضعفك عن الأمور**» أي ولا تدخلن في مشورتك جباناً يمنعك من مواجهة الأمور.

والصفة الثالثة: أن لا يكون المستشار حريصاً زيادة عن الحدّ المطلوب في الحرص لأن شدة الحرص تؤدي الى الجور وعدم العدل قال عليه السلام: «**ولا حريصاً يزين لك الشره** (أي شدة الحرص) **بالجور**» فشدة الحرص يظلم معها الإنسان في شتى الأمور وهذه الصفات الثلاث يجمعها سوء الظن بالله تعالى، فالرازق والمدبر والناصر في الضعف والخوف وإعطاء الحقوق للآخرين بالعدل بينهم هو الله تعالى لذا قال عليه السلام: «**فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله تعالى**».

في اختيار البطانة أو الحاشية

ثم أمره بعد ذلك بأن ينظف حاشيته ووزراءه من كل من شارك في حاشية سلطان قبله أو كان من أعوان الظلمة ووزرائهم الذين ساعدوا على ظلم الناس من جهة ولأن مجرد قبولهم بوزارة لحاكم ظالم ومعونتهم له يدل على عدم وفائهم للحق وكونهم شركاء في الظلم الذي أعانوا عليه فلا يمكن الاعتماد عليهم ولا الائتمان منهم لذا قال عليه السلام: «**إن شر وزرائك من كان قبلك وزيراً للأشرار ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة**» أرشده إلى اتخاذ بطانة أو وزراء ممن لم يعهد عنهم إعانة الظالمين ولا مشاركة في إثم الظلم للناس والجور عليهم، فأمثال هؤلاء يمكن الاعتماد عليهم وإدخالهم في المشورة والاختلاء بهم عند الضرورة لعدم سبق معونة الظالمين وصدور الإثم منهم لأنهم لم يتمرسوا ولم يمعنوا في الظلم، فالذي يتمرس في الظلم وتأييد الظالم لا يأمن من الخيانة ومثل هؤلاء لا يعرفون قلب الحقائق ولا التلون في المواقف ولا تزيين الباطل وتلبيسه بلباس الحق، لذا قال عليه السلام بعد أن أمره بالبحث عن الوزراء الصالحين والبطانة العادلين: «**ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه أولئك أخف عليك مؤنة**» أي لا يتعبونك في إدارة الحكم عند اتخاذ القرارات العادلة وتنفيذها «**وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفاً**» ويعينوك على إدارة الحكم بالعدل ويكنون لك المودة والإخلاص

لكونك عادلاً «**وأقل لغيرك إلفاً**» لأنهم لم يتعودوا ولم يألفوا الباطل والظلم فهم أقرب إلى الحق والعدل من الجور: «**فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك**».

ثم أمره عليه السلام أن يقدم في المشورة أهل الحق الذين يقولون الحق ولو على أنفسهم فلا يجاملون الحاكم ليزينوا له سيئاته وليس دأبهم المدح والثناء ومباركة أفعاله صحيحها وفاسدها فأهل الحق لا يداهنون بالحق ويأمرون به رضي الناس أو لم يرضوا لقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

وأكثر الناس التصاقاً بالحق وأقوالهم له هم الأحق في التقرب منه قال الأمير عليه السلام: «**ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك**» أي ليكن أفضلهم لديك أكثرهم قولاً بالحق المر ومرارة الحق صعوبته على نفس الوالي، فمواجهة الوالي بالحق لو أخطأ يصعب عليه تقبله لأنه رأس الدولة وهذا يرجع في الحقيقة إلى تواضع الوالي وقربه من الله تعالى حتى يقبل النصيحة ويعترف بالخطيئة. ثم قال عليه السلام: «**وأقلهم مساعدة فيما يكون منك**» أي لا يساعدونك على الباطل إذا وقع منك بتزيينه وتبريره على قاعدة أن الوالي أو الحاكم خطؤه مبرر ويشفع له مقامه «**مما كره الله لأوليائه واقعاً ذلك من هواك حيث وقع**» أي لأن الله تعالى يكره النفاق من الحاشية في تبرير ما وقع منك من مرغوباتك التي كرهها الله من أوليائه.

بعد هذا وصية ذهبية أُخرى نورانية من معدن النبوة والإمامة لا تصدر إلا عن عارف عظيم ومن أعظم من الأمير عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله نداء يتوجه به الأمر إلى مالك ومنه الى كل الحكام الذين يتربعون على كراسي الحكم، على الوالي أن يكثر من مجالسة الورعين ليتعلم الورع، وأهل التقوى والخوف من الله تعالى لينمي عنده ملكة الخوف والورع التي تبعده عن الحرام وارتكاب الظلم وما ينافي الشرع، والصادقين حتى لا يكذب في قوله لأن السائس أكثر ما يجيده هو الكذب على الناس فعليه أن يجالس أهل الورع والصدق لأن بيئة الإنسان وجلساءه يؤثرون على مساره

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

الأخلاقي والسلوكي، وإذا أصبح الحاكم ورعاً عن الحرام عادلاً في حكمه خائفاً مقام ربه صادقاً في قوله فلا يأكل مالهم ولا يظلم حقهم ولا يجير في رأيه ولا يستعلي على الضعفاء، وعليه أيضاً أن يعود هؤلاء الورعين الذين يلتصق بهم لأن الأمير أمره بالالتصاق بهم ولا يفارقهم أبداً حتى يبقى متذكراً دائماً وأن لا يعودهم على مدحه والثناء عليه لأنهم والعياذ بالله إن تعودوا على ذلك ذهب ورعهم وبدل أن يصلحوه يفسدهم خصوصاً إذا أغدق عليهم بالعطيات لذا قال عليه السلام: «**والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على ألا يطروك (أي عودهم على ألا يطروك ولا يزيدوا في مدحك) ولا يبجحوك بباطل لم تفعله**».

«**فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة**».

أيها القارئ العزيز لو أن الحكام على مرّ الزمان التزموا هذه الصفات في وزرائهم ومستشاريهم وجلسائهم والتزموا أهل الحق والصدق والورع وعملوا بذلك لساد العدل والرحمة والصدق ولما رأيت كل مظاهر الاعتداء والكذب والخداع وما إلى ذلك مما يستعمله أهل السياسة على مرِّ العصور والدهور؟

تشجيع العامل المنتج

بعد ما حدد الإمام علي عليه السلام في كتابه لمالك الأشتر حينما ولاه مصر صفات الحاكم وصفات وزرائه ومستشاريه الذين لهم التأثير الكبير في إدارة شؤون الدولة وحفظها وصيانتها من الداخل والخارج مما مرّ تفصيله، نعرض بإيجاز بعض ما ورد في هذا الدستور الرائع والمنهج الفريد، لأن المقام لا يسع لشرحه كله، ولو أراد باحث أو مفكر لامع أن يقف عند دقائقه ويغوص في حقائقه وينهل من موارده لسطر كتباً ودوّن صحائف كثيرة، ولجفّ المداد قبل نفاد الكلمات.

أرشد الأمير عليه السلام واليه الأشتر إلى أن يعطي كل إنسان حقه في ميزان الثواب والعقاب، فالمحسن يثاب على إحسانه بقدره، والمسيء يعاقب على إساءته بقدرها لأن الإخلال بهذا الميزان يدفع المسيء الى التمادي في الإساءة باعتبار أنه أمن من

العقاب، والمحسن يشعر بالغبن والوهن إذ لا يثاب على إحسانه وما يقدمه من خدمات لهذه الدولة فحقه مهدور أمام ما يبذله من طاقة، والوهن يقصر في عطائه ولا يسعى بعد ذاك لتحسين عمله وإعطاء جهده لأنه لا ثواب له في المقام لذا قال الأمير عليه السلام: «**ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة، والزم كلاً منهم ما ألزم نفسه**».

عدم نقض السنن الصالحة

كما أشار الأمير عليه السلام إلى أهمية إبقاء القوانين التي عمل بها وسنّها من كان قبله من الحكام إذا كانت هذه القوانين تصب في خانة الفائدة للناس وفي إطار العدل، خصوصاً فيما إذا كانت هذه السنن تتصل بالحياة الاجتماعية وتنظيم شؤون المجتمع مما يعود بالخير عليه من خلال ربط عرى أواصره وتعميق الألفة بين أبنائه لأن ذلك فيه صلاح الرعية وهو أمر مطلوب ومحبوب ونهاه عليه السلام عن تعطيل هكذا قوانين أو إلغائها لمجرد أنه والٍ جديد ويريد أن يحدث قوانين جديدة كما هو حال كثير من الحكام الذين يلغون كل ما سنّه من مضى قبلهم في الحكم لعقدة يعيشونها في أنفسهم ممن سبقهم، أو للشعور بالعزة والكبر الذي يمنعهم من الأخذ بسيرة الماضين كما أوصاه إذا أراد أن يسن قانوناً أو ما أسماه الإمام عليه السلام سنة فعلية، أن يراعي في ذلك مصلحة العامة، وأن أي إلغاء لسنن الماضين وقوانينهم مما يعود بالفائدة على المجتمع كما بينا هو تعطيل بغيض، على الحاكم وزره وعقابه والأجر لمن سنها وعمل بها لذا قال عليه السلام: «**ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها**».

مشاورة العلماء

وهنا وصية مهمة وهي مشورة العلماء ومحادثة الحكماء لما يحمله هؤلاء من

علم ينير للحاكم ويرشده إلى ما يجهله أو ما قد يغفل عنه، وما يعيشه الحكماء من الاتزان في التفكير ووضع الأمور في موضعها. فالحكماء هم الأساس في سن القوانين المفيدة ودراسة الأمور بوعي وإدراك، والعلماء ضرورة لمعرفة أحكام الشريعة أو للاستفادة من خبراتهم في كل مجالات الدولة والحياة من أطباء وعلماء اقتصاد واجتماع وما إلى ذلك لأن الحاكم مهما كان ذا خبرة حتى لو كان عالماً بشرع الله تعالى ينبغي أن لا يستقل في الحكم من دون مشورة ذوي الاختصاصات في العلوم إذا كان يريد خير شعبه وأمته وإلا تحول إلى ديكتاتور يحكم برأيه ويستبد بقراره ومن استبد برأيه هلك ومن استشار الرجال شاركهم في عقولهم على القاعدة القرآنية ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[1] قال الأمير عليه السلام: «**وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة** أي محادثة **الحكماء في تثبيت ما صلح عليه امر بلادك**».

ثم أشار الإمام عليه السلام إلى طبقات المجتمع وعدم استغناء بعضها عن البعض الآخر والكل يحتاج الى الكل ومن يعتقد أن الإنسان يمكنه الاستغناء عن أخيه الإنسان بهذا المعنى فهو مخطئ وقد سمي الأمير عليه السلام من هذه الطبقات ـ باعتباره يتحدث عن دستور دولة ومنهج حكم ـ الجنود الذين هم أساس قيام الدولة والحكم فلولا الجيش أو الجنود لا يستقيم نظام، فالذي يضبط أمن البلاد من الوشاة والمفسدين والمخربين وغيرهم هم الجنود، والذي يحفظ حدود الدولة من الهجوم عليها من الطامعين والمحتلين والغزاة هم الجنود، والذي يثبت دعائم الحكم ويحفظ له هيبته هم الجنود، لذا قال عليه السلام: «**فالجنود بإذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الأمن وليس تقوم الرعية إلا بهم**» وأوصاه بعد ذلك أن يعطيهم حقوقهم من المغانم وغيرها من بيت المال لكي يثبتوا في جهاد عدوهم. وفي هذا المقام إلفات نظر يمكن استيحاؤه من كلمات الأمير وهو أن الجند عملهم هو هذا لا أن يكون الجند أداة لهيمنة الوالي على الرعية لإحكام قبضته بالقوة واستمرار حكمه

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

بالتعسف والظلم وانتقاله إلى أبنائه بالوراثة كما نشاهده في كثير من دول عالمنا الإسلامي، فقوة الجند ضرورة لإقامة الحكم شرط أن توجه في خير وصلاح الأمة لا أن تستغل هذه القوة للقمع والإرهاب الممارس على الضعفاء في أمنهم واقتصادهم وسياستهم وفكرهم.

ثم يذكر الإمام عليه السلام القضاة الذين يقيمون الحدود ويطبقون الأحكام في المنازعات والخصومات لرد الحقوق إلى أصحابها، والحد من النزاعات والخلافات المؤدية للفرقة بين الناس والقضاء على عنصر الفساد من خلال إقامة الحدود لأن فيها أخذاً للحق من المعتدي وردعاً للآخرين من أن يقعوا بمثل من أقيم عليهم الحد. وكذا للعمال ضرورة في المجتمع المدني للقيام بالأعمال المتنوعة التي لا يستقيم أمر الناس بدونها.

ثم أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام في كتابه لمالك الأشتر إلى أن هؤلاء جميعاً لا غنى لهم عن التجار الذين ينمون اقتصاد البلاد ويرفعون مداخيلها وذوو الصناعات هم ضرورة أيضاً لرفع البطالة والحد منها، فكثير من البلاد الإسلامية وغيرها تعاني من البطالة التي تؤدي بدورها الى توليد الفساد والسرقة وتعاطي المخدرات وما إلى ذلك من المفاسد الناتجة عن البطالة. وتعلم الصناعات هو أحد الحلول المهمة لكثير من المشاكل الاجتماعية وكما قيل بدل أن تعطي الفقير طعاماً علمه كيف يحصل عليه. فأصحاب الصناعات والكارات ضرورة لا غنى عنها للمجتمع لأنه يقوم عليها وبها تتم الكفاية الذاتية ويقوى اقتصاد البلاد وترتفع البطالة فيعتمد الصانع على صنعته ولا يكون عالة على غيره وهي لها فوائد كثيرة أشار إليها الأمير عليه السلام بقوله: «**ولا قوام لهم جميعاً**» أي للجند والقضاة والعمال والكتاب «**إلا بالتجار وذوي الصناعات في ما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه في أسواقهم**».

ثم أوصى الإمام عليه السلام بالطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين فقدوا المعيل أو أقعدهم الزمن بجوره أو طول مدته أو نكباته ممن استحق المعونة، أن ينظر اليهم ويبحث عنهم ويراعي حقهم من أموال الميسورين مما فرضه الله في أموالهم.

كيفية توزيع مناصب النفوذ في الدولة

ثم أمره عليه السلام في اختيار مواصفات معينة يصعب انطباقها على مصاديق كثيرة في الأمة حيث يندر وجود أمثال هؤلاء ممن لا يعيشون الطمع. وأن لا يكون هذا المسؤول ممن يصر على رأيه عند مماحكة الخصوم بل أن يكون مرناً ينصاع للحق لو كان مخطئاً ومن أصحاب النفوذ يعتبر نفسه مخطئاً في كثير من الأزمان ولا يتمادى في الزلة بحيث يصر على خطئه وزلاته، وأن يكون ممن يستند في حكمه إلى الحجة والبرهان لا أن يعتمد على الهوى والعصيان وأن يقف عند الشبهات فلا يقع في المهلكات فيتوقف عند عدم معرفته بالأحكام.

ومن روائع هذه الوصية أن يجعل الحاكم وقتاً يخصصه للجلوس مع رعيته وذوي الحاجات من أمته لأن هناك قضايا كثيرة يتظلم بها الناس ممن يوليهم الحاكم أمور دولته، ربما لا تصل إلى مسامع الحاكم. فهم أهل الدولة والحكم والنفوذ ولديهم أيدي على بعضهم وربما يعرفون أسرار بعضهم فيمتنع المشكو إليه من الأخذ بالشكوى خوفاً أو رعاية للمدعى عليه في المقام، ولذا لا تحل هذه القضايا عادة وتبقى عالقة وما أكثرها في كل زمان خصوصاً المتعلقة بالأموال والأراضي والعقارات وما إليه، فالحل في مثل هذا هو تخصيص مجلس لهؤلاء حتى ينظر في قضاياهم ولما في ذلك أيضاً من شعور بالتواضع لله، ما يبقي الحاكم بعيداً عن التكبر والاستعلاء من مجالسة الفقراء والمساكين وسأنقل هذا المقطع بكامله لأهميته، قال عليه السلام: «**واجعل لذوي الحاجات منك قسماً** (اي لذوي المظالم وقتاً يرجعون فيه إليك)، **تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك** (وهذا ضرب من ضروب تأديب النفس وإبعادها عن الأنا وتنزيهها عن التكبر ورفعها عن الاستعلاء، فهذه الآفة كثيراً ما تصيب أصحاب النفوذ والمال) ثم قال له: **وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك**» لأن كثيراً من الحجاب على أبواب السلاطين والزعماء يمنعون أصحاب الشكاية من الدخول حتى لا يفتضح أمرهم

ولذلك أمره الأمير عليه السلام أن يبعد هؤلاء عن الناس ليدخل من يريد إليه ويشكو من يريد بحرية من دون خوف من أحد أو مانع يمنعه من الكلام ثم قال: «**حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع** أي غير خائف **أو متردد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول في غير موطن: (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متتعتع)**» وأي قانون أو دستور أروع وأكمل من هذا الكلام في إعطاء الحقوق للضعفاء وذوي المظالم؟ وكذا ينبغي للعلماء والمرجعيات الدينية أن تنحو هذا المنحى في إدخال الناس إليها للشكاية!.

حرمة سفك الدم في عهده للأشتر

من وصايا الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر (رض) «إياك والدماء وسفكها بغير حلها»

إن الله تعالى ما جعل لشيء حرمة أعظم من حرمة دماء المسلم

إن فضاءات التاريخ قد أنارها العظماء بكلماتهم لتصبح منهجاً يحتذي به من يتمسك بالحق ويعرف قيمة للعلم ومنزلة للحكمة، وقد عالج أمير المؤمنين علي عليه السلام في عهده لمالك الأشتر حين ولاه مصر، والذي نبحث في طياته واستكمالاً لحلقات ثلاث سبقت مسألة الدماء وحرمتها فيوصيه بصيانة الدم الذي حرمه الله بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[1] حيث جعل الخالق تعالى شأنه حرمة لدم الإنسان وبالأخص دم المؤمن الموحد لله تعالى، وتوعد القاتل بأربعة ألوان من العذاب كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[2]، اللهم إلا أن يكون مفسداً في الأرض ويريد أن يهلك الحرث والنسل ويسفك دماء الناس بغير حق فيكون هو قد أهدر دمه وطبعاً أمره يعود إلى الفقهاء الأتقياء. يقول الإمام علي عليه السلام: «**وإياك والدماء وسفكها بغير حلها**» لأن الإنسان إذا أصبح حاكماً أو ذا سلطة ومقدرة فإنه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

سيسعى إلى تثبيتها والحفاظ عليها بأي طريق ولو بسفك الدم المحرم وهذا ديدن غالب الحكام على مرّ الدهور والأزمان، فتاريخ بني أمية وبني العباس وغيرهم كثير الى يومنا حافل بسفك الدم بل وربما غلفوه بغلاف الإسلام ليشرعنوه كما حصل في فتوى شريح القاضي الذي أفتى بقتل ابن بنت رسول الله ﷺ الحسين بن علي عليه السلام الإمام المفترض الطاعة الذي طهره الله وأذهب عنه الرجس كما بينه الوحي فقال: خرج على أمة جده فيقتل بسيف جده، تبريراً للحاكم الظالم في سفكه أطهر وأزكى دم عرفته البشرية في ذلك الوقت، ونظائر ذلك في التاريخ الإسلامي كثيرة وبحثه يطول وما نشهده في زماننا من مجموعات تنتسب إلى الإسلام وتدعي الإيمان وتقتل المسلمين لمجرد اختلافهم معهم في الرأي فمن لم ينتهج منهجهم في الجزيئات فهو مرتد عن الدين ولو كان موحداً صائماً مصلياً حاجاً مزكياً يستحلون دمه بأبشع صورة، وهذا ما نشاهده في بعض بلاد المسلمين بدل التوجه نحو الأعداء واتحاد المسلمين مع بعضهم، يتوجهون لقتل المسلمين باسم الإسلام وباسم محمد. وأنا أقول هنا: إن محمداً ﷺ بريء من كل هذه الأفعال لأنه أرسى دعائم الإيمان بقوله ﷺ: «**إن دماءكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**» (وهو حجة الوداع)، وورد عنه ﷺ: «**من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ فقد عصم دمه وماله وعرضه وله ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين**»، فإن الشهادتين كلمتان عظيمتان في الميزان عند الله تعالى تعصمان صاحبهما عن القتل في الدنيا والاعتداء عليه وعلى ماله وعرضه وتصونانه من كل أذية حتى لو أضمر خلافهما فله رب يحاسبه يوم القيامة لعدم التزامه بمضمونها.

وهل هؤلاء القتلة باسم الإسلام لم يصل إليهم هذا الحديث وأمثاله؟ أم أن جهلهم بالتمييز بين الارتداد والإسلام والشرك والإيمان جعلهم يسفكون الدم؟ وهل يحل لأي مسلم لمجرد أن له فكراً معيناً أن يستحل دماء الآخرين الذي يختلف معهم؟ ومن أعطى تلك الولاية والوصاية على دماء الناس لأمثال هؤلاء؟ ألم يوص رسول الإسلام والمحبة والسلام في حجة وداعه بقوله: «**لا ألفينكم تعودون بعدي كفاراً**

يضرب بعضكم أعناق بعض؟». ثم نسأل لماذا هذا السكوت المطبق من مراكز الإفتاء في العالم الإسلامي عن أمثال هؤلاء الذين يشكلون الخطر على كل بلاد المسلمين فلو انتشر وباؤهم لعمّ القتل والاقتتال كل بلاد المسلمين لأن هؤلاء يكفرون كل من يخالفهم في الرأي، فعلى مراكز الإفتاء في العالم أن يتحملوا مسؤولياتهم أمام هذه الظاهرة وليعلم كل هؤلاء أنه ورد في الحديث الصحيح عند جميع المسلمين: «**لو أن أهل الارض شاركوا في قتل مسلم لأدخلهم الله جميعا الى النار ولا يبالي**».

ثم إن عاقبة سفك الدم هو الخزي في الدنيا قبل الآخرة وموجبة لزوال النعمة، وإيجاب النقمة من الله تعالى عليهم، ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام له: «**إياك والدماء وسفكها بغير حلها فإنه ليس شيء أدعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة من سفك الدماء بغير حقها**».

وليكن معلوماً أن الله تعالى ما جعل لشيء حرمة أعظم من حرمة دماء المسلم، بل دماء أي إنسان مسالم حتى لو كان كافراً فضلاً عن كونه من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾، حيث جعل الله حياة إنسان كحياة سائر البشر ومن أعدمها اعتدى على حرمة الله في حياة هذا الإنسان فكأنه أعدم كل الناس، وأن السافك سيصاب في الدنيا بالوهن والضعف وزوال نعمة الملك عنه وربما يساق إلى العقاب والاقتصاص في الدنيا. أليس في صدام وغيره من بني الإنسان عبرة لمن يعتبر، فلذا قال الأمير عليه السلام محذراً مالك الأشتر من عاقبة سفك الدماء بغير حلها قال: «**والله سبحانه مبتدئ بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندي**» (لأنه الحاكم العادل) في قتل العمد لأن فيه قود البدن ـ أي سوقه الى القصاص.

الأمر الثاني: الذي أحب إثارته في عهد الإمام مما يبتلى به كل سلطان، بل ربما يميل إليه كل إنسان وهو الإعجاب بالنفس إعجاباً شديداً يجعل الحاكم لا يرى أصوب وأحسن مما فعل أو أعجب فيه، وعليه إذا وصل إلى هذه الدرجة لم

يمكنه بعد أن يرى الخطأ في فعله ولا أن يطمح إلى فعل الأحسن، ألا ترى أن الحاكم إذا فتح طريقاً متبجحاً بإنجازه واثقاً من عمله لا يرى كل المساوئ والنواقص فيما فعله، وهكذا في كل الأعمال أو في الأمور السياسية والإدارية لأن الإعجاب يبعد عن الصواب. ألا تشاهد بعض الناس يعتقد متفلسفاً أن غاية الصلاة هو فعل الخير وهو يفعله فلا داعي للصلاة، أو أن غاية الإيمان هو العمل الصالح ولا إنسان أصلح منه فهو مؤمن والإيمان بالقلب، فمثل هؤلاء أعجبوا بأفكارهم التي ساقتهم إلى الخطأ وعدم التركيز على الصواب جراء الثقة بالنفس والإعجاب بها وقس على ذلك ما سواه من الأعمال والأفكار وغيرها. لذلك حذر الإمام عليه السلام من هذه الآفة بقوله: «**وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها**».

الأمر الثالث: هو ما اعتادت عليه البشرية وقامت عليه الولايات وشكل حيزاً أساسياً في كل بلاط ودفعت عليه الأموال، ما يسمى اليوم بالمال السياسي ـ أعني المدح والمديح وتزوير الحقائق وإعطاء الصفات الحسنة لذوات سيئة من خلاله فلا حاكماً أو والياً إلا وكُتبت فيهم الأبيات الشعرية والقصائد ودست لبعضهم زوراً الأحاديث النبوية وألفت فيهم الكتب في الإنسانية والمراتب العلوية فرُفع الوضيع وحسُن الدميم وبُرئ القاتل وسما المجرم وعفي عن السارق وزكي الخبيث و... الخائن وعُدّل الظالم واحترم الفاسق ونال الشرف الدنيء وعلت مراتب الخسيس وزور التاريخ للحكام تزويراً فادحاً بقلب الصفات وتبرير النزوات وتحسين الشهوات ورفع الدرجات كل ذلك لأجل حبهم للمديح والإطراء عليهم بما لا يستحقون وأكاد أقول إن حاكماً لم يخل من المديح وما رفض الإطراء عليه بل ودفع الأموال للشعراء لهذه الغاية، بل ودفعت أموال المسلمين لدس الأحاديث زوراً لمدحهم فجعل على سبيل المثال لا الحصر معاوية بن أبي سفيان أحد العشرة المبشرين بالجنة وكاتب الوحي وهو من قتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن بن علي عليه السلام بالسم وغيره من الصحابة، ولكن خلا من ذلك الأمير عندما رفض المديح وأسكت مادحه بقوله: «**يا هذا إني أعلم بنفسي منك**» ثم توجه الى الله بالدعاء تواضعاً: «**اللهم اجعلني أحسن مما يظنون واغفر**

لي ما لا يعلمون» كل ذلك ناتج مما ورد أن مادح نفسه شيطان. إضافة الى آيات قرآنية نهت عن أن يمدح المرء نفسه كقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾[١]».

لذلك أوصاه عليه السلام بأن يبتعد عن هذه الآفة التي تورث الإعجاب بالنفس والتعالي على الضعفاء بقوله عطفاً على الإعجاب بالنفس: «**وحب الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين**».

ثم أوصاه بعد ذلك إذا أحسن إلى الرعية والفقراء والمستضعفين بأن لا يتبع إحسانه لهم منّاً ولا أذىً لأن الوالي هو الخادم للناس في منصبه وما يقوم به هو واحد من واجباته المفروضة عليه قال عليه السلام: «**وإياك والمنّ على رعيتك بإحسانك أو التزين بما كان من فعلك أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك، فإن المن يبطل الإحسان، والتزين يذهب بنور الحق، والخلف يوجب المقت عند الله والناس قال تعالى**: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[٢]».

أقول: حبذا لو عمل كل المسؤولين في هذا الزمان بوعودهم التي يعدون الناس بها أو بنصفها عند ترشحهم للانتخابات وفي الإعلام والاحتفالات ويكاد السامع لها يعتقد بحل جميع مشاكله الاقتصادية والاجتماعية والزراعية والصناعية والسياسية لكن الكذب ديدنهم والخلف بالوعد من شيمهم فعندما يصلون إلى نيابة أو سدة مسؤولية يجعلون وعودهم تحت أرجلهم فلو أنهم صدقوا وعملوا بما وعدوا لصلح العباد وعمرت البلاد وازدادت الخيرات لكن هيهات.

وأخيراً أوصاه بعدم العجلة في الأمور والتروي في تدبيرها حتى يعيش التوازن في التفكير ويصيب الواقع فإن في العجلة الندامة قال عليه السلام: «**وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التسقط فيها عند إمكانها... فضع كل أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه**».

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٢) سورة الصف، الآية: ٣.

الفصل الثاني: رسائل في التربية والاجتماع

الآداب في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد نظر الإسلام إلى الأدب والتأدب نظرة اهتمام بالغة لما له من أهمية ذاتية تارة وخارجية أخرى وصلت إلى حدِّ الإحاطة بجميع الموضوعات والأعمال، لأن أي عمل له صورة ذهنية وروحية وله خصائص خارجية، فإذا فقد هذا العمل الآداب الموضوعة له فإنه يخسر صورته الروحية ويبطلها أو يصيرها ناقصة. فلو نظرنا إلى الأمور العبادية التي يمتثلها المكلف طاعة لله فإنه إن لم يأت بآداب العبادة وسننها المستحبة يكون قد أفقدها روحيتها، وعدم رعايته لها يبطلها معنوياً فتأتي العبادة كأفعال خارجية ناقصة وفاقدة لعروجها الملكوتي التي ينبغي للسالك أن يتحلى بها حتى يصل إلى المراتب العليا والمشاهدات الحقة، وكذا المعاملات من حيث كونها تنظيماً لعلاقة الإنسان مع أخيه تأتي الآداب فيها لتؤدي مطلوبها وتكتمل عناصرها. ونحن هنا بصدد البحث من هذه الجهة بل أشرنا إلى ذلك لنقول: إن الأدب مع الله ومع النفس ومع الناس هو روح العمل وكماله وبدونه يصبح العمل جافاً وربما غليظاً منفراً. والآداب أمور فطرية إنسانية تخضع لأحكام العقل السليم ضمن تحسينه

للياقات وتقبيحه للقبيح. والحاصل في هذه المقدمة أن الأدب في الإنسان دليل كماله ورجاحة عقله وصحة مساره ليحلق من خلاله في آفاق الروح وطهارة النفس فيفتحها على خالقها وكل الناس من حوله لذا ورد عن الأمير عليه السلام: «**الأدب كمال الرجل**».

وجرياً على عادتنا في تناول المواضيع باختصار نورد البحث تحت عناوين:

أولاً: الأدب قوام الإنسان:

من العناصر التي يتقوم بها العقل البشري، فيه يصحح الإنسان حركاته وأفعاله ويخضعها لنظام العقل الذي ينطلق من خلال دراسة الأفعال قبل القيام بها وإحاطتها بجميع السلبيات والإيجابيات بعيداً عن أي تأثير بيئي أو قومي أو هوى نفسي قبل إصدار الحكم عليها، والعقل يحتاج في تقويم مساره وصحة إحكامه إلى الأدب لأنه قوامه كما ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «**عقل المرء نظامه وأدبه قوامه وصدقه أمامه وشكره تمامه**»... وذوو الألباب يحتاجون إلى الأدب كما تحتاج النبتة إلى الماء والجسد إلى الرأس، لأنه من دونه تكون الأحكام العقلية الصادرة عنه جامدة لا تحاكي الروح فتبتعد عن تأثيرها المطلوب في محيطها. وقد ورد في هذا المعنى عن الإمام علي عليه السلام قوله: «**إن بذوي العقول من الحاجة إلى الأدب كما يظمأ الزرع إلى المطر**». وحينئذ تكون هذه الأحكام فاقدة لما يحسن ويجمل صورتها ليصيرها مقبولة مستساغة. فكما أنك لا تستطيع استساغة الطعام من دون ملحه ومحوجاته كذا بدون الأدب لا تستطيع استساغة أحكام العقل الجافة. ويؤيد هذا المعنى ما ورد أيضاً عن الأمير عليه السلام: «**حسن الأدب زينة العقل**».

فكأنه يعطي زيادة في جمال العقل كالطبيعة التي تزداد جمالاً في الربيع.

ثانياً: أدب النفس:

سأتحدث عن هذا العنوان لأهميته فأقول: كل اهتمام الشارع المقدس جاء

منصباً على هذه النفس البشرية لتحقق كمال إنسانيتها وصورتها الجمالية عند مراعاتها لأدبها، لذلك اعتبر الإسلام تأديب النفس أعظم من مجاهدة الأعداء لأنها إن تأدبت صدر منها الإصلاح انطلاقاً من التزامها بآداب الشريعة وأحكامها بعد تأديبها، وقد جعلت النفس المضمار الأول للتأديب والميدان الأول لمخالفة الأهواء والشهوات، ولذلك انصبت الأحاديث الكثيرة في هذا المجال، كما ورد عن الأمير عليه السلام: «**تولوا من أنفسكم تأديبها واعدلوا بها من ضرورات عادتها**». فبعد أن يتولى الإنسان تأديب نفسه عليه أن يخالف ما اعتاد عليه من سوء عاداته التي أصبحت ضرورة سهلة لا يمكنه التخلي عنها كالمدخن الذي لا يستطيع ترك التدخين مثلاً وما أكثر ما تعود عليه الناس من سباب وشتائم وغيبة وفعل منكرات وغير ذلك.

واعتبر الأمير عليه السلام في حديث آخر أن أدب النفس لا يتم بهذه السهولة المتصورة بل لا بدّ من مغالبة النفس حتى تتحول من صورة إلى أخرى وتتزين بعناصر الخير والصلاح، وشبه ذلك أمير المؤمنين بالإحراق حيث قال عليه السلام: «**زك قلبك بالأدب كما يزكى النار بالحطب ولا تكن كحاطب الليل وغثاء السيل**». هذا وبطريق أولى أن صفة الأدب لا بدّ أن تكون في من يتصدى لتأديب الناس وتعليمهم وإلا فلن يكون فعالاً في هذا المضمار وسيسيء إلى نفسه. لذلك ورد عن الأمير عليه السلام: «**من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم. وقال** عليه السلام: «**أفضل الأدب ما بدأت به نفسك**».

ولا بدّ أيضاً للذين يتصدون لتعليم الناس وليس بالضرورة أن يكونوا من العلماء لأننا نرى كثيراً من المصلحين يتصدون لذلك في مجتمعاتنا أن يعلموهم الآداب التي تجعل من أخلاقهم أخلاقاً سامية، ومن تصرفاتهم تصرفات مهذبة، ومن كلماتهم كلمات طيبة، ومن أفعالهم أفعالاً جميلة فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**يا معاذ علمهم كتاب الله واحسن أدبهم على الأخلاق الصالحة**».

وهنا نلفت النظر إلى دور المعلم الرائد والقدوة سواء كان في التعليم الديني أو الأكاديمي باعتبار كونه القدوة في التربية الصالحة وله التأثير الفعال على طلابه، باعتبار أنه كثير الاتصال بهم في أكثر أوقات السنة، والمعلم هو بالدرجة الأولى مؤتمن على تربية وتأديب النشء وعلى عقولهم فينبغي عليه أن يؤدي هذه الأمانة بصدق وألا يعتبر خائناً ويتحمل كامل المسؤولية في تزوير الحقائق والتاريخ وإعطاء المعلومات الفاسدة وعدم الاهتمام بأوقات الدرس وتربية الأولاد على الأخلاق المنحرفة، وبالتالي سيؤدي ذلك فساد للمجتمعات وإلى تدمير للشعوب.

والذي يؤسف له في هذا العصر تحول التعليم وغيره إلى مجرد مهنة تجعل المعلم في كثير من الحالات حريصاً على تحصيل المال والراحة أكثر من حرصه على أداء رسالة تعليمية تربوية مؤدبة ويكون الدين والأخلاق والأدب إذ ذاك آخر ما يفكر به.

ثالثاً: كيفية التعاطي بالأدب:

كيف يمكن للإنسان أن يكون مؤدباً في سلوكه وتفكيره وحديثه؟ هذا يتطلب منا وقفة مع بعض الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام حيث يقول الأمير عليه السلام: «**كفاك أدباً لنفسك اجتناب ما تكره من غيرك**»، وهذا ضرب من الأدب في النفس فكل عادة أو كلمة أو حركة أو تصرف من غيرك تكرهه عليك اجتنابه ليكمل أدبك لأنك لن تكره أفعال الخير من غيرك وإنما ستكره منهم أفعال السوء.

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**أدبني أبي بثلاث..**

قال لي: يا بني من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن لا يقيد ألفاظه يندم، ومن يدخل مداخل السوء يتهم».

إليك هذا المنهج الرائع في تحديد سلوك الإنسان في الحياة الاجتماعية عبر علاقاته القائمة مع الناس، والالتزام بهذه المبادئ الثلاثة يجعل المرء مرتاحاً في تحركاته وعلاقاته لأنك إن صاحبت السيّئ فإنك تتهم بالسوء الذي يفعله من باب قل لي من تعاشر أقل لك من أنت.

والذي يكثر الكلام ولا يقيد ألفاظه بحيث لا يخرج من فمه إلا الكلمة الحسنة وفي موضعها، فإنه سيكثر خطؤه مع الناس وكثرة الخطأ تؤدي إلى بعد الآخرين عنه وجفوته وتعطيل مصالحه، وقد تؤدي بصاحبها إلى مشاكل وخيمة، وكذا الدخول إلى أماكن السوء أو مداخل السوء توجب لصاحبها التهمة والظن فيشاع عنه ما يسقطه من أعين الناس. وورد عن الأمير عليه السلام أنه تكلم بتسع كلمات ارتجلهن فقأن عين البلاغة إلى أن قال الشعبي الذي روى الحديث: وثلاثة منهن في الأدب فقال عليه السلام: «**امنن على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره**». وهذا من أرقى الأساليب السلوكية النفسية والأدبية التي تجعل الإنسان يعيش الحرية في حياته لأنه إن احتاج إلى الناس وسعى لقضاء حوائجه عبرهم فسيشعر بالإذلال والخيبة أمامهم غالباً وسيكون أسيراً لإحسانهم طوال حياته، أما إذا حاول الاستغناء عن الناس وتعامل مع الصانع الواحد الذي يكفيه كل الوجوه فإنه يبقي على شعوره بالعزة والعنفوان أمام نظائره الذين يذلونه إن احتاج إليهم، ومعروف أن الإحسان إلى الناس يملك القلوب والنفوس أحياناً.

وهناك توصية للآباء في لسان بعض الأحاديث بأن يورثوا أبناءهم الأدب بدل المال لأن المال قد يحرفهم ويسقطهم، أما الأدب فيبقي على مكانتهم الطيبة وسيرتهم الحسنة بين الناس، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن خير ما ورث الآباء لأبنائهم الأدب لا المال فإن المال يذهب والأدب يبقى**». وقال عليه السلام: «**لا يزال المؤمن يورث أهل بيته العلم والأدب الصالح حتى يدخلهم الجنة حتى لا يفقد فيها منهم صغيراً ولا كبيراً ولا خادماً ولا جاراً، ولا يزال العبد العاصي يورث أهل بيته الأدب السيّئ حتى يدخلهم النار جميعاً حتى لا يفقد فيها منهم صغيراً ولا كبيراً ولا خادماً ولا جاراً...**» ونكتفي بهذا القدر في هذا الباب رعاية للاختصار.

رابعاً: أدب الحديث:

باعتبار أن الحديث هو وسيلة التفاهم الأساسية بين أبناء البشر، وهو أداة العلم

للوصول إلى المعرفة، وهو مفتاح كل شخصية وعنوانها الكاشف عنها لأن المرء مخبوء وراء لسانه فيتحقق الانسجام وتؤلف القلوب من خلاله، أو يكون منفراً. وهو أحد الطرق المهمة للوصول إلى الله تعالى من خلال العبادة والدعاء كما أنه طريق الله إلى عباده تعليماً وتوجيهاً فلا غرابة أن يكون أهم فعل إنساني، لذلك أوردنا الكلام عنه. وينبغي أن يشتمل الحديث على آداب حتى يؤدي مطلوبه وينظم حركة الإنسان ويوجهها لأن القيم والآداب قائمة عليه.

فمما يحتاجه الحديث اشتماله على القيم الراقية وانتقاء الألفاظ ذات الفائدة والنفع للدنيا والآخرة. فيجنبه ألفاظ البذاءة والفحش وأنواع الجدل التي تثير الشحناء والبغضاء مما لا فائدة فيه، ويخلصه من كل المزعجات والمنفرات كإعلاء الصوت وقلة التهذيب وما إلى ذلك. ولا بدّ فيه أيضاً من عدم التجرؤ على المقدسات والحرمات، واختيار الكلام الصادق الحسن فقد قال الله تعالى في كتابه في سورة الإسراء الآية ٥٣: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أحسن الكلام ما لا تمجه الآذان ولا يتعب فهمه الأفهام**».

خامساً: تأديب اللّه للإنسان:

إن الله تعالى شأنه أدّب عباده بوصاياه وشرائعه فأحسن تأديبهم، ولما تركوا وصاياه ونقضوا أحكامه وابتعدوا عن سننه ساءت آدابهم ومنعوا من الرحمة الإلهية. أما الذي يأخذ بها فقد تأدب بآداب الله عز وجل واستحق الرحمة الإلهية. والتأديب الأول كان لنبيه محمد صلى الله عليه وآله فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «**إن الله تبارك أدب نبيه فأحسن تأديبه فقال: خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين**». فلما كان ذلك أنزل الله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وتحمّل رسول الله صلى الله عليه وآله مسؤولية تأديب الأمة وبدأها بعلي عليه السلام الذي يقول: «**إن**

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

رسول الله ﷺ أدبه الله عز وجل وهو أدبني وأنا أؤدب المؤمنين وأورث الأدب المكرمين..».

أقول: فهلا كنا من المكرمين وحفظنا هذا الإرث العظيم؟

وهناك نوع آخر من التأديب الإلهي للعبد، فإذا أكثر العبد من المعاصي وابتعد عن ساحة الرحمة وسقط من جانب ملكوته استحق العقاب في الآخرة، والتأديب في الدنيا، وإن للذنوب آثاراً وضعية على القلب من جهة الحجب وآثاراً خارجية على الرزق وشتى أنواع البلاء الدنيوي، لذا ورد عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «**أنه قال: أيما ناشئ نشأ في قوم ثم لم يؤدب على معصية فإن الله عز وجل أول ما يعاقبهم فيه أن ينقص من أرزاقهم**».

وورد في دعاء السحر للإمام زين العابدين عليه السلام: «**إلهي لا تؤدبني بعقوبتك ولا تمكر بي في حيلتك**».

وجاء في دعاء كميل بن زياد: «**اللهم اغفر لي الذنوب التي تغير النعم، اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء، اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء**».

سادساً: توجيه:

أكتفي بهذا البيان لأقول بكل حب وتقدير لنفسي أولاً لأنني لست أهلاً لذلك وللجميع: إننا مثقلون من سوء الأدب في التصرفات والأحاديث والسلوك حتى مع أنفسنا، ومتعبون من كل هذا الكم الهائل في محيطنا من سوء الأدب على جميع المستويات، والأخطر من ذلك كله أننا نسيء الأدب مع الله في عباداتنا وفي تجروئنا عليه، لذا آن لنا أن نريح أنفسنا من هذا الثقل لنعيش مع الله ونحلق في آفاقه عبر الدعاء الذي هو مخ العبادة فنجلو بذلك الغشاوة عن أبصارنا والعمى عن قلوبنا والكثافة عن أرواحنا والدنس عن أنفسنا، بذلك تعلو مراتبنا ونقترب من خالقنا فنخاطب لطفه ليلهمنا، ونبتهل إلى عفوه ليغفر لنا، ونتطلع إلى جوده ليشملنا، ونتضرع بين يديه ليختم بالخير أعمارنا ونخشع لجبروته لنتوج بالفلاح عاقبتنا.

حق الإنسان في الحياة

إذا أردنا البحث في عموم الأدلة الواردة في مقام حقوق الإنسان في الحياة والعيش الكريم نجد أنها تشعبت حتى طالت كافة جوانب حياته بدءاً بتكريمه في الخلق من المولى عز وجل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1].

من خلال تجهيزه بالعقل الذي به مائزة وإدراكه للمعقولات مروراً بالتشريعات التي سمت به ليحسن سلوكه كونه خليفة الله تعالى في الأرض وهذا في الحقيقة ليس مورد بحثنا هنا، بل نريد تسليط الضوء على حق الإنسان في الحياة فالله تعالى عندما وهب الحياة وهبها لكل بني البشر على حدٍّ سواء فقد ضمن الإسلام حقوق الفرد على كل المستويات في الملكية الفردية، في الحياة الكريمة، في الشكل والمضمون، في التصرفات الشخصية كل هذه العناوين في إطار الفضائل التي تؤمن له التوازن في كل حالاته.

وأراد الإسلام للإنسان الذي ينتمي إليه أن يشعر بالأمن في حياته الدنيوية فلا يشعر بالخوف على دمه بين المسلمين ولا على عرضه بالاعتداء عليه ولا على ماله بسلبه منه. كان رسول الإسلام ﷺ يكرس هذه المفاهيم الأمنية في أكثر من محطة وموقف وحتى قبل خروجه من هذه الدنيا وقف في حجة الوداع ليقول ﷺ: «**أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم**»، وأكد ذلك بقوله: «**كحرمة بلدكم هذا في شهركم هذا في يومكم هذا..**».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.

وعند مراجعة الخطبة نجد النبيﷺ يحاول أن يؤكد حرمة هذه الأمور ليطلق قوله بعد إجابتهم بدعوته إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا . . .

وهكذا عن حرمة بلدهم وشهرهم . . وليس ذلك إلا لأجل الحفاظ على حرية الإنسان وأمنه وحقه في الحياة وشعوره بالأمن والأمان في بلاد الإسلام وهذه من أبسط حقوق الإنسان بل جعلها الله تعالى مقدمة على حقوقه هو وهذا معنى قول الأميرعليه السلام «**جعل الله سبحانه حقوق عباده مقدمة على حقوقه فمن قام بحقوق عباد الله كان ذلك مؤدياً إلى القيام بحقوق الله**»[1].

لا بدّ في هذا البحث من التعرض لعناوين العيش في الوطن:

من المفروض أن يشعر الإنسان في وطنه بالأمن الفردي والاجتماعي على نفسه ومن يحيط به وما يدخل في ملكه ـ فإذا كانت حريته وأمنه في ذلك كله في معرض الخطر فقد حصل الاعتداء على أبسط حقوقه في العيش الكريم، ولم نشعر تاريخياً وفي كثير من الدول أو الخلافة التي قامت أن باستطاعة الإنسان أن يشعر بالأمن من عدة جهات:

الجهة الأولى: قد يكون الخطر المحدق بالإنسان في هذه البقعة أو تلك ناتجاً عن اعتداء قوة أُخرى على بلاده تسلبه الأمن والاستقرار وهذا منذ القدم وإلى أيامنا هذه نجده في الدول المستكبرة ذات الأطماع التوسعية والمستعمرة للشعوب ومقدراتها والساعية إلى نهب ثرواتها، تحث الخطى جاهدة لاستعمار الدول تحت عناوين شتى متعددة متذرعين تارة بالخطر المحدق بهذه الدول التي ينعتونها بالإرهاب والتخلف وما إلى ذلك ثم يزعمون أنهم يريدون نشر الحرية والديمقراطية بين الشعوب والحفاظ على حقوق الإنسان في الحياة الكريمة وهم أول من ينتهك

---

(١) الميزان: ج٢، ص٨٢.

هذه الحقوق ولا يقيمون وزناً للإنسان الذي هو أقل منهم قوة وعتاداً وهذا لا يحتاج إلى كثير استدلال فهو ظاهر للعيان وأوضح ما يدل عليه في أيامنا ما يجري في فلسطين والعراق وغيرهما. إن الله تعالى لا يرضى لبني البشر أن يخربوا أمن بعضهم وأن يتعالى قويهم على ضعيفهم وأن يقتل المستكبر منهم المستضعف وينتهك حقوقه في بلده وأمنه، ولذا حرم الاعتداء على الإنسان وجعله من الكبائر الجسام وتوعد عليه بالنيران بل الخلود، في جهنم واللعن والعذاب وغضبه عليه. قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[١]، وورد في السنة الشريفة الأحاديث التي تمنع الإنسان من الإنسان والاعتداء على حرمته وأمنه والحفاظ على حياته. بحيث يشعر الإنسان أنه مصان وآمن على نفسه ودمه من الآخرين. فلا يعتدون عليه. فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**لو أن السماء والأرض اجتمعوا على قتل رجل مسلم لعذبهم الله بلا عدد ولا حساب**»[٢]. وعنه ﷺ: «**من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله**»[٣].

وعنه ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم**»[٤].

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تجعل عقاباً شديداً للقاتل والتي تمنع دماء الناس من بعضهم البعض وحتى أن السنة الشريفة أرادت منع الإنسان من نفسه فلم تسلطه على حياته لمنعها من حقها في الحياة فتوعدت له بالعقاب وخسران الدارين، فعن الصادق عليه السلام: «**من قتل نفسه متعمداً فهو في نار جهنم خالداً فيها**»[٥].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٩.
(٢) ميزان الحكمة: ج٨، ص٤.
(٣) م. ن.
(٤) ميزان الحكمة: ج٨، ص١٤.
(٥) م.ن: ج٩١، ص٣١.

الحياة الفردية:

فقد جعل الله الإنسان مسلطاً على ملكه ولم يجعل لأحد سلطة عليه ولا على ماله وسلطانه فهو الوحيد الذي له حق التصرف بماله كيف يشاء وطبعاً في حدود الحلال الذي فيه مصالح العباد، هو المالك لهذا المال، فقد ورد: «**إن الناس مسلطون على أموالهم**» فلا سلطان لغيرهم سواء كانوا أفراداً أو جماعات في التصرف بمال الغير واحتلال أرضه أو نهب حقوقه في ثروات بلاده وما إلى ذلك.

وللفرد الحق في أن يفكر بحرية في اختيار طريقة عيشه التي يرتضيها فليس لأحد أن يفرض عليه طريقة العيش في كل تفاصيل الحياة الفردية من مأكل وملبس واختيار المسكن والشريك وما إلى ذلك.

وكل ذلك في حدود ما أحله الله لأن الله لم يحرم إلا ما فيه اعتداء على حرية الآخرين عند التوسع في اختيار طريقة العيش التي تؤدي إلى الإضرار بهم أو حتى الإضرار بمصالح الفرد نفسه الذي يسيء اختيار ما فيه صلاحه في طريقة العيش كأن يختار تبذير ماله في القمار مثلاً.

فله وحده الحق في كل ذلك. وأيضاً للفرد الحق الكامل في الحرية الفكرية من دون أن يكون لأحد سلطان على تفكيره أو هيمنة قمعية تتدخل لتفرض عليه المنحى الفكري أو المنهاج العملي لأن الإرهاب الفكري على طريقة تفكير الفرد والفكر الإسقاطي الذي يملي عليه ما يختاره من أفكار وعقائد وما إلى ذلك لا يقل عنفاً وجريمة في حق الإنسانية من احتلال أرضه والهيمنة على ملكه.

ولذلك الإسلام بعظمته لم يقمع فكر أحد حتى أعدى أعداء الله إبليس لم يقمعه الله تعالى بل حاوره كما جاء في الكتاب، ويسعى الإسلام إلى توجيه الفكر نحو الأسس السليمة ليعطي ثماراً ونتائج سليمة.

ولذا حثّ الإسلام على التفكير وذم الجهل والجاهلين وفي كثير من الآيات حثّ على ذلك.... ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ـ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ

أَقْفَالُهَآ﴾[١] ـ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢] ـ أي العقول ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣]، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[٤]. والقلوب هي مساحة الوعي عند الإنسان في عقله.. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٥]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٦] وقد تكررت هذه الآية في أكثر من سورة فمنها الرعد، النحل، يونس وكثير من الآيات والروايات التي يرجع إليها في محلها. ومنها: وقد مدح الرسول العقل وأمر باحترامه حيث قال: لكل شيء آلة وعُدّة، وإنّ آلة المؤمن وعُدّته العقل، ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل، ولكل شيء غاية وغاية العبادة العقل، ولكل قوم راع وراعى العابدين العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدين العقل، لكل سفر فسطاط يلجؤون إليه وفسطاط المسلمين العقل.

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: «**يا هشام ما قسم بين العباد أفضل من العقل إلى أن قال: إن لله على الناس حجتين ظاهرة وباطنة، أمّا الحجة الظاهرة فالرسول والأئمة عليهم السلام وأما الحجة الباطنة فالعقل**».

ركز الإسلام على طريقة الحوار بين الفكر والفكر الآخر وهذا لا يقع الذي يتدخل في البرامج التعليمية والفكرية، وقد علمنا القرآن أن نحاور الذين نختلف معهم، ففي الدائرة الإسلامية أرجعنا الله ورسوله عند التنازع والتخاصم ولم يفرض على أحد فكرة معينة أو يعطي الحق لفريق على آخر بل المرجع في الحكم هو الله

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الزّمر، الآية: ٢١.
(٣) سورة الحشر، الآية: ١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٦) سورة النحل، الآية: ١١.
(٧) سورة النساء، الآية: ٥٩.

ورسوله، ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[١].

وفي دائرة الأديان فرض الحوار القائم على الموضوعية الفكرية المنطلقة من أسس سليمة المبنية على المعرفة والتروي في الخطاب المنطلق من العلم والبرهان لا الجهل والتخلف وحوار الطرشان وتبني الغلو والخرافة وما إلى ذلك مما يبنى على منطلقات عصبية جاهلية في إدارة الخلاف، ولذا دعا أهل الكتاب الذين هم على غير ديننا إلى الشيء المشترك بيننا وهو عبادة الإله ثم الحوار فيما نختلف فيه، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾[٢].

وحتى لو أمعنا النظر في الكتاب الكريم لوجدنا أن الله تعالى بسلطانه وجبروته الغني عن العباد القاهر القادر الكبير المتعال الذي لا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تضره معصية من عصاه حاور إبليس وترك له حرية الفكر ولم يقمعه في فكره، بل بيّن له خطأه وعاقبه على اختياره لم يبادره بالخطاب اخرج ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بل بدأ معه بالحوار.

قال لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[٣] ثم سمح له بإجابته مع عدم وجود نسبة بين علو الإله ودنو المخلوق المخاطب، ثم استعمل هذا المخلوق المسكين لغة التفاخر قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[٤]. إلى آخر الخطاب الحواري الذي نقلت جزءاً منه لأبيّن للقارئ الكريم حرية الفرد في التفكير وأحقيته في اختيار فكره حتى لو كان خاطئاً وإن كان يحق لغيره شيئاً فهو توجيهه نحو الفكر السليم لا قمعه ولا التدخل في فكره ولا إسقاط الفكر عليه بقوة المال أو السلطان أو القداسات المصطنعة والآراء المبتدعة والشعائر المخترعة التي ألبست لباس الدين...

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٧٥.

(٣) سورة ص، الآية: ٧٦.

خاتمة

إن علينا أن نحترم الإنسان في كل حقوقه لأنه خليفة الله على الأرض لأن الله تعالى فضله وكرمه على سائر مخلوقاته وأن كل ما يقوم به أكثر الناس من الاعتداء على بني جنسهم مناف تماماً لهذا التكريم الإلهي، والجرائم التي ترتكب بحق الإنسانية وخصوصاً بحق الضعفاء منهم من الأطفال والنساء والعجز أعطت أبشع صورة وحشية لعدم احترام حقهم في الحياة والاعتداء على تكريم الله تعالى لهم، لذلك كان النبي ﷺ يؤكد على تكريم الإنسان وتفضيله على الملائكة، بل هو أكرم شيء على خالقه قال ﷺ: «**ما من شيء أكرم على الله من ابن آدم قيل: يا رسول الله ولا الملائكة؟ قال ﷺ: الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر**»[1].

ولذلك نجد أن حكماً إلهياً في القرآن لم يسع أحد من المسلمين منذ التاريخ إلى تطبيقه بأن تجد المجتمعات والدول والأحياء والمناطق وما إلى ذلك لإيجاد صيغة للصلح بينهما لتتعايش بسلام وتحفظ أمن بعضها وتمنع الاعتداء على الضعفاء قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[2] فأين هذا السلم والصلح والسلام؟ وأين الساعون لإيجاده بين المسلمين؟

---

(١) ميزان الحكمة: ج١، ص٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

الحرية المنشودة على ضوء القرآن والسنة

إن مفهوم الحرية الذي يستبطن الاستقلالية في كل شيء يقابله مفهوم العبودية والرضوخ لكل أمر لا يملك الإنسان فيه حرية الاختيار، فالإنسان الحر هو الذي يملك أمره في أحقية اختيار العقيدة أو الفكر أو الخط السياسي وما إليه مما يرتبط بشؤونه الحياتية أو الأخروية، وهذه الحرية نابعة من خلال رفضه للاستعباد وأشكاله مما ينطلق به الأقوياء ليفرضوا على الضعفاء ما يريدون من خلال الضغوط المادية أو الأمنية أو غيرها، ونحن هنا لا بدّ أن نتعرض إلى معاني الحرية في أهم العناوين الجامعة لحياة الإنسان.

الحرية في جميع الأحوال:

إن من أروع مفاهيم الحرية التي جسدت في تاريخ الإنسان ما قام به أبو عبد الله الحسين عليه السلام في رفضه لكل أشكال الاستعباد والانحطاط الخلقي والديني والسياسي المتمثّل ببزيد وأعوانه مما جعله ثائراً مع ضعفه بالمقاييس الدنيوية فكان شعاره المشهور... «**ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة وهيهات منا الذلة...**».

فاختار السيف والقتل واعتبر قتله في حريته مقدمة على حياته في عبوديته وذلته لذلك عبّر عن حريته تلك بقوله: «**إني لا أرى الموت إلا سعادة**» ـ لأن فيها حريته ـ «**والحياة مع الظالمين إلا برماً**»، ومهما تداعت مشاكل الحياة على الإنسان وتعسرت

أموره يبقى له إن كان حراً حرية فكره وإرادته التي إن سلبت منه فلا قيمة لحياته ولذلك كل ما يمارس على الناس من إرهاب عسكري أو فكري أو عقائدي ديني أو غير ديني أو إرهاب أمني يكون الإنسان الحر في مقابله حراً فلا ينكسر ولا يرضخ مهما عانى وقاسى وينسجم مع فكره وعقيدته واختياره لأنه إن خالف حريته ورضخ أمام الضغوط يكون قد باع مواقفه، وعاش العزلة والغربة وعدم الانسجام مع نفسه لأنه يخالف حريته في اختيار موقفه وهذه من أقسى أنواع الغربة، أي الغربة مع الذات لعدم الانسجام بين الفكر وما يطبق.

إلا اللهم إن قلنا بأنه قد ماتت إرادته وضميره وحريته أضحت عبودية ورقاً يسري في دمه وهؤلاء كثر، ومن أروع مفاهيم الحرية التي تظهر حرية الاختيار وعدم الانكسار ما ورد عن الصادق عليه السلام قوله: «**إن الحر حرٌّ على جميع أحواله إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداعت عليه المصائب لم تكسره وإن أسر وقهر واستبدل باليسر عسراً كما كان يوسف الصديق الأمين لم يضرر حريته إن استعبد وقهر وأسر**» انتهى.

هذا الحديث الرائع والمفهوم الصادق المميز يعطينا أسلوباً ومنهجاً في الحياة للإنسان الحرّ الذي يتحمل الصعاب المادية أمام من يحاربه في لقمة عيشه ليستعبده، وأمام من يحاربه في عقيدته ليكون مستعداً للموت في مقابل التنازل عنها، وأمام حرية موقفه ليسجن ويظلم جراء ذلك، فالحرّ هو الذي يتحمّل كل المآسي وألوان الحرب وإن اجتمعت عليه الدنيا لأن الآخرين ربما يملكون أن يقتلوك أو يسجنوك ويمنعوك معيشتك أو أن يعذبوك أو يطلقوا الإشاعات لإسقاطك وهدم مروءتك بين الناس لكنهم لا يملكون أن يسيطروا على عقلك منبع الحرية في مواقفك وأظنني أجد هؤلاء قلة في هذا الزمن الذي كثُرت فيه الضغوط وكثُر فيه المسحوقون والمتساقطون، وهناك كلمة عبّر عنها فولتير الفرنسي بما معناه أن الذين هم قادرون على أن يسيطروا على عقلك قادرون على جعلك ترتكب الفظائع في الحياة.

إن من أخطر مفاهيم الاستعباد السيطرة على العقل فلا يملك حرية التفكير وما أكثر من يصنع الفظائع في الحياة باسم الحرية والإنسانية والدين وغير ذلك مما

سيطروا به على العقول، لذا فإن الحرّ حرّ ولو مسه الضر والعبد عبد وإن ساعده القدر كما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**الحرّ لا تملك أمره وإن وضعته في قفص، والعبد عبد وإن أطلقته في ميادين الحرية**».

الأصل في الإنسان الحرية:

عندما خلق الله عز وجل الإنسان خلقه حراً غير مستعبد لأحد من أقرانه وأمثاله أو لأي شيء في هذا الكون، وإنما لم يخلق عبداً لكي يعيش حريته في عدم السقوط أمام التأثيرات ولكي لا يكون أسيراً أمام الأهواء والملذات، لذا ورد عن الأمير عليه السلام: «**أيها الناس إن آدم لم يلد عبداً ولا أمة وإن الناس كلهم أحرار**» وهذا يعطينا فكرة وهي عدم استرقاق الإنسان لحرية أصله، وإن على الإنسان الذي ولد حراً أن يمارس حريته في رفض أشكال الاستعباد أمام الآخرين ورفض الاستعباد أمام ملذات نفسه وشهواتها لأن الإنسان قد يتحول إلى عبد لنفسه ولأطماعه وميوله وهذا مستفيض في الأحاديث والآيات قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1] ـ أي أصبح عبداً لهواه، وفي رواية الأمير عليه السلام: «**لا يسترقنك الطمع وقد جعلك الله حراً**»، أو قوله عليه السلام: «**من ترك الشهوات كان حراً**» وغير ذلك مما يدل على أن الإنسان ينبغي أن يعيش حريته أمام نفسه فلا يكن عبداً لها وأمام الآخرين فلا يكن عبداً لهم لأنه ولد في الأصل حراً فعليه ممارسة هذه الحرية في كل حياته.

لذا ورد في الحديث عن الأمير عليه السلام: «**لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً...**».

المؤمن لا يذل نفسه:

وعلى ضوء ما تقدم من أن الله تعالى خلق الإنسان حينما خلقه حراً فإن الإنسان لا يملك في هذا الجانب حرية أن يذل نفسه ويجعلها مستعبدة للآخرين.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

إن قلت: مقتضى الحرية أن يملك الحرية في إذلال نفسه قلت: هذا كما ترى بطلانه معه لأن الحرية والذل أمران متضادان لا يمكن أن يجتمعا.

وعليه ليس له حرية إذلال نفسه لذلك تجد إمامنا الصادق عليه السلام يعطينا مفهوماً رائعاً آخر في الحرية يقول: «**إن الله تبارك وتعالى فوض إلى المؤمن كل شيء إلا إذلاله لنفسه**».

وفي رواية مثلها: «**إن الله تعالى فوض إلى المؤمن أموره كلها ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً، إن الله يقول:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]».

أي معنى أسمى من هذا المعنى في أنك لا تملك حرية إذلال نفسك ولم يسلطك الله على ذلك، بل فرض عليك أن تكون حراً وأرادك أن تختار طريق الحرية بالجبر لا بالتفويض كما في باقي أمورك لأنه بعد اختيارك الإيمان أعطاك العزة التي وصف بها نفسه والتي لا تجتمع مع الذل مطلقاً.

ورفض رسول الله صلى الله عليه وآله الذين يذلون أنفسهم من أن ينتسبوا إليه بقوله: «**من أقر بالذل ليس منا أهل البيت**».

حرية اختيار العقيدة:

من ناحية المبدأ وفي الظروف الطبيعية لا يسمح الإسلام للكافر بالحرية، ولكن لا يجبره بالقوة على تبني منظومته الفكرية، وذلك لعدم قابلية المحل حيث إن الاعتقاد أمر قلبي يستحيل الإكراه عليه، وعدم قابلية الدين للإكراه من حيث هو فكر، من الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى المزيد من التوضيح والاهتمام، والنبي صلى الله عليه وآله كان يدعو بالحجة والبرهان والحكمة والموعظة الحسنة، والرشد الواضح مقابل الغي الواضح ويترك المجال لتحمّل المسؤولية من موقع الإرادة السلبية أو الإيجابية.. وهذا ما يخدم الدين أكثر مما يخدمه الإكراه ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[١]: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[٢] نعم الإسلام يمنع من ممارسة الفرد من ناحية عملية شأنه في ذلك شأن أي نظام عالمي يحفظ وجوده وكيانه ونفوذه على أرضه وقاعدته ومصالحه ويعتبر التحرك بما يضاد ذلك خطراً يهدد الوجود بكافة شؤونه لذلك لا يسمح به بل يحاربه ويعاقب عليه عند مخالفة القوانين المرعية.

في الحديث السابق ورد في قول الصادق عليه السلام: «**إن الله فوض للمؤمن أموره كلها، يبقى سؤال هل يحق للإنسان في أن يختار العقيدة التي يريد أو لا؟**».

الأصل فيما تقتضيه طبيعة الأمور أن يكون الإنسان حراً في اختيار أي عقيدة يريد وليس لأحد السيطرة على تفكيره ليجعل عليه القيود، بل إن لعقله الحرية في التفكير ملياً وإقامة الأدلة والبراهين لاختيار معتقده وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[٣] ومن قوله في سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[٤]..

فالله تعالى لم يجعل لأحد سلطة على أحد بحيث يلزمه حتى بالدين القيم الذي أنزله الله على رسوله صلى الله عليه وآله فأرشده إلى عدم إكراه أحد على اختيار الدين الإسلامي ورفع له السلطة عن ذلك فلم يجعله مسلطاً على تفكيرهم لكي يكون مكرهاً لهم في اختيار الإسلام، وهذا ما نستفيده من الأحاديث الكثيرة كما في الحديث الذي أوردناه في أول البحث حيث يدل على أن الإنسان مفوض في اختيار العقيدة. قد يقال أن ترك الاختيار للعبد في العقيدة قد يستلزم منه الوقوع في اختيار عقيدة منحرفة.

قلت أولاً وثانياً وثالثاً: فاسدة.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

(٢) سورة يونس، الآية: ٩٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

(٤) سورة الغاشية، الآيتان: ٢١ ـ ٢٢.

أولاً: إن التفكير السليم المنطلق من قواعد عقلية سليمة وبحث موضوعي مبني على مقدمات سليمة لا يمكن إلا أن يؤدي إلى اختيار العقيدة الصحيحة لأنها توافق العقل والفطرة ولا تنافيهما.

وثانياً: صحيح أن المولى عز وجل فوض إلى عبده اختيار العقيدة التي يريد إلا أنه فرض عليه تحمّل النتائج، فمن الطبيعي جداً أن يتحمل الإنسان نتائج تصرفاته في أي أمر من الأمور وكذا في العقيدة فإذا انحرف واختار ما يوافق الهوى لا ما يوافق العقل السليم فعليه تحمّل نتائج وآثار اختياره. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[1].

ثالثاً: بعد تبيان العقيدة وإرسال الرسل بالأدلة والبراهين والتي لا يمكن لأي عقل أو تفكير أن يرفضها لا بدّ من التزام عقيدتهم والسير على مسالكهم والنتيجة هي الطاعة لله الذي خلق الكون وما فيه وهذه العبادة المنطلقة من خلال المعرفة للخالق عبر الأدلة والبراهين هي من أفضل أنواع العبادة حيث اتسم بها الأديب والعالم والمفكر الأول بعد رسول الله ﷺ وهو أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «**إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار وهي أفضل العبادة**»، فالذي يطلع على أسرار الكون وآياته وحسن تدبيره وعظيم تنظيمه وكثرة دلائله لا بدّ أن يقر له بالربوبية وأن يصل إلى اختيار عقيدة العبودية التي توصله إلى الشكر لهذا الخالق عبر الالتزام بأوامره على قاعدة: معنى أن تكون عبداً لله أن تكون حراً أمام العالم، وعليه تكون الحرية في الطاعة والعبادة لله وحده لأن حقيقة العبادة هنا الحرية.

وأما المعصية لله وعدم طاعته تكون فيها العبودية للهوى أو الخضوع أمام النفس وشهواتها وليست هذه في الحقيقة حرية فما ينشد في العالم من حرية الإنسان على

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ـ ٨.

الإطلاق ليست في محلها، فللحرية حدٌّ ينتهي عند حرية الآخر وكذا للحرية حدّ ينتهي عند عبوديتك لنفسك فالذي يختار المعصية هو في الواقع ليس حراً وإنما هو عبد لتلك المعصية، والحر هو الرافض لها لأن في المعصية مفسدة حتى لو اختارها تحمّل نتائجها وعليه أن يعلم أن حريته في فعل أي شيء لا تسمح له بإزعاج الآخر بها أو التأثير على الغير من خلال حريته.

هنا يأتي سؤال مهم هل الحرية (أو ما يسمى بالليبرالية) تعني التحرر المطلق من كل القيود وأشكال الدكتاتورية في شتى المجالات؟

وللإجابة على السؤال لا بدّ أن نطرح العنوان التالي: ممارسة الحرية الفكرية ـ وحدودها.

الحرية الفكرية:

إن من حق الإنسان أن يفكر في كل شيء من دون أية قيود على تفكيره وليس من حق أحد أن يصادر حرية تفكيره في شتى القضايا حتى العقائدية منها، ولذلك نرى علماء الكلام فرضوا المستحيل حيث جعلوا الإمكانية العقلية بفرض وجود شريك للباري ثم قاموا بعد ذلك بدحض هذه المقولة بالأدلة والبراهين ـ ونرى أن المولى عز وجل أطلق العنان لعقل الإنسان في أن يفكر بحرية فيما حوله وقد ورد في عدة آيات الحث على التفكر في خلق السماوات والأرض وما حوت من عجائب وعلوم كما في قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[1].

بل ذم المولى الجليل كل من لا يستعمل عقله بحرية من أجل الوصول إلى الحقيقة ومن يؤجر عقله للآخرين ليفكروا به فيدع من هم أقوى منه سلطة وتجبراً أن يفكروا عنه وتجده دائماً يردد كلماتهم ويعتبرها من القداسة بمكان من دون أن يفهمها

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

وليس هذا الإجراء سوى الاستعباد الفكري الذي مورس عليه، وهؤلاء ذكرهم المولى عز وجل بقوله: ﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ لأنهم لم يمارسوا حرية الفكر وأحقية كل إنسان في أن يفكر.

ومحل الكلام أن للإنسان حرية رفض المقدسات المصنوعة من قبل البشر ورفضها بأسس علمية إذا تبيّن خطأ مستندها سواء كانت هذه المقدسات فرضت من قبل قيميين على الدين أو على الدنيا على مستوى العقيدة أو المجتمع أو غير ذلك مما جعلت له قداسة بحيث لو حاول أي إنسان أن يفكر أو يناقش لنزل عليه الغضب من كل حدب وصوب واتهم في دينه وعقله وشخصيته، أين حرية الكلمة والفكر؟ لماذا لا يرد الفكر بالفكر والعقل بالعقل؟ لماذا لا توجد أرضية لإدارة الحوار بين أهل العلم والفكر مع أننا نعلم أن الله تعالى حاور إبليس في كتابه وترك له حرية الاختيار مع تحمل النتائج كما أشرنا إلى ذلك في الحلقة الأولى وعلم رسوله أن يحاور المشركين: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ودعا إلى محاورة أهل الكتاب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[2].

هذا كله يعني شيئاً واحداً أن للإنسان الحرية في أن يفكر ويختار ويصل إلى النتيجة التي يريد بل لك أن تجادله بالتي هي أحسن. أما ما يمارس اليوم علينا نحن بعض أهل العلم المتنورين بالقرآن والسنّة الصحيحة أو المتبنين لآراء تنويرية هو دكتاتورية باسم الدين بكل معنى التسلط التي قد لا نجدها عند الأنظمة الديمقراطية أو الليبرالية.

هل للحرية حدود أو لا؟

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

قلنا: إنه لا حدود على مستوى الفكر للحرية فهي مفتوحة ما دامت ضمن القواعد والضوابط العلمية إلا فيما لم يكن أهلاً لذلك، أما على مستوى التطبيق العملي لحرية الفرد فإن لها حدوداً يفرض العقل الحر الالتزام بها فأنت عندما تسكن مثلاً ضمن مجتمع ذي أعراف وتقاليد معينة لا تخالف دينك مثلاً ولكن تخالف هواك، يفرض العقل عليك حينذاك أن تحترم قوانين وعادات هذه المنطقة أو تلك لأن حريتك تنتهي عند بدء حرية الآخر لذلك جعل الإسلام نظاماً مثلاً لأهل الذمة ممن هم ليسوا مسلمين ويحللون بعض ما حرم الإسلام فيفرض عليهم احترام قانون الإسلام ويعطيهم الحرية في تطبيق شعائرهم ومباحاتهم فيما لا ينافي الجو العام.

وللإنسان الحرية في أن يمارس أي شيء يريده شرط أن لا يسيء فيما يمارسه إلى الآخر كما إذا أراد مثلاً أن يستمع إلى القرآن أو إلى شيء آخر فلا يمكن له رفع الصوت بشكل يزعج الآخرين لأن حدود حريته تنتهي عند حدود حرية الآخر.

الحرية أمام الأعداء:

من مفردات الحرية الثبات في الموقف الذي يعني المراتب العليا من السلوك العملي لجهة الإحساس الداخلي للفرد بأنه يملك ترجمة ما يختزنه في داخله عملاً وسلوكاً وليس على المستوى النظري بحيث ينحصر بما يفكر ويطمح إليه وتتوق نفسه إليه، بل أن يكون منسجماً تمام الانسجام مع ما يفكر به وما يقوم به من فعل، أو تطبيق رؤيته التي في نظره تمثل الحقيقة دون الشعور بالإكراه أو الضغوط المختلفة التي يمارسها المضطهدون لخوفهم من بروز الحقيقة والحق على يد من يملك القوة والعزيمة والشجاعة.

وهذه الحالة من الصراع والمواجهة لم تكن مقتصرة في يوم من الأيام في تاريخ البشرية في مكان ما أو زمان ما، بل كانت على مدى هذه الأزمنة المتمادية، ذلك الصراع الذي يعتمد في أساسه على فرض الهيمنة واستضعاف الناس وإخضاعهم وسلب حريتهم واستعبادهم وجعلهم على هامش الحياة، كل

ذلك لأجل تحقيق الأطماع والرغبات والحسابات الشخصية الرخيصة البعيدة عن كل القيم الإنسانية والدينية.

والتاريخ يعطينا النماذج الحية التي تجسّد لنا حالة القوة والثبات في العيش بحرية على كل المستويات.. فبإمكان المنسلخ عن إنسانيته التحول إلى وحش بصورة إنسان أن يمارس كل الأشكال الظاهرية للضغط والقمع والتعذيب الجسدي، وخنق صوت الحق أو التضييق عليه، لكنه لا يستطيع قمع حرية الداخل بما تفيض به من حالة القوة الروحية والعنفوان في مواجهة الظلم. كما حصل تماماً مع آسية بنت مزاحم زوجة فرعون التي عاشت الإيمان والعبودية لله لكن بخضوع وخشوع بصورة رائعة، ورفضت كل زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها، واحتقرت زوجها وملكه وماله وسلطانه، لأنها لم تكن تمثل عندها السعادة التي تطمح إليها، وواجهت ضروب المحن والضغوط النفسية والجسدية وليس ذلك إلا لأنها عاشت الحرية بمعانيها السامية بعيداً عن كل أجواء الضعف والسقوط متوكلة على الله، ومن توكل عليه ولاذ بجنابه وأخذ بأسباب الحقيقة التي توصل إلى الحياة العزيزة الكريمة فقد حقق في ذاته جوهر الحرية.

القوة تكمن في الإيمان الراسخ:

تتجسد الصورة التي توحي بالقوة من قاعدة الإيمان، فتهزم بروحيتها كل أساليب التخويف والترهيب ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[1]، وقد أراد الله للمسلمين أن يأخذوا بأسباب القوة انطلاقاً من قاعدة الإيمان بالله والتوكل عليه، فلا يهنوا ولا يتراجعوا عن

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

مواقفهم أمام جموع الترهيب التي تريد أن تنال من عزيمتهم وتضعفهم، أمام حجم التحديات في حلبة الصراع الدائم بين الحق والباطل، فيقبلون بالتسويات التي يأخذ فيها الإيمان حصة ليأخذ الشرك في مقابلها حصة.. والذين يتساهلون في بعض المواقف الحيوية تحت تأثير عامل الخوف يتساهلون في القضايا والمواقف الأخرى للسبب نفسه في حالة أخرى.. والذي يعيش الإيمان يشعر بعميق القوة من خلال الشعور بالانتماء إلى الله القوي القادر. والاعتماد عليه واللجوء إليه في حالات التحدي بالمستوى الذي يملأ نفسه بالقوة، ويفرغ داخله من كل مشاعر الضعف التي تهزم مواقفه... وبذلك يزداد إيماناً في فكره وشعوره، لأن التجربة الصعبة لدى الواعين من المؤمنين لا تضعف الإيمان بل تنميه وتقويه، وتربطه بالأسس الثابتة التي ارتكز عليها وانطلق منها..

إن التحديات الكافرة كلما كبرت كلما أصبحت دليلاً جديداً على مستوى الخطورة التي تمثلها حركة الإيمان ضد الكفر، مما يمنح المؤمن شعوراً بقوة الموقف في قوة الايمان، لأن رد الفعل في حركة الكفر في ما يمثله من أساليب العدوان لا يدل على قوة الموقف، بل يوحي بحالة الضعف التي تدفع إلى التشنج والانفعال العدواني «**الذي لن يهز من عزيمة المؤمن الراسخ الإيمان، الذي اختار الارتباط بالقوة المطلقة لله ولم يخضع للمحدود، وتابع الطريق واستشعر بالقوة المتجددة بقدر ما يتجدد الإيمان في ذاته وعميق نفسه**»[1].

وهكذا يلتمس في نفسه ومن موقعه الذي يفرض عليه أن يكون بمستوى التحدي في مواجهة الأعداء. وإذا كان الحديث عن معنى الحرية في الموقف بما يتراءى للفرد من أن ما يفكر به ويعمل على إحقاقه هو مصلحة عامة عليا، بعد الفراغ عن كل نظرة شخصية ضيقة وحسابات مادية خاصة، وهذا ليس تنظيراً من الشريعة وإن قل سالكو هذا الاتجاه، فالخلل حينئذ يكمن في النوازع الذاتية للإنسان، فلأنه يعود

---

(١) آية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله: من وحي القرآن، ج٦.

بالنفع على الأمة، ولمصلحة اجتماعية يضحي بها الإنسان، حتى لو كانت في بعض تفاصيلها على حسابه ومن حريته الشخصية، أعني أن في داخل المجتمع المتدين قد تختلف في تشخيص المصالح والمفاسد والحدود التي تقيد من الحرية بعض الشيء. لكن الخطورة تكمن في عملية الاحتكار والمجاهرة بأن الحقيقة ملكي أو ملك آخر، وهذا غير صحيح وفيه ما فيه من التعصب، فإعطاء الفرصة، والنظر إلى الآخر باحترام على أساس الحوار مع الدليل والبرهان هو الذي يعطي النتائج الإيجابية على أساس القاعدة: قولي صحيح يحتمل الخطأ وقولك خطأ يحتمل الصواب. . .

نظرة إسلاميّة إلى القناعة

بسم الله الرحمن الرحيم

من الممدوح أن يكون للإنسان طموح وأهداف يسعى إلى تحقيقها في الحياة لأنه إن لم يكن لديه طموح فإنه يتحول إلى إنسان يائس تتجمد حركته عند حدود ضيقة لا تخدم حتى مصالحه الذاتية، وحتى يحقق الإنسان غاياته لا بدّ أن يدرسها ويبدأ بها خطوة خطوة على حسب إمكانياته، فالذي يريد أن يحصل على الشهادة لا بدّ وأن يدرس مدة زمنية ثم يخضع لامتحان ليحصل عليها وهكذا في التجارة وغيرها (لأن لكل شيء بحسب طبيعته حاجة إلى أجزائه ومدة زمنية وما إليه حتى يتحقق) والإسلام يحث الإنسان على السعي للوصول إلى الهدف المنشود، هذا وقد لا يتحقق هدف الإنسان في كثير من الأحيان فيصطدم بالفشل مما يجعله يختار الطرق غير المشروعة لتحقيق أهدافه، فالإنسان مثلاً إذا لم يحصل على الربح السريع في تجارته فإنه يستعمل طرق الغش والخداع ليحصل على ما يريد، ونرى في مجتمعاتنا آفات كثيرة من هذا القبيل لا يمكن علاجها إلا إذا تحلى الإنسان بالقناعة والكفاف عما في أيدي الناس وقد أولى الإسلام اهتماماً لهذا الجانب حتى يعيش الإنسان التوازن في طموحاته ويحيا الحياة الطيبة الهنيئة الخالية من الحرام، فهذا مولانا الأمير عليه السلام يفسر قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

قال: «**الحياة الطيبة هي القناعة، وقال**عليه السلام: **طوبى لمن ذكر المعاد وعمل للحساب وقنع بالكفاف ورضي عن الله**»... وهاهنا عناوين.

القناعة في الأسرة:

ينبغي أن تربى الأُسر على مفهوم القناعة لأنه يحقق لها نوعاً من الاستقرار، فإذا كثرت متطلبات الزوجة والأولاد وأخذوا يقيسون أنفسهم بمن هم فوقهم على المستوى المادي فإنهم يرهقون رب هذه الأسرة مما يدفعه لأجل تحقيق رغباتهم ـ إذا لم يكن ذا قدرة مادية ـ إلى سرقة أموال الناس والاعتداء على أملاكهم حتى يلبي حاجاتهم خصوصاً الأسرة في لبنان التي غالباً ما تعيش نوعاً من البطر الذي يوقعها في الضيق، فمثلاً كل فرد في الأسرة لا بدّ أن يكون لديه جهاز خلوي وسيارة ولا بدّ أن يبدل ملابسه عند كل موسم ومع كل موضة جديدة هذا ناهيك عن تبذير الأموال في السهرات الترفيهية وغيرها والعائلة التي تفعل هذه الأمور لا بدّ أن تتمثل بها العائلات الأُخرى التي تتصل بها بقرابة أو صداقة وغالباً ما يدخلون في كل أمر يعرض عليهم حتى ولو كان خيانة لبلدهم وأمتهم من أجل أن يحصلوا على المال ليعيشوا هذا النمط من الحياة.

ولذلك على الإنسان أن يرضى بما قُسم له من العيش حتى لا يخسر آخرته ويعيش الراحة والتوازن في دنياه وهذا مولانا الصادقعليه السلام يقول: «**فعلمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت نفسي**» ويعلمنا إمامنا زين العابدينعليه السلام في دعاء السحر بقوله: «**ورضني من العيش بما قسمت لي**»... وقد وصف مولانا الأميرعليه السلام الذين يعيشون عدم القناعة بقوله: «**لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل.. يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع**».

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

القناعة على مستوى العمل:

القناعة هنا لا بدّ أن تتحرك في حدود ما قسم الله لك من الرزق لا أن تكبح جموح الطموح عندك، بل لا بدّ أن يبقى لديك الطموح في العمل لتطويره وتفعيله دائماً نحو الأحسن والأفضل، وقد حث الإسلام على ذلك فمولانا الأمير عليه السلام من حكمه الرائعة ذات المنهج في الحياة قوله عليه السلام: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**». فالعمل ينبغي أن لا يتوقف من أجل استمرار عجلة الحياة وتطويرها نحو الأفضل لأن ذلك فيه استفادة عامة وإن كانت في بعض الأحيان المردودات المادية خاصة. إذاً هذا ليس موضع الكلام، فالمقصود أن يكون الإنسان قنوعاً في أعماله وتجارته وأن يرضى بما قسم له لأنه إذا أصيب بالطمع فإنه سيقع في مطبات كثيرة، ومخالفات كبيرة وقد رأينا في ساحتنا استخدام أبشع الأساليب للحصول على الربح السريع وليجمع ثروة من دون تعب كبير أصيب أصحابها بنكسات عظيمة.

لذلك كان يوصي أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**من قنعت نفسه أعانته على النزاهة والعفاف..**». فعدم التحلي بهذه الصفة يورث الطمع والجشع واستعمال الأساليب المنهي عنها للوصول إلى تلبية أطماعه التي ستكبر يوماً بعد يوم لأن الطماع مهما حصل من أطماعه فإنه يبقى في غير شبع. ولذلك وصف النبي صلى الله عليه وآله هؤلاء بشرار الناس بقوله صلى الله عليه وآله: «**خيار أمتي القانع وشرارهم الطامع**». وسينال من يحمل هذه الصفة الذم والقدح في الدارين كما يقول الشاعر:

فإنك مهما تعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

كيف تكسب القناعة؟

يمكن للإنسان أن يحصل على صفة القناعة بترويض نفسه على العفة، فمن عف فرجه وماله عن الحرام وترك الحرص على الدنيا وكسر نفسه بذكر الموت والآخرة واستعمل عقله في وزن الأمور ووضعها في نصابها استطاع أن يحصل على القناعة

ويتصف بها، لذا ورد هذا المعنى في كلام مولانا الأمير عليه السلام حيث قال: «**من عقل قنع**». وقوله: «**لن توجد القناعة حتى يفقد الحرص**». وبمقدار ما يستطيع الإنسان العمل على ترك الحرام والاستحصال على العفة بقدر ما يكون قنوعاً في حياته فقد ورد عن مولانا الأمير عليه السلام: «**على قدر العفة تكون القناعة**».

وإذا كانت صفة الحرص غالبة على الإنسان عليه أن يدفعها بالقناعة حتى يتخلص منها ومن آفاتها لأن الحرص يجعل الإنسان شحيحاً بخيلاً وذميم الأخلاق متكبراً لا يتحمل إعطاء أحد مناع للخير وما إلى ذلك ولا يمكن ترك الحرص إلا بالقناعة، لذا ورد عن إمامنا الباقر عليه السلام قوله: «**انزل ساحة القناعة باتقاء الحرص وادفع عظيم الحرص بإيثار القناعة**». ولا يكون ذلك إلا بمعرفة النفس والوقوف عند حدودها المفروضة عليها بمعرفة النفس يكمل العقل، وبكمال العقل تكون العفة، وبوجود العفة تحصل القناعة لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**ينبغي لمن عرف نفسه أن يلزم القناعة والعفة**».

القناعة كنز:

اعتبر الإسلام القناعة بمثابة الكنز والغنى الذي لا ينفد إذا عاشه المرء ليس ذلك إلّا من جهة أن الحاصل على المال والغنى يعيش حالة القلق دائماً من جهات عدة كيف يحمي ماله كيف ينمي ماله ويزيده، ثم يورثه صفات سلبية كثيرة منها أنه يعيش الطغيان في حياته والتعالي والتكبر على الناس. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[1] ثم يعيش البخل والخوف دائماً من نقصانه فيمنع الحقوق المفروضة لله والفقراء في ماله. أما من يتصف بالقناعة فإنه يعيش الراحة والتوازن في حياته فلا يخاف ولا يقلق ويرضى بما قسم له ويدير شؤونه على حسب ما رزق وهكذا، لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**القانع غني وإن جاع والحريص فقير وإن ملك**». وقال عليه السلام:

---

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

«**لا كنز أغنى من القناعة**». وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام: «**وضعت الغنى في القناعة وهم يطلبونه في كثرة المال فلا يجدونه**».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**القناعة مال لا ينفد**». يقول الشاعر:

ألم تر أن المرء طول حياته حريص على ما لا يزال يناسجه
كدود القز ينسج دائما فيهلك غمّا وسط ما هو ناسجه

فوائد القناعة:

وللقناعة فوائد عظيمة فيها تكون عزة النفس فلا يذلها بالطلب والنظر إلى ما في أيدي الناس، لذا قال الأمير عليه السلام: «**ثمرة القناعة العز**». ويصحح مسار حياته فلا يكون تعباً مجهداً في تحصيل ما فاته من الدنيا، لذا قال الإمام الحسن عليه السلام: «**القنوع راحة الأبدان**»، وأن يترك مداخل الحرام في أخذ مال الناس بالغش والتزوير والاحتيال فيعيش الراحة ويسأل الله الزيادة، لذا قال الأمير عليه السلام: «**من قنع لا يغتم**». لأنه لا يهتم لما عند الذين فوقه في المقدرة. وبذلك يحصل الإنسان على أجره الأخروي ويخفف عنه الحساب، لذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**اقنع بما أوتيته يخف عليك الحساب**»، وقد سئل مولانا الرضا عليه السلام عن القناعة فقال: «**القناعة تجتمع إلى صيانة النفس، وعز القدر وطرح مؤنة الاستكثار، والتعبد لأهل الدنيا**». وإن لم يكن إلا واحدة من هذه الصفات لكفى في السعي لاكتساب هذه الصفة.

توجيه:

ابدأ هذا التوجيه بكلام لمولانا الصادق عليه السلام وصية وحكمة ينبغي أن تكتب بماء الذهب، لأن من عمل بها حصل على السعادة حيث قال عليه السلام: «**انظر إلى من هو دونك ولا تنظر إلى من هو فوقك في المقدرة فإن ذلك أقنع لك بما قسم لك وأحرى أن تستوجب الزيادة من ربك**».

وإذا أخذنا بهذه الوصية وعملنا بها وفرنا على أسرنا ومجتمعاتنا الكثير من

المشاكل وخففنا من نسبة الطلاق، وكثيراً من المشاكل الزوجية لأننا نرى أن أكثر المشاكل الزوجية سببها عدم القناعة بما قسم، فالزوجة تنظر إلى جاراتها التي هن أرفع منها في المستوى المعيشي من لباس وزينة فترهق زوجها بمتطلباتها لتظهر أمامهن أنها بنفس المستوى وإن عجز الزوج عن ذلك أو رفض حصل ما لا يحمد عقباه، وهكذا إن نظر الرجل إلى من هو أرفع منه بالمقدرة من أقاربه أو الناس ويريد أن يصبح بمستواهم فيسلك الطرق المنحرفة ليحصل على مبتغاه حتى لا يكون أقل منهم شأناً، وهكذا الشباب والشابات الذين يعيشون الغيرة فيما بينهم في اللباس والزينة والسيارات وغيره مما يجعل مجتمعنا متخلفاً لا يعرف الواحد منهم حدوده ليقف عندها وأسراً مضطربة لا تعيش الاستقرار وما إلى ذلك، أما لو نظر كل واحد إلى من هو أقل منه مالاً ومقدرة فإنه يحمد الله على ما أعطاه وإذا حمد الله وشكره استوجب الزيادة من ربه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]. فالقناعة راحة وسعادة ومن لم يقنع بما أوتي من قليل الدنيا لا يغنيه من كثيرها ما يجمع لذا قال مولانا الصادق عليه السلام: «**اقنع بما قسم لك ولا تنظر إلى ما عند غيرك ولا تتمن ما لست نائله فإنه من قنع شبع ومن لم يقنع لم يشبع وخذ حظك من آخرتك**». والحمد لله رب العالمين.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

نظرة إسلامية إلى الإحسان

بسم الله الرحمن الرحيم

أحسنوا إن اللّه يحب المحسنين:

من المفاهيم الجميلة التي ركز عليها الإسلام مفهوم الإحسان، حيث إن الله تبارك وتعالى أراد للإنسان أن يأخذ به لأنه أحد طرق السعادة في الدارين، وحيث إن الإحسان أمرنا به على جميع المستويات الفكرية واللفظية والمعاملاتية بكل أشكالها وجعله تعالى عِدل العدل بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾[1] فخط العدل يأمر به العقل والشرع لأنه يعطي كل ذي حق حقه، والإحسان خط أرقى من حيث الاستعمال والتعاطي لأنه تنازل عن الحق أمام من ظلمك فتحسن إليه بالعفو.

والإحسان يعبر عن سجية ذاتية وصفة نفسانية تمتاز بها بعض الأنفس البشرية التي ابتعدت عن تنمية غرائز الشر فيها واتصلت بصاحب الصفة الأصلية المحسن المطلق لأنها في الأصل صفة إلهية للذات المقدسة التي جعلها مشتركة بينه وبين خلقه، لذا خاطبه إمامنا الصادق عليه السلام في دعائه: «**عادتك الإحسان إلى المسيئين**».

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

فالمحسن مهما أسيء إليه يبقى على إحسانه فيدفع بالتي هي أحسن. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على فضائل الإنسان الذي يمتاز بهذه الصفة جماله الداخلي الذي ينعكس إلى فعله الخارجي ولا يمكن أن يتصف بها من يعيش الحقد والكره والبغض في قلبه لأنها حينئذ صفات متضادة لا تجتمع مع بعضها بل ما يساوق الإحسان ويرفع تضاده هو صفة المحبة، فلا يصدر الإحسان إلا عن الذي يعيش الحب في قلبه وعقله، لذا قال الأمير عليه السلام: «**سبب المحبة الإحسان**». فالصفات الحميدة الحسنة لا تجتمع مع أضدادها بل بما كان من سنخها وجنسها. بعد هذه المقدمة ألفت النظر إلى بعض العناوين التي يندرج فيها الإحسان.

الإحسان في التعامل والعطاء:

نجد من خلال معاملات الناس مع بعضهم بدءاً بالأسرة وانتهاءً بالمجتمع بكل فئاته وطبقاته نجد تصادماً بين الأفراد لوجود اختلاف في الأفكار والمصالح أو غير ذلك مما يدفعهم إلى الإساءة لبعضهم البعض، وهنا جعل الله تعالى خطين للتعامل مع من يسيء اليك: خط قانوني يعطيك الحق في أن تبادل المعتدي بمثل الذي اعتدى عليك به، وخط سلوكي فتدفع إساءته بالإحسان إليه وهذا بالطبع أسمى من أن ترد له الإساءة بمثلها وإن كانت مشروعة. هذا على مستوى التعاطي في الكلام والأفعال إجمالاً، وهناك إحسان من نوع آخر وهو القيام بقضاء حوائج المحتاجين فتحسن إلى صاحب الحاجة لترفعها عنه فتبذل من مالك للفقراء والمساكين. وهناك إحسان من نوع ثالث وهو إقامة المشاريع الخيرية التي يحتاجها الناس كمشاريع رعاية الأيتام مساكن لتزويج الشباب وبالجملة كل فعل خير تقوم به من كلمة حسنة ترد بها إساءة أو فعل حسن تساعد به المحتاج إليه أو أي شيء يخدم الأفراد والمجتمعات هو إحسان يحبه الله ويعطيه الأوسمة التي ترفع من شأن المحسن. فقد ورد مديح للمحسنين، فمولانا الأمير عليه السلام يقول: «**رأس الايمان الإحسان إلى الناس**». وقال أيضاً عليه السلام: «**صنائع الإحسان من فضائل الإنسان**» هذا كله في المعاملات.

الإحسان في العبادة:

وأما الإحسان في العبادات بأن تأتي بها أولاً بوجهها الصحيح ثم تحسن في صورتها وشكلها وأفعالها وأقوالها، فالإحسان في الصلاة مثلاً يبدأ بأن تحسن اللفظ بوجهه الصحيح وترتيله ثم تحسن الركوع والسجود وهكذا في كل الأمور العبادية، وهذا متوقف على دراسة فقهية لأحكام العبادات من جهة، ودراسة عامة لمفاهيم العبادات من جهة أخرى. ومنه يظهر أن أكثر الناس ليسوا محسنين في عباداتهم لأنهم مقصرون في العكوف على دراستها، لذا تأتي عبادة سطحية قليلة الأجر حتى لو كانت مع فرض صحتها مسقطة للتكليف، أما لو كان العبد محسناً في عبادته فإنه يضاعف له الأجر كثيراً، لذا روى عمر بن يزيد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إذا أحسن المؤمن عمله ضاعف الله عمله بكل حسنة سبعمائة.. فقلت له: وما الإحسان؟ فقال عليه السلام: إذا صليت فأحسن في ركوعك وسجودك وإذا صمت فتوق كل ما فيه فساد صومك وكل عمل تعمله لله فليكن نقياً من الدنس**».

أثر الإحسان على القلوب:

وإذا أردت أن تكسب قلوب الناس وحبهم لك وودّهم تجاهك وتكتسب الأصدقاء فما عليك سوى الإحسان إليهم، فإن من تحسن إليه بالمال تصبح أميره ويأسره إحسانك إليه، لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**الإنسان عبد الإحسان**». وإن أحسنت إلى الكرام بمجرد الكلام الجميل فإنك تستولي على قلوبهم وتكسب مودتهم واحترامهم فإنك إن لاقيت الناس بوجه بشوش وكلام طيب استوجبت تقديرهم لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**بالإحسان تملك القلوب**». وقال عليه السلام: «**ما استعبد الكرام بمثل الإكرام**». والإكرام من الإحسان. ولو أردنا أن نستعمل هذا الدواء الناجح لتخلصنا كثيراً من مشاكل زوجية وأسرية وفردية واجتماعية ولأزلنا أسباب الجريمة من مجتمعاتنا ولأصبح المجتمع مترابطاً متكافئاً يحسن بعضه إلى بعض ويوقر بعضه بعضاً، إننا نرى كثيراً من المفكرين يؤلفون الكتب حول كيفية كسب الأصدقاء وكيفية

معالجة المشاكل الزوجية وكيفية وضع القوانين الاجتماعية لحفظ التوازن في المجتمعات وأنا هنا أستطيع القول أن قانون الإحسان لو استعمله الناس لعاشوا قمة السعادة فيما بينهم فلا تجد عشائر أو أفراداً متقاتلة ولا جماعات معتدية أو غير ذلك والكل يحسن إلى الكل ولو بالكلام الطيب تتملك قلبه ويصبح أسير كلامك الطيب فلا يبادرك إلا بمثله لذا قال ﷺ: «**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها**».

أثر الإحسان على قلب المسيء:

إن من أساء إليك وبادرته أنت بالإحسان إليه لتسامحه على قوله أو تلاطفه في مجلسك وتكرمه فإن ذلك موجب لصلاحه وتغير نظرته تجاهك فلا يكون منه إلا أن يسعى لطلب الصفح منك وتنقلب عداوته إلى مودة، فقد أخبرنا الله تعالى عن هذه النظرية في التعامل بقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[1]. وإذا كان حاقداً ولا يوزن الأمور بتعقل ربما يبقى على عداوته وحقده لخبث سريرته ودنس نفسه لكنك لن تغيظه حينئذ بشيء كما تغيظه بالإحسان إليه لأنه حينئذ يصبح بنظر الناس معتدياً وخسيساً أمام إحسانك، وقد حدثنا أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن إحسانك إلى من كادك من الأضداد والحساد لا غيظ عليهم من مواقع إساءتك فيهم وهو داع إلى صلاحهم**». بل على المؤمنين الذين يخافون الله أن يتصفوا بهذه الصفة الحسنة التي بحدّ ذاتها تعتبر دعوة إلى الله بإصلاح الآخرين فربما تعظهم ولا تصلحهم، أما عندما تدفع إساءتهم بالإحسان فإنك تصلحهم لذا ورد عنه عليه السلام: «**أصلح المسيء بحسن فعالك ودل على الخير بجميل مقالك**».

ثمرة الإحسان في الدنيا والآخرة:

والمحسن يجد ثمرة إحسانه في الدنيا قبل الآخرة فأقل ما يستفيده المحسن هو

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

دفع الزيادة في الإساءة من صاحبها وحتى لو قلنا: إن الإنسان لا يؤمن بالآخرة فهذه الصفة تنفعه من جهتين: الأولى ما ذكرناه. والثانية: يمدح بها بعد مماته فهذا عدي ابن حاتم الطائي يروي عن رسول الله ﷺ قوله: إن أباك أراد أمراً فأدركه يعني الذكر. وأصبح ذكره على كل لسان وتضرب الأمثال بكرمه وإحسانه إلى الضيف. ولذا ذكر القرآن الكريم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾[1]. هذا على صعيد الدنيا وحسنته فيها ما ذكرناه، أما على صعيد الآخرة فلو أراد بإحسانه وجه الله تعالى فإن الله مثيبه على إحسانه ويكفيه أن يشمله بحبه وعطفه ويكون معه كما في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2] وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3] فأي علامة أرفع من هذه وأي درجة أرقى وأي وسام يحمله الإنسان على جبينه لقاء إحسانه فيشمله بذلك لطف الله ورحمته ففي الدنيا خلوق محسن كريم وفي الآخرة يدنيه الله إليه لأن من يحبه الله يقربه منه ويضعه في درجات عليا؟!.

الإحسان في العلاقات:

وهي على قسمين عامة وخاصة، أما الخاصة فأفضلها وأحبها إلى الله تعالى الإحسان إلى الأرحام وبالأخص الوالدين فعليه دائماً أن يحسن إليهما حتى لو لم يصدر منهما اتجاهه إلا الإساءة بذا يجلب رضا الله عنه ويبعد سخطه عليه، وكثيراً ما نجد في حياتنا وهي الإساءة إلى الأبوين بالصراخ بوجههما تارة وضربهما أحياناً، وغصبهما حقوقهما ثالثة وتمني موتهما ليرثهما الأولاد وما إليه. وإذا كانت كلمة أف بوجههما توجب سخط الله تعالى فكيف بمثل هذه الأمور؟ ثم الإحسان إلى الأسرة للزوجة تارة وللأولاد أخرى فلا يشتمهم ولا يضربهم لمجرد أنه متعب أو متضايق ولا يحرمهم من حقوقهم المفروضة عليه وقد ذكرنا هذا في مقالات سابقة، ولكن

---

(١) سورة النحل، الآية: ٣٠.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٩٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

أقول هنا: إن استيعاب الأولاد والزوجة وغفران زلاتهم هو من الإحسان وكذا تربيتهم تربية صالحة والقيام بشؤونهم حتى البسمة في وجوههم.. وعلى مستوى العلاقة مع الناس فقد مرّ وأزيد أن البسمة في وجه أخيك المؤمن هي إحسان اليه فكيف إيجاد العذر له في خطئه معك أو دفعك إساءته بالإحسان إليه وما إلى ذلك وقد تحدثنا في حلقات سابقة حول علاقة المؤمن بأخيه. أقول: إن علينا بذل الإحسان فالعالم الباذل لعلمه هو محسن، وكذلك الباذل لماله وقوته في سبيل الله للدفاع عن الإسلام والمسلمين وكل عمل فيه خير فهو إحسان لعيال الله وأحب خلق الله إليه أنفعهم لعياله.

جحود الإحسان:

إنه لمنتهى الجحود والانحطاط السلوكي للإنسان أن يقابل الإحسان بالإساءة في الكلمة أو العمل أو العطاء للمحسن إليه فإن فعل ذلك استحق الحرمان من المحسن إليه في المرة المقبلة فيكون قد جنى على نفسه وربما على عياله وعقبه فهذا مولانا الأمير عليه السلام يقول: «**جحود الإحسان يوجب الحرمان**»، وليس هذا فقط بل يكون الجاحد للإحسان غير شاكر وممتن لمن أحسن إليه ومن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق فلا يعرف الجحود طريقاً في قلبه إلى شكر شيء لأنه يرى لنفسه الاستحقاق على الناس ومن فعل معه الخير إنما فعل واجباً عليه وهذه صفة المتكبرين، لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**جحود الإحسان يحدو على قبح الامتنان**».

تمام الإحسان:

بقيت نقطة وهي أن على المحسن أن يتمم إحسانه بعدم المنة لمن يحسن إليه لأنه إن منّ في إحسانه لا يستحق حينئذ الحسنة في الدنيا بمدحه وذكره بل تنقلب إلى ذمه والإساءة إليه ولا يستحق الثواب من الله يوم القيامة على فعله لأن الله لا يحب من يلحق صدقاته المادية والمعنوية بالمن والأذى فعليه أن يقوم بفعل الإحسان من

دون منة ومن دون انتظار الشكر ممن يحسن إليه وبذلك يكون قد فعل أمراً فأتمه ورحم الله امرأً عمل عملاً فأتمه لذا قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾[1]. . ، وقال مولانا الأمير عليه السلام: «**تمام الإحسان ترك المن به**».

توجيه: أيها القارئ العزيز ألا ترى معي أن الناس لو أخذوا بهذه التعاليم السامية لسعدوا في الدنيا والآخرة؟ ألا ترى أن السيئة خارجة على اللسان ومن الجوارح والحسنة تخرج من اللسان والجوارح فادفع بالتي هي أحسن لأن الإساءة تسقط صاحبها ويصبح أسير تبريرها ويغبن قائلها فلا يعدو حينئذ بنظر الناس إلا كونه شخصاً مسيئاً ينفر الناس منه لسوء معاملته وألفاظه وأعماله ويحاسب عليها؟ ألا ترى معي أن المحسن يجلب المحبة لنفسه من الآخرين ويكبر بينهم ويعظم شأنه وينظر اليه نظرة إجلال وإكبار لما يتصف به؟ لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**إنك إن أحسنت فنفسك تكرم وإليها تحسن، إنك إن أسأت فنفسك تمتهن وإياها تغبن**». والله تعالى يقول: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾[2] تعالوا إلى رحابة الإحسان، وسماحة الأخلاق بالإيمان، لنكسب محبة الإنسان، فنستحق الامتنان، ونحصل على درجات الديان.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٧.

نظرة إسلامية إلى الحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

من الصفات الأخلاقية التي ينبغي للإنسان التحلي بها ويربي نفسه عليها وينميها في داخله صفة الحياء هي بالأصل إحدى غرائز الخير التي فطر الله تعالى الإنسان عليها، ووجود الحياء في الإنسان يصقل شخصيته بآداب متنوعة تظهر في كلامه وحركاته وشكله الخارجي وتجعل أفعاله على ميزان الصحة، فلا تصدر منه أي حركة مائعة، أو تشبه بالجنس الآخر أو فعل منكر أو قبيح لأن حياءه وخجله يمنعه من ارتكاب ما ينكره العقل وينهى عنه الشرع ولا يسمح له بالقيام بذلك فلا يصدر منه إلا الجميل قولاً وفعلاً، لذا ورد عن الأمير ـ «**الحياء سبب كل جميل**» ـ وهناك حياء ممدوح ومطلوب كثيراً لأنه مصدر كل خير في الإنسان سواء في أخلاقه الداخلية أو أفعاله الخارجية قال الرسول ﷺ: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**» وله آثار خارجية متنوعة وهناك حياء مذموم وله آثار خارجية لا ينبغي أن تكون في الإنسان، لذلك سنورد الكلام تحت عناوين مستقلة لنعرف متى يكون الحياء مطلوباً ومتى يكون مذموماً وما هي الآثار الإيجابية والسلبية المترتبة على شخصية الإنسان؟ فنقول وبالله المستعان:

أولاً: الحياء الممدوح:

إن الحياء مطلوب في الإنسان وخصوصاً المؤمن لأنه يضبط حركته في الحياة

وفي تعامله مع الناس حتى في ارتباطه العبادي مع المولى عز وجل، فمع وجود الحياء عنده يتحقق الخجل والاستحياء من المولى عند وقوفه بين يديه في دعاء أو صلاة، وإذا تحقق منه الخجل تحقق الخشوع والخوف من مقام الربوبية في نفسه وهذا هو المطلوب في العبادة التي يؤديها المؤمن بين يدي ربه عز وجل، ثم إنه لو عرضت له معصية وكان وحيداً يستطيع فعلها من دون أن يراه أحد فإنه يشعر بالخجل والحياء لعلمه أن الله تعالى مراقبه فلا يقدم على المعصية، وأما في علاقاته مع الناس فيحوله الحياء إلى دراسة كل كلمة ينطق بها فيخرجها إذا كانت مناسبة، ويقلع عن البذاء والفحش الذي يسقطه من أعين الناس وأمام الله تعالى وكذا في أفعاله وحركاته، وبذلك تعلو درجته الإيمانية لذلك قال إمامنا الكاظم عليه السلام: «**الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة**» ـ واعتبر نبينا الأعظم محمد صلى الله عليه وآله أن أصل الأخلاق الإيمانية الإسلامية وجود صفة الحياء في من يحمل الإسلام ولذا قال: «**إن لكل دين خلقاً وإن خلق الإسلام الحياء**». وأما إمامنا الحسن عليه السلام فاعتبر أن الحياء صفة ملازمة للدين غير منفكة عنه ومن لم يستحصل على هذه الصفة في نفسه لا يعتبر من حملة الدين فقال: «**لا حياء لمن لا دين له**». فالذي لا يلتزم ديناً لا يرتدع عن فعل شيء لأن الذي يردعه هو حياؤه من الله عز وجل. وبمقدار ما يزيد الإنسان من هذه الصفة في نفسه بمقدار ما يحصل على درجة أعلى عند ربه عز وجل واحتراماً أكبر عند الناس من حوله، لذلك قال الأمير عليه السلام: «**كثرة حياء الرجل دليل على إيمانه**». فنكتشف أنه كلما كثر حياؤه عظم إيمانه وكلما قل حياؤه نقص إيمانه.

ثانياً: آثار الحياء الإيجابية:

ثم إن لصفة الحياء آثاراً كثيرة تنعكس على شخصية الإنسان فهي الرادع الأول للابتعاد عن المعاصي قال الأمير عليه السلام: «**الحياء يصد عن الفعل القبيح**» وتورث هذه الصفة صفة أخرى في النفس وهي العفة لأنه لا يقدم على إشباع نزواته الجنسية والمالية أو فقل: إنه يعف فرجه وفمه عن الحرام لأنه يستحي من الله عز وجل وهذا

ما نستوحيه من كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: «**سبب العفة الحياء**». وأورد لك حديثاً يعطينا فكرة عامة عن آثار هذه الصفة المهمة التي ينبغي التحلي بها فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أما الحياء فيتشعب منه اللين والرأفة، والمراقبة لله في السر والعلانية، والسلامة واجتناب الشر والبشاشة والسماحة والظفر وحسن الثناء على المرء في الناس. فهذا ما أصاب العاقل بالحياء فطوبى لمن قبل نصيحة الله وخاف فضحته**». لن أعلق على هذا الحديث لأنني لم أجد أبلغ وأوضح منه في المقام، لذا علينا التأمل فيه جيداً ثم الاتصاف بهذه الصفات التي تورث محبة الله تعالى للعبد ودنوه منه وقد عبّر إمامنا الباقر عليه السلام عن ذلك بقوله: «**إن الله يحب الحيي الحليم**». أي الذي يستحي من فعل القبيح.

ثالثاً: الحياء المذموم:

فإن قلت: إن الحياء ربما يمنع صاحبه من السؤال والاطلاع على شتى المعارف خصوصاً في القضايا الشرعية المتعلقة بالأمور الجنسية والطهارة وما إلى ذلك مما يوقعه في الخطأ جراء ذلك.

قلت: هذا النوع من الحياء مذموم وليس ممدوحاً لأن المطلوب في الحياء الذي يمنع من الوقوع في الخطأ ويورث الخوف من الله والسماحة والبشاشة بين الناس لا الحياء الذي يوقع فيه، لذا ورد النهي عن مثل هذا الحياء حيث قال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «**من رق وجهه رق علمه (أي قل علمه)، ومن قل علمه كثر خطؤه**» وهذا ليس مطلوباً لذلك اعتبر النبي صلى الله عليه وآله أن من لا يسأل ويكف عن التعلم حياءً يكون حياؤه حياء حمق لا حياء عقل فقال صلى الله عليه وآله: «**الحياء حياءان: حياء عقل وحياء حمق فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل**». فكلامنا في المقام عن الحياء الذي يزيد في العقل، يزن الأمور بميزان العلم ويعطي القوة في الإيمان ومنزلة عالية في الجنان لا الحياء الذي يوجب الوهن والضعف والجهل لذلك قال صلى الله عليه وآله في حديث آخر: «**الحياء على وجهين فمنه ضعف ومنه قوة وإسلام وإيمان**» وكلامنا من

قبيل الثاني الذي يحمل الحياء من الله فيراقبه في كل حالاته ويصبح قوياً في مواجهة كل الباطل، أما الذي يضعف ويوهن ويستحي من قول الحق وفعله مراعاة للآخرين فهذا مرفوض لذلك قال الأمير عليه السلام: «**من استحيا من قول الحق فهو الأحمق**».

رابعاً: آثار ترك الحياء:

إن سلبيات ترك الحياء كثيرة وموجبة لسقوط شخصية الإنسان لخسرانه السعادة في الدارين لأن من لا يستحي يصدر منه القول البذيء الفاحش والفعل القبيح المذموم، لذا اعتبر إمامنا الصادق عليه السلام أن البذاءة والفحش من النفاق، وإمامنا الكاظم اعتبر هذه الصفات صفات أهل النار حيث قال: «**الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة والبذاءة من الجفاء والجفاء في النار**». ومن لا يتصف بالحياء من الناس في تعاطيه معهم لا يمكن أن يستحي من الله في سره وعلانيته، لذلك ورد عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام «**من لم يستح من الناس لم يستح من الله سبحانه**». وإذا كان يرتكب المعاصي جهاراً أمام الملأ ولا يخجل من نفسه كيف يمكن أن يخجل في سره من معصية ربه جل ثناؤه؟ لذا الفاقد لهذه الصفة يمكن صدور أي فعل قبيح منه من دون فرق بين معصية أو معاملة دنيوية أو فحش في اللسان أو اعتداء على الأعراض أو نهب للأموال أو تعامل مع الأعداء أو غير ذلك من القبائح لذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لم يبق من أمثال الأنبياء إلا قول الناس: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**». وحينئذ أي خير يكون بهذا الإنسان وأي شخصية له خصوصاً إذا كبر وعلاه الشيب وتعوّد على فعل القبائح فعدمه خير من وجوده؟ لذا قال مولانا الإمام الصادق عليه السلام: «**من لم يستح من الغيب ويرعوي عند الشيب ويخش الله بظهر الغيب فلا خير فيه**».

الغاية من الحياء:

أيها القارئ الكريم إن الحياء مطلوب من المرأة والرجل بل ربما أكثر في المرأة لما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «**الحياء عشرة أجزاء فتسعة في النساء وواحدة في الرجال**»

لأن بذلك عفتها وصيانة نفسها وأجمل ما في المرأة من الصفات هي الحياء والعفة، لذا نرى أن العالم وخصوصاً من يدعي التحضر والتحرر للمرأة عندما فقد صفة الحياء نساءً ورجالاً أصبحت المرأة عنده سلعة للإعلان وعرضاً لأجسام وهتكاً لأعراض فكثرت من جراء ذلك الأعراض والأمراض النفسية والخلقية والبدنية أعاذنا الله منها. وانتشرت المفاسد واختلطت الأنساب وبيعت النطف وأصبح العرض رخيصاً وكل شيء مباحاً كل ذلك لترك الحياء والعفة الناتجة عنه تارة باسم المدنية وأخرى باسم التحرر وثالثة باسم حقوق المرأة والرجل، أيها الأعزاء إنما كانت غاية الحياء لأجل ستر الأعراض وعفة النساء والرجال فعلى الإنسان أن يخجل من نفسه عندما يظهر عورته أو يبدي سوأته أو قوله: من لم يستح من نفسه لا يبلغ غاية الحياء لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**أحسن الحياء استحياؤك من نفسك**» لأنك عندما تستحي من نفسك وتخجل بإظهار وإيذاء المساوئ منها فقد بلغت غاية الحياء المطلوب واستقيت رتبة الإيمان المنشود وعلو المقام المحمود. واستح إن استطعت من كل شيء إلا من طلب العلم لأن من ألقى جلباب الحياء عنه لا غيبة له كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيفتضح أمره في الدنيا ويصبح عرضة لكلام الناس عليه والفضيحة الكبرى على رؤوس الأشهاد يوم القيامة. ولا تستح من فعل ثلاثة أمور: أن تكرم الضيف وتقوم في مجلسك لأبيك ومعلمك.

الحياء من اللّه عز وجل:

واعلم رعاك الله أن أفضل مراتب الحياء هو من الله عز وجل وشعورك الدائم بأنه القريب منك وصاحب القدرة المطلقة على الخلق وعليك، لذا علمنا الإمام زين العابدين عليه السلام ذلك بقوله: «**خف الله لقدرته عليك واستح منه لقربه منك**». وهناك أناس يستحون من فعل القبائح أمام الناس حتى لا يعايرونهم بها خجلاً منهم والأجدى بنا أن نخاف الله في سرنا لأنه المطلع على سرائرنا وهو أقرب إلينا من حبل الوريد وهو معنا أينما كنا، لذا جاءت تعاليم أئمتنا عليهم السلام في أدعيتهم ومناجاتهم

كيف نشعر بالخجل في سرنا مع الله عز وجل لأننا المتجرئون عليه ففي دعاء السحر للإمام زين العابدين عليه السلام فقرة يقول فيها: «**أنا الذي لم أستحيك في الخلاء أنا صاحب الدواهي العظمى أنا الذي على سيده اجتراء إلخ**». وهذا إمامنا الكاظم عليه السلام يعلمنا كيف نستحي الله بقوله: «**استحيوا من الله في سرائركم كما تستحيون من الناس في علانيتكم**». وأفضل أنواع الحياء وأعلى درجاته هو الحياء من الله عز وجل لذا قال الأمير عليه السلام: «**أفضل الحياء استحياؤك من الله**». وهذا الحياء من الله عز وجل يحط الذنوب ويزيل الخطايا لذا قال عليه السلام: «**الحياء من الله يمحو كثيراً من الخطايا**».

حق الحياء:

وإذا أردت الحصول على هذه الصفة فعليك أن تتذكر الموت كثيراً وتزور المقابر للاتعاظ ممن سبقوك إليها والزهد بحرام الدنيا لا بحلالها والابتعاد عن الشهوات والتقرب إلى ما يرضي المولى عز وجل عنك وهذا المعنى ورد في كلام مولانا الإمام الكاظم عليه السلام حيث قال: «**من استحيا من الله حق الحياء فحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى وذكر الموت والبلى وعلم أن الجنة محفوفة بالمكاره والنار محفوفة بالشهوات**».

نظرة إسلامية إلى السعادة

من المفاهيم التي يقع فيها التوهم لعدم فهم حقيقتها فتستخدم بطريق الخطأ مفهوم السعادة، هذا الإحساس الشعوري الداخلي الذي يضفى على النفس راحة وسرور. ربما يتصور بعض الناس أن السعادة تعني أن يعيش الإنسان دنياه براحة وهناء وأن يمتلك مالاً وجاهاً وأولاداً وما إليه من زينة الحياة الدنيا التي لا يمكن الاستغناء عنها وقد أباحها المولى عز وجل لعباده: لكن شيوع هذه الرغبات وسد هذه الحاجات لا تكفي في تحقيق السعادة للإنسان لأن لديه فراغاً روحياً لا بدّ له من إشباعه كما يشبع لذاته الجسدية المادية وهذا الفراغ الروحي لا يسده إلا العبادة التي إذا ما شعر بلذتها وصل إلى السعادة. . .

على هذا نقول:

إن مفهوم السعادة له اتجاهان الأول: إشباع الغرائز والرغبات واللذات والحصول على زينة الدنيا وزخارفها وما إليه بقطع النظر عن أي شيء آخر، فهذا الاتجاه خاطئ وخطير وإن كان يحقق شيئاً من السعادة الآنية لأنه يبعد الإنسان عن مفهوم السعادة الحقيقي الذي سنذكره فيما بعد ويهيّئ الإنسان إلى تدمير نفسه عند عدم الحصول على ماديات الدنيا ويؤدي إلى خسران الآخرة.

الثاني: لا مانع من الاستحصال على زينة الدنيا وما ذكر آنفاً وعدم جعله حصرياً كمصدر للسعادة بل يكون مصدر السعادة هو الشعور بلذة العبادة والذوبان بحب المولى وعشقه بسد حاجات الروح وتزكيتها والارتقاء بها إلى أسمى الدرجات

فهذا الذي يحقق سعادة المرء وتكون الأمور المادية والزينة الدنوية كماليات إن حصل عليه فبه ونعمت وما أحلى الدنيا والدين إذا اجتمعا، أما إذا لم يحصل عليها فلا تشكل عنده سقوطه وشقاءه لأنه يتلذذ ويسعد مع ربه وسأنقل لك هنا أروع عبارات الروح وأجمل نفحات السمو والالتذاذ بالمعشوق عن مولانا زين العابدين عليه السلام في مناجاته الثانية عشرة يقول وهو يتحدث عن العارفين: «**وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم وعلت لسبق السعادة في الزهادة هممهم...**» إلى أن يقول: «**إلهي ما ألذ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب وما أطيب طعم حبك وما أعذب شرب قربك...**». هذه السعادة الحقيقية التي يذوب معها المخلوق مع خالقه فيصبح شربه القرب من ربه وطعامه حب الله وعشقه وإشغال فكره في سبحات وجهه ينقطع مع الغيب في قدراته.

إن قلت: يلزم من هذا أن يترك الإنسان الدنيا ويزهد بها ويترك كل ملذاتها ويعتزل الناس ليعيش مع الله فقط.

قلت: أولاً سأبين مفهوم الزهد إن شاء الله تعالى في مقالة قادمة ـ ثانياً: ليس هذا المقصود من الكلام بل على الإنسان أن يعمل لآخرته ولا ينسى نصيبه من الدنيا أو فقل كما قال الأمير عليه السلام: «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً..**». اعمل وخذ منها ولكل ما أحل الله لك من الطيبات ـ لكن «**اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**» لتحصل على السعادة في لقاء ربك. وسأبين لك بعض العناوين فيما يلي حتى يتبين لك الأمر جلياً.

أولاً: ما يوجب السعادة في الدنيا:

هناك أمور إذا حصل عليها الإنسان في الدنيا وسعى لإيجادها تحقق له بعض السعادة فمن هذه الأمور الزوجة الصالحة الجميلة التي تسره إذا نظر إليها وتخفف عنه بكلامها إذا كان متعباً ومهموماً وتربي له ذريته تربية حسنة وتحفظ له ماله بصلاحها، وكذا الولد الصالح الذي يرفع به رأسه فيدخل عليه السرور في الدنيا

ويكون عوناً له على مصاعبها ويقوم بشؤونه عند وفاته ويدعو له ويكون شبيهاً له في الخلق والخلُق، وأيضاً من سعادة المرء مجالسة الإخوان الصالحين الناصحين له وأن تكون تجارته في بلاده قرب عياله لأنها تؤمن راحته من الأسفار، وكذا السعادة المسكن الواسع الذي يستطيع التحرك فيه مع عياله واستقبال ضيوفه براحة تامة وكذا المركب الهنيء.

أيضاً هناك أمور أخرى توجب السعادة كالعلم لأنه بالعلم يعبد الله حق عبادته وبه يبتعد المرء عن الوقوع في الخطأ لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**اعملوا بالعلم تسعدوا**»، وقال عليه السلام: «**جالس العلماء تسعد..**». لكي تستفيد من علمهم ويخلصك في آخرتك ويعطيك التجربة في دنياك، طبعاً العلماء والأتقياء الواعون.

أيضاً إذا ترك العبد الآفات المهلكات كالغل والحسد التي تريح صدره فيحل مكانها السعادة لذا قال الأمير عليه السلام: «**خلو الصدر من الغل والحسد من سعادة العبد..**». وهناك أمور أخرى كالتوفيق في الأعمال كافة ورضاه بما قضى الله له والسخاء على الناس ومساعدتهم وكتمان بعض الأمور التي يعاير فيها أو تخلق له مشاكل هو بغنى عنها وغير ذلك مما يرجع له في المطولات.

ثانياً: من هو السعيد حقاً؟

هو الذي يعيش مع ربه في كل صغيرة وكبيرة ويراقبه في السر والعلن يخاف من عتابه فلا يقدم على ما يغضبه تعالى شأنه ويرجو ثوابه فيسعى لرضاه عنه لذا قال الأمير عليه السلام: «**إنما السعيد من خاف العقاب فأمن، ورجا الثواب فأحسن واشتاق إلى الجنة فأدلج**»، فأهل الإيمان وأهل الآخرة الذين امتلأت قلوبهم بالإيمان واشتاقت نفوسهم إلى الجنان، أحسنوا العمل بالطاعة واختاروا داره الباقية على دنياه الفانية بلذة العبادة وشوق الوفادة بعزم وإرادة وعمل بلا هوادة يصل الإنسان إلى حقيقة السعادة، لذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**السعيد من اختار باقية يدوم نعيمهاعلى فانية لا ينفد عذابه وقدم لما تقدم عليه مما هو في يديه قبل أن يخلفه لمن يسعد بإنفاقه وقد**

شقي هو بجمعه». فمن ينفق مما يجمعه في دنياه من حقوق الله طوعاً لأمره واستجابة لحكمه ويعمل بما يرضاه يصل إلى مبتغاه ويحسن عقباه. لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إن حقيقة السعادة أن يختم المرء عمله بالسعادة، وإن حقيقة الشقاوة أن يختم المرء عمله بالشقاء**». فإذا ختم له بالخير كان سعيداً.

ثالثاً: من هو أسعد الناس؟

من خلال ما قدمنا نجد أن الإسلام اعتبر حقيقة السعادة في الحصول على الآخرة ورضا الله تعالى وإن كان هناك أمور الاستحصال عليها في الدنيا له أثر حسن على النفس توجب سعادته، لذا اعتبر أمير المؤمنين عليه السلام أن أسعد الناس الذي يتغلب على نفسه ولذاتها في الدنيا ويدخر نفسه للالتذاذ بجنة الخلد وما فيها حيث قال عليه السلام: «**أسعد الناس من ترك لذة فانية للذة باقية**»: وأعطاه في مورد آخر صفة العاقل لأنه يوزن الأمور بميزانها الصحيح كما في اللذة الفانية والباقية إذا عرضناها على العقل فالنتيجة اختيار الباقية على الفانية وهكذا في الأمور كافة فقال عليه السلام: «**أسعد الناس العاقل المؤمن**».

وهكذا نجده في أحاديث أخرى يعتبر أن أعظم الناس سعادة أكثرهم زهداً واستقامة في الدين والذي برد قلبه باليقين إيماناً بالرسالات والنبيين وموالاة للأئمة الطاهرين وتعلم سيرة الصالحين والعمل بها في العالمين.

توجيه: أخيراً أتوجه إلى القارئ الكريم بالتدقيق في ما كتب ليعرف أن سعادة الإنسان الحقيقية وذروة لذته الأبدية تعلقه بمعشوقه الأوحد وسلوكه في كمالات قدسه وإرواء ظمئه من معين حياض نوره وسبحات وجهه وإشباع روحه بعظيم قدرته وسعة ملكوته فلا يلتذ بسواه ولا يرجع إلا إلى مولاه، أيها العزيز لا مفر لأحد عن حكومته ولا ملجأ منه إلا إليه قد أغرقتنا الغفلة وفرط النسيان فأنامنا عن الشوق للقائه عظيم العصيان فهلا حثثنا السعي لنعرف عظمة الله الرحمان وندخل اليقين في قلوبنا لننظر إلى حلاوة الطاعة والغفران لنكون السعداء في الجنان فقد أجهدنا الهم وأمات قلوبنا الغم مما أبعدنا عن الطريق وتوهمنا سعادتنا في هذا المضيق.

الحب في الإسلام

لقد فطر الله تبارك وتعالى الإنسان على غريزة الحب الخاضعة للمدرك الوهمي فلا يخلو الإنسان من هذه الغريزة بل حتى الحيوان وجدت فيه هذه الغريزة ولا نجد في ما نعلم أن ديناً سماوياً أو قانوناً وضعياً خلا من التأكيد على هذه الصفة الحميدة. وقد اهتم الإسلام بالحب اهتماماً بالغاً لأنه يحدد مسار الإنسان في السعادة والشقاوة الدنيوية والأخروية. واعتبر الدين بمجمله وتفاصيله أنه قائم على الحب ومتقوم به، فإمامنا الصادق عليه السلام في جوابه على سؤال يقول: «**وهل الدين إلا الحب؟**»... فالإنسان إذا انطلق في علاقاته من الحب والتزم بمعاملاته من خلال الحب في بيته والمتعلقين به وفي المجتمع، فإنه يَسعد ويُسعد من حوله وللحب مقامات لا بدّ من إلفات النظر إلى بعضها تحت عناوين البحث:

أولاً: حب اللَّه

أول مقامات الحب ينبغي أن لا تكون إلا لله فتحيط بقلب الإنسان لتؤثر على عقله، فينطلق في رحابة الفكر وزكاة النفس ليحلق بروحه إلى الملكوت الأعلى، فلا يأنس إلا بالله فيعشق الله عشقاً لا مثيل له، فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله معه وينطلق منه فيترك الأغيار ويطرد من قلبه الأبدال، لأن القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام. وقد أكدت الأحاديث والأدعية التي كان أهل البيت عليهم السلام يحلّقون بها مع معشوقهم الأول ومحبوبهم الأوحد، فقد جاء في بعض

الأدعية: «**أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك.. ماذا وجد من فقدك! وما الذي فقد من وجدك لقد خاب من رضي دونك بدلاً**».

حتى أن المحب لله لو فرض أنه عذبه فلا يتخلى عن حبه لأن معرفته به وصلت إلى حقيقة الاستحقاق لحبه. «**إلهي لو قرنتني بالأصفاد ومنعتني سيبك من بين الأشهاد.. ما قطعت رجائي منك ولا صرفت تأميلي للعفو عنك ولا خرج حبك من قلبي**» (دعاء السحر).

ولكنه لا يستطيع أن يصبر على فراق الحبيب: «**صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك وهبني صبرت على حر نارك فكيف أصبر عن النظر إلى كرامتك**»؟.. دعاء كميل.

لذلك ينبغي للمؤمن أن يحب الله أولاً وقبل كل شيء حباً مطلقاً بكل قلبه كما ورد عن رسول الله ﷺ: «**أحبوا الله بكل قلوبكم**» ونظائر أمثلة العروج وحب الله من سادتنا أهل البيت عليهم السلام كثيرة نكتفي بهذا المقدار لننتقل إلى الدرجة الثانية.

ثانياً: حب النبي وأهل بيته عليهم السلام:

ومن أحب الله لا بدّ أن يحب كل ما يصدر عنه، وهذه طبيعة الحب في السلوك، ولا يحتاج ذلك إلى دليل، لأنه أمر وجداني لكل من يحب الآخر ويوده: لذلك بعد أن يحب الإنسان ربه، لا بدّ أن يحب أنبياءه ورسله وأولياءه وآخرهم النبي محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، لأن حبهم من حب الله، ولا يعقل أو يتصور حب الله من دون حبهم وبالعكس، لذلك ورد في الحديث عن النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهلي أحب إليه من أهله، وعترتي أحب اليه من عترته، وذريتي أحب إليه من ذريته**».

وقال ﷺ: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله عز وجل وأحبوا أهل بيتي لحبي**».

ثالثاً: ما يورث حب اللَّه:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[١] فمتابعة الرسول تعتبر المدماك الأول في بناء صرح المحبة التي تورث حب الله للعبد. فإنه ما من أحد إلا ويدعي محبة الله، لكن المهم أن يحبنا الله. وإذا أردت أن يحبك الله فعليك أن تتحلى بصفات أكد عليها القرآن وجاءت على لسان أهل البيت عليهم السلام وإلا فلن تفوز بحبه ولا قربه ولن ترتقي إلى درجة العشق له جلّ ثناؤه فقد جاء في حديث المعراج «**يا محمد: وجبت محبتي للمتحابين في.. ووجبت محبتي للمتواصلين في، ووجبت محبتي للمتوكلين علي**». إذاً أولها التوكل عليه والانصياع له ثم محبة المؤمنين والتواصل والتعاطف معهم والكف عن إذائهم والعفو عن أخطائهم وإرشادهم والرأفة بهم. قال صلى الله عليه وآله: «**وجبت محبة الله على من أغضب فحلم**». وكذا لا بدّ من الإكثار من ذكره جل شأنه فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**يا رب، وددت أن أعلم من عبادك فأحبه؟ فأوحى إليه الله عز وجل فقال: إذا رأيت عبدي يكثر ذكري فأنا أذنت له في ذلك وأنا أحبه، وإذا رأيت عبدي لا يذكرني فأنا حجبته وأنا أبغضته**».

والإكثار من ذكر الموت قال صلى الله عليه وآله: «**من أكثر ذكر الموت أحبه الله**» لأن ذكر الموت يبعد الإنسان عن إرتكاب المعاصي، والآيات التي ذكرت ما يورث حب الله للإنسان كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٣]

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

رابعاً: أحب الناس إلى اللّه:

الذين يفعلون الخير ويتواصلون فيما بينهم بالخير، لأنه أصل الخير ولا يصدر منه إلا الخير، فعلى كل إنسان بمقدار ما يحمل من طاقات وقدرات عليه أن يبذلها لمن يحتاجها في مجتمعه سواء بذل فكراً من فكره أو عطاء من ماله أو قوة من بدنه، وعليه أن يراعي الأولويات من الطاعات والقربات، فبعض الناس في هذا الزمن لا يسعى إلا إلى راحته ورخائه حتى على مستوى العبادة فيخضعها إلى ميله وأهوائه، فمثلاً يحج إلى بيت الله عاماً بعد عام والفقراء من حوله لا يقدم لهم شيئاً ولا يسعى في قضاء حوائجهم، حتى أنه إذا دفع حق الله عليه من زكاة ماله فلا يدفع إلا بمقدار ما يحج به، وهذا لا يقربه إلى الله، ولا يكون أساساً لرضاه فلا يحبه الله، والأولى له سد رمق جائع من زيارة إلى أماكن مقدسة، وإغاثة ملهوف أفضل عنده وأقرب إليه من حجة مستحبة إلى بيته بعد إسقاط الواجب عليه. لذلك ورد عن مولانا الصادق عليه السلام: «**ألا وإن أحب المؤمنين إلى الله من أعان الفقير من الفقر في دنياه ومعاشه**»، ومن أعان ونفع ودفع المكروه عن المؤمنين.

وجده رسول الله يقول صلى الله عليه وآله: «**الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله وأدخل على أهل بيته سرور**». وعن مولانا الباقر عليه السلام: «**ما عبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن**». وورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**لأن أعول أهل بيت من المسلمين أسد جوعتهم واكسو عورتهم فأكف وجوههم عن الناس أحب إلي من أن أحج حجه وحجة ومثلها ومثلها إلى حتى بلغ عشراً ومثلها ومثلها حتى بلغ السبعين**» وعنه صلى الله عليه وآله: «**لقضاء حاجه امرئ مؤمن أحب إلى الله من عشرين حجة كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف**».

ـ إخواني أين نحن من هذه الأحاديث وكم ندخل في كل يوم أذية لإخواننا المؤمنين؟.

ومن يحبهم الله يرفع بهم العذاب عن أهل الأرض لعلو درجتهم عنده، فقد ورد

في الحديث القدسي عن رسول الله ﷺ: «**إن أحب العباد إلي المتحابون بجلالي، المتعلقة قلوبهم بالمساجد**»، لأنها تمثل بيته في الأرض التي يزار بها، «**المستغفرون بالأسحار، أولئك إذا أردت بأهل الأرض عقوبة ذكرتهم فصرفت العقوبة عنهم**».

خامساً: أعمال يحبها اللَّه:

وهناك أعمال يحبها الله أن تكون في عبادة لا لمنفعة له في ذلك حاشاه فهو الغني عن عباده، بل ليحسن سلوك عباده ومسارهم في الحياة، ليكونوا على الصعيد الشخصي متكاملين إنسانياً ومتكافلين لبعضهم اجتماعياً. فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يحبها الله: قلة الكلام، وقلة المنام، وقلة الطعام. وثلاثة يبغضها الله: كثرة الكلام، وكثرة المنام، وكثرة الطعام**».

وليس ذلك إلا لأن الأولى توقع الإنسان في الأخطاء فمن كثر كلامه كثر خطؤه وتحمل كل ما يترتب عليه والثانية والثالثة تقعده عن العبادة والسلوك والعمل.

وعلى الصعيد الاجتماعي ورد عن مولانا الصادق عليه السلام: «**من أحب الأعمال إلى الله عز وجل إدخال السرور على المؤمن وإشباع جوعته أو تنفيس كربته أو قضاء دينه**».

وهناك أعمال أخرى لا يسعها هذا المختصر أقتصر على الصعيد العبادي منها ما ورد عن مولانا الأمير عليه السلام: «**أحب الأعمال إلى الله عز وجل في الأرض الدعاء**».

سادساً: الميزان في حب الإنسان:

محبة الناس على درجات، حب الزوجة والأولاد والإخوان وكيفية التعامل معهم، وقد قررناه في حلقات سابقة كيف ينبغي أن تكون العلاقة القائمة على المودة والحب بين الزوجين؟ وكيف تحب الأولاد وتعدل في حبك لهم؟ وكيف تكسب الإخوان وتحبهم في الله؟ لأن الميزان عند المؤمن حتى في ميله القلبي، لا بدّ أن يكون في الله، والبغض الذي هو عكس الحب، لا بدّ أن يكون في الله

أيضاً: لذا قال ﷺ: «**أوثق عرى الإسلام أن تحب في الله وتبغض في الله**».

وإذا أردت أن تعرف نفسك في علاقاتك وموالاتك في الدنيا لتنجو في الآخرة، فقد أعطاك مولانا الإمام الباقر عليه السلام الميزان الذي على أساسه النجاة والشقاوة.

قال عليه السلام: «**إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فإن كان لا يحب أهل طاعة الله عز وجل ولا يبغض أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب**».

هذا هو المقياس أحبائي في الحب والبغض وليس ما يتعاطى به الناس في هذا الزمن مقياس المصالح والأهواء يوادون أهل معصيته لأن مصالحهم معهم ويعادون أهل طاعته لأن موالاتهم تخرب علاقاتهم ومصالحهم. فتدبروا رعاكم الله قبل يوم الحساب.

سابعاً: كيف تحصل على محبة الناس؟

إذا أردت أن تحصل على مودة الناس (طبعاً بشرط عدم المداهنة والاستهانة بالأحكام) فعليك أن تستغني عن كل ما في أيدي الناس وتزهد بما عندهم قال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله علمني شيئاً إذا فعلته أحبني الله من السماء والناس من الأرض، فقال له: «**ارغب فيما عند الله، عز وجل يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**». وعليك أن تكون هشاً بشاً صاحب لسان جميل لين العريكة، فقد ورد عن مولانا الباقر عليه السلام: «**البشر الحسن وطلاقة الوجه، مكسبة للمحبة وقربة من الله، وعبوس الوجه وسؤال البشر مكسبة للمقت وبعد من الله**».

وعليك في تعاملك مع الناس أن تكون منصفاً مواسياً غير فظ وظالم باذلاً لما تستطيع متواضعاً غير متكبر لتكسب محبتهم، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ثلاث خصال تجتلب بهن المحبة: الإنصاف في المعاشرة والمواساة في الشدة والانطواء، والرجوع على قلب سليم**».

وورد عن مولانا الصادق عليه السلام: «**ثلاثة تورث المحبة: الدين والتواضع والبذل...**».

هذا بعض ما تيسر لي في المقام. أيها الأحبة بالحب نحيا وبالحب ندفع كل شرور أنفسنا ونتخلص من كل البغض والغل في قلوبنا لنحيا حياة السعادة بالإسلام وبحب نبي الإسلام وأهل بيته عليهم السلام وقبل كل هذا لنحب الله وننصاع له انصياع العبودية. فنحصل بذلك على السعادة الأخروية.

وإذا أحببنا نبيه وأهل بيته الذين ذابوا فيه واتصلوا به وانقطعوا عمن سواه فكانوا عباداً مكرمين لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون. وأساس المحبة أيها الأحبة الانقياد والطاعة لله عز وجل ولا معنى للحب من دون طاعة قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

أما ادعاء الحب بدون عمل كالرأس بدون جسد لا وزن له عند الله تعالى، ولذا ورد عن الباقر عليه السلام في من يدعي حب علي عليه السلام قال فيما ورد أفحسب الرجل أن يقول أحب علياً ثم يتولاه فمحمد خير من علي أفيكفي الرجل أن يقول أحب محمداً ثم لا يكون فعالاً، من كان ولياً لله فهو لنا ولي ومن كان عدواً لله فهو لنا عدو. وقال في حديث آخر: والله ما معناه براءة من الله ولا لنا على الله لأحد من حجة وليس بيننا وبين الله قرابة ولا تنفع ولايتنا إلا بالطاعة فمن كان مطيعاً لله نفعته ولايتنا ومن كان عاصياً لله لا تنفعه ولايتنا ويحكم لا تفتروا مخاطباً بذلك معشر الشيعة. إذاً الحب يعني الولاء والولاء يعني الطاعة والطاعة تعني الالتزام بما أمر الله وغير هذا الكلام مما نسمعه في هذا الزمان من روايات مكذوبة مخالفة للقرآن مثل: حب علي حسنة لا تضر معها سيئة، أو أقسمت بعزتي وجلالي لا أعذّب محباً لعلي ولو عصاني أو لا أخلد في النار من كان في قلبه ذرة حب لعلي عليه السلام وأشباهها كلها أماني كأماني أهل الكتاب قال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

تربية الطفل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾[1].

إن تربية الذرية من الأمور المهمة التي أكد الإسلام عليها وحمّل المسؤولية لمن يتغاضى عنها دنيا وآخرة، لأن الأولاد هم زينة الحياة الدنيا وهم من يحملون أسماء آبائهم فإن أصلحوهم خلدوهم، وإن أفسدوهم أساؤوا إليهم وإلى أنفسهم، والأولاد هم فلذات الأكباد وثمرات القلوب وقرة عين الأهل الذين يسرون بهم ويحزنون لآلامهم حزنهم على أنفسهم، وقد عبر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك لولده الحسن عليه السلام في وصيته حيث يقول: «**ووجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني وكأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي**».

من هذا المنطلق نجد أن الآباء يضحون بأوقاتهم وراحتهم لإعالة أطفالهم وتهييء الراحة لهم على جميع المستويات المعيشية والعلمية، والأمهات كذلك يعانين شتى أنواع المصاعب بالسهر والجهد والحزن والألم وما إلى ذلك ويذبن أعمارهن لتحقيق السعادة لأولادهن.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

ولكن هناك جانباً آخر بالغ الأهمية يغفلون عنه في كثير من الأحيان بسبب انشغالاتهم تارة أو جهلهم بهذه الأمور أخرى وهو ترك توجيههم بشكل مدروس ودقيق مما ينتج عن ذلك فساد الأولاد وانحرافهم الذي يؤدي بدوره إلى انحراف آخرين وإفساد بيئة بأكملها.

لذلك أمر الله عباده بتأديب الأهل ومنهم الأولاد حيث قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1]، فقد ورد في تفسيرها عن الإمام الصادق عن النبي ﷺ: «**لما نزلت هذه الآية قال الناس: كيف نقي أنفسنا وأهلينا؟ قال: اعملوا الخير وذكروا به أهليكم وأدبوهم على طاعة الله**».

بعد هذه المقدمة نذكر هنا نماذج تحت عناوين على ديدننا من الاستفادة من الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام.

حب الأولاد:

أولاً: من الأمور المفروغ عنها وجود العاطفة عند الأهل لأولادهم ولكن هذه العاطفة يجب أن تتعقلن إذا بلغ الأولاد سناً معيناً حتى لا تؤدي إلى فساد الأولاد لأنه في فترة وعيه وخصوصاً ما يسمى بالمراهقة إذا عومل بالعاطفة المفرطة غير الموزونة فيأخذ ما يريد ويسهل عليه فعل المنكر ولا حسيب ويلهو كما يشاء من دون رقيب فيعيش حينئذٍ الانفلات بالخراب والتخريب، لذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام وفي معناها روايات عدة: «**دع ابنك يلعب سبع سنين ويؤدب سبع سنين وألزمه نفسك سبع سنين فإن أفلح وإلا فإنه لا خير فيه**».

فحدُّ الولد بإطلاق العنان للعاطفة واللعب واللهو سبع سنين أو يكون فيها سيداً حراً، ولكن في هذه الفترة يجب أن نمرر له بعض التوجيهات التي يسهل عليه تعلمها بأن نعلمه قول بسم الله الرحمن الرحيم وإذا بلغ ثلاث سنين كما ورد عن

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

الصادقين عليه السلام قل له: لا إله إلا الله، ثم يترك وهكذا فإنه في هذا العمر لم تتلوث نفسه وقلبه فارغ مما خلا الله وفطرة سليمة فيرسخ ما تلقيه إليه، كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام للحسن عليه السلام: «**إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقي فيها من شيء قبلته فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك**»، ولا يراجع الطفل في هذه المرحلة بشكل قاس وعنيف كما يفعل بعض الآباء مع صغارهم من الضرب المبرح لأن هذا أولاً حرام شرعاً وثانياً لا ينفع في مثل هذا العمر بل يجعل قساوة في قلب الطفل وكرهاً قد يؤدي إلى عقد نفسية عدة يفجرها في كبره من عدم الطاعة لوالديه والأخذ بمشورتهم وقد يؤدي إلى فعل كل شيء معاكس لما يوجهه به أهله وقد يستمر معه ذلك فيربي أطفاله كما رباه أهله وهذا من الآفات التي نشاهدها في مجتمعنا اليوم.. بل يراجع بشكل هادئ على قدر عقله وهذا يشخص مع كل ولد حسب فهمه.

ثانياً: عليك في هذه الفترة أيضاً أن تعيش مع الطفل كما يريد هو لذلك قال صلى الله عليه وآله: «**من كان عنده صبي فليتصاب له**»، بأن تلعب معه وتلاعبه وقد كان صلى الله عليه وآله يفعل ذلك مع الحسنين عليهما السلام فقد ورد عن جابر: قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله والحسن والحسين على ظهره وهو يجثو لهما ويقول: «**نعم الجمل جملكما ونعم العدلان أنتما**».

وعلى الأهل أيضاً في هذه الفترة إظهار العاطفة لأولادهم بالمداعبة والتقبيل وإدخال السرور على قلوبهم بالهدية وما إليه، فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**من قبّل ولده كتب الله له حسنة ومن فرحه فرحه الله يوم القيامة ومن علمه القرآن دعي بالأبوين فيكسيان حلتين يضيء من نورهما وجوه أهل الجنة**».

العدل بين الأولاد:

وهذه آفة أخرى يعيشها الناس وهي عدم العدل بين أولادهم لأن عدم المساواة تثير في نفوسهم الحساسيات التي تنمي غريزة الحقد والبغض عند الطفل فتنعكس

سلباً عليه في نشأته فيحب أن يكون كل شيء له ويبغض كل إنسان يفضل عليه والمفضل من الأولاد أيضاً لن يكون أحسن حالاً من عدم المفضل فنكون بذلك أسأنا إلى كليهما في التربية وخلقنا في نفسيهما عقداً سلبية، لذلك ورد عن النبي ﷺ: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**». وإطلاق الرواية يستفاد منه العدل في كل شيء حتى النظرة والبسمة والعطاء، وورد عنه ﷺ أيضاً: «**اعدلوا بين أولادكم في النحل (العطية أو الهبة) كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف**». نستوحي من هذه الرواية أن العدل في الهبة بين الأولاد يصلح نفوسهم فلا يشعرون بالتمييز بينهم فانظر إذا ما اشتريت لولد شيئاً من ملابس أو أطعمة أو لعب أو أي شيء أن يكون للولد الثاني مثله وخصوصاً إذا كانا مختلفين جنساً فقد ورد عنه ﷺ: «**لا تكرهوا البنات فإنهن المؤسسات الغاليات**»، وورد عنه ﷺ: «**من ولدت له ابنة فلم يؤذها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها ـ الذكور ـ أدخله الله بها الجنة**»، وليس هذا إلا لأن البنات عنصر ضعيف في مجتمعاتنا تاريخياً والنظرة إليهن نظرة دونية عن الذكور، لذا جاء الإسلام ليرفع من قيمتها ويساويها بالذكر وجعل الأجر العظيم على ذلك، لذا فقد ورد عنه ﷺ: «**إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى في القبل**». فإذا كانت القبلة يجب فيها العدل وهي أسهل وأصغر شيء تفعله مع ولدك فكيف بغيرها مما يحتاج إلى بذل وجهد؟.

تأديب الأولاد وتعليمهم:

أولاً: يجب أن نربي أطفالنا على حب الله عز وجل والنبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام وقراءة القرآن فإن ذلك يجعلهم مؤمنين رحماء، ولذلك ورد في الخبر عن النبي ﷺ: «**أدبوا أولادكم على ثلاث خصال: حب نبيكم وحب أهل بيته وقراءة القرآن**». فإذا بلغ الغلام سبعاً علمته الصلاة والصيام بما يطيق، فقد ورد عنه ﷺ: «**علموا أولادكم الصلاة إذا بلغوا سبعاً واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً وفرقوا بينهم في المضاجع**»، هنا أشير إلى أهمية

تعليم الصلاة للأولاد لما تمثل الصلاة من رابط روحي وتربوي عميق مع الخالق والضرب عليها والتشديد إذا بلغوا حتى لا يستهان بها وبغيرها من المحرمات وحتى يعيش الأولاد المسؤولية في حدود التكاليف الموجهة إليهم وطبيعي أن الضرب هنا هو الضرب التأديبي الذي لا يترك أثراً مادياً على الجسد بل يترك أثراً على الروح. وأشير أيضاً إلى قوله ﷺ: «**. . . وفرقوا بينهم في المضاجع**». إلى أهمية ذلك حتى لا يحدث بينهم ما لا تحمد عقباه في مستقبلهم لأن هذا العمر غالباً هو وقت التمييز للعورات والتعرف عليها وحب الاستطلاع الموجود عند الأطفال قد يدفعهم إلى فعل أي شيء للتعرف على وظائف أعضائهم.

ثانياً: ومن التعاليم حب الخير وتدريب الطفل على فعله حتى إذا ما شبّ عليه وشعر بالمسؤولية تجاه الفقراء وحاجات إخوانه المؤمنين فاندفع إلى قضائها من هذا المخزون في داخله عند صغره، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**مر الصبي فليتصدق بيده بالكسرة والقبضة والشيء وإن قل فإن كل شيء يراد به الله وإن قل بعد أن تصدق النية فيه عظيم**».

وبعد أن تأمره بالتصدق ولو بالشيء اليسير تعلمه أن يكون لوجه الله حتى تجعل في نفسه رابطاً قوياً مع ربه لتكون أعماله كلها لوجه الله تبارك وتعالى فلا يشرك بها شيئاً ولا تكون أعماله حينئذ رئاء الناس.

ثالثاً: من التعاليم العامة التي ركز عليها الإسلام والتي تؤثر على شخصية الطفل وكيانه بين نظرائه لكي لا يشعر أنه أقل منهم شأناً فيتعقد ويفجر عقده بالجهل وحتى تكون هذه الأمور سلاحاً يتقوى به علمياً وجسدياً وأدبياً وعقلياً ومادياً ليكون عنصراً فعالاً ومفيداً في المجتمع تعليمه الكتابة والرماية وركوب الخيل والسباحة وصنعة يكتسب منها عيشه حتى لا يكون عالة على المجتمع وفوق ذلك الأخلاق الحسنة مما نستوحيه من هذه الأحاديث التي كأن لسانها لسان حقوقي مفروض على الوالد ومن

ضمن مسؤولياته المترتبة عليه، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «**حق الولد على والده أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه الكتابة**»، إننا نستوحي عظمة الإسلام من هذه الأحاديث حيث إنها تدخل حتى في اختيار اسم الطفل لأن اسمه إن كان مستهجناً أو سيئاً فإنه يخلق لصاحبه ازمة نفسية ترافقه مدى الحياة وهذا نشاهده بالعيان في حياتنا.

إذاً على الوالدين تأديب الأولاد بالأخلاق الحسنة والسيرة الطيبة وأن يكرموهم ولا يشتموهم بالإهانات التي تسقط شخصياتهم لأقل خطأ ارتكبوه وخاصة أمام نظرائهم بدل معالجة الخطأ بالحكمة والموعظة الحسنة، فقد ورد عنه ﷺ: «**أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم**».

رابعاً: إذا بلغ الغلام الرابعة عشرة بعد مرحلة الطفولة السبع الأولى والأمر بالصلاة والصوم والتوجيه الحسن وتعليم القرآن وما إليه في السبع الثانية تأتي مرحلة الشباب التي هي أخطر المراحل، فإن كانت رواسبه خيراً فيصلح فيها وإن كانت شراً فيفسد والعياذ بالله وهنا على الإنسان أن يتعامل مع أولاده في هذه المرحلة بالمؤاخاة والمصادقة وتعليمه الحلال والحرام، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الغلام يلعب سبع سنين ويتعلم الكتاب سبع سنين ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين**». فإنه إن نفعت فيه التربية والتأديب والتعليم خلال السنوات الإحدى والعشرين فنعم الولد الصالح الذي يرث أباه فإن الولد الصالح ريحانة من رياحين الجنة كما ورد عنه ﷺ: «**ومن سعادة الرجل الولد الصالح ويكون ميراث الله عز وجل من عبده المؤمن أن يترك ولداً صالحاً يعبد الله من بعده ويدعو له فلا ينقطع عمله حينئذ بموته وإلا إن لم ينفع وفسد الولد ولم يكن الوالد مقصراً في تربيته بالأمور التي مر ذكرها وغيرها مما لا مجال لذكره فيكون قد أعذر إلى الله في تربية ولده ويكون حاله كحال ابن نوح في فساده.**

توجيه: أيها الآباء، أيتها الأُمهات، أولادكم أمانة الله في أعناقكم فانظروا

كيف تؤدون ما ائتمنتم عليه إلى الله وأحسنوا في تأديته واستبدلوا هذه الأرطال من الشتائم والكلمات النابية التي تسخط الله عليكم والضرب المبرح لأطفالكم الذي هو أفحش الظلم عند الله لأن أفحش الظلم أن تظلم من لا يجد عليك ناصراً إلا الله، وربوا أنفسكم على الأخلاق الحسنة والعمل الصالح لأنكم لن تؤثروا في أطفالكم إن نهيتم عن خلق وأتيتم مثله، إنها مسؤولية عظيمة فيها نجاتكم من العذاب أو عقابكم، وأختم هذا التوجيه بكلمة للإمام زين العابدين عليه السلام:

«**وأما حق ولدك عليك فتعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره وأنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه والمعونة على طاعته فيك وفي نفسه، فمثاب على ذلك ومعاقب فاعمل في أمره عمل المتزين بحسن أثره عليه في عاجل الدنيا المعذور إلى ربه فيما بينك وبينه، يحسن القيام عليه والأخذ منه ولا قوة إلّا بالله**».

الزواج بين التعجيل والتأجيل

قبل البحث في الزواج بين التعجيل والتأجيل نورد ههنا مقدمة ونتبرك بافتتاحها في المقام بآية كريمة من القرآن.. بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

فالإنسان من حيث إنه مدني الطبع اجتماعي الهوى لا يستطيع العيش وحده فيرتبط بالآخرين من أبناء جنسه ليتكامل معهم في جميع الشؤون الحياتية القائمة على التعاون ليشكلوا بذلك مجتمعاً مترابطاً متعارفاً كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2]. وحيث إن البداهة تقضي بأن الإنسان يسعى إلى السعادة في حياته الدنيا لا بدّ وأن يسلك طريق الفطرة السليمة التي فطره الله عليها ويطبقها بشريعة السماء السمحاء ليحقق السعادة في الدارين.. أما إذا سلك والعياذ بالله الطريق المعاكس فإنه يؤدي إلى الفساد والإفساد وبالتالي خراب العباد. وبما أن جذور الصلاح والفساد في المجتمع هي الأسرة والأساس فيها هما الأبوان فلا بدّ من معالجة أمرين أساسيين من ناحية العنوان للبحث وهما:

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

الأول: هل في الزواج المبكر فوائد وهل تحث الشريعة عليه؟

الثاني: هل تأخير الزواج هو المطلوب وهل أن آثاره سلبية؟

فالبحث يقع في مقامات:

المقام الأول:

إن الزواج المبكر فيه فوائد كثيرة ويترتب عليه مهام كثيرة وخطيرة وإن تسالم البعض على وجود سلبيات ليست منظرة إلا بعد الفراغ من تحصيلها، فمثلاً إن عدم الوعي عند الزوجين الحديثي السن قد يؤثر على سير وسلوك الأسرة وبنائها والمطلوب هو وجود مثل هذا الوعي والإدراك عندهما أو أحدهما فيعلم الآخر تدريجياً وذلك لما يترتب من فوائد عدة على مثل هذا الزواج منها على سبيل المثال لا الحصر:

أولاً: صيانة الشباب والشابات من الانحراف والوقوع في الحرام، فمع ترك الزواج المبكر ينتشر الزنا والمنكرات وتختلط الأنساب وتفسد المجتمعات وهذا ما نشهده كثيراً في حياتنا العامة وخاصة في البلاد الغربية.

لذلك يعبّر في المصطلح الشرعي عن المرأة المتزوجة بالمحصنة وعن الرجل بالمحصن ليس ذلك إلا لأنه دخل ضمن حصن منيع يصون نفسه من خلاله ويحفظ فرجه به فلا يتعدى على الأعراض ولا يفجر شهوته في غير محلها وتسير عجلة المجتمع بانضباط تام فلا ينحرف ويمنع الناس من الانحراف لأن الفساد يجر الفساد وإلى ذلك أشار الحديث الشريف المروي عن رسول الله ﷺ الذي يحث على الزواج المبكر المفيد: «**أيما شاب تزوج في حداثة سنه، عج شيطانه.. يا ويله يا ويله عصم مني ثلثي دينه فليتق الله العبد في الثلث الباقي**» (وفي رواية أخرى عصم دينه). وفي حديث آخر عنه ﷺ: «**إن الأبكار بمنزلة الثمر على الشجر إذا أدرك ثمارها فلم تجتن أفسدته الشمس ونثرته الرياح وكذلك الأبكار إذا أدركن ما يدرك النساء فليس لهن إلا البعولة وإلا لم يؤمن عليهن الفساد لأنهن بشر**»... فقام إليه رجل فقال: يا رسول

الله من نزوج؟ فقال ﷺ: **الأكفاء**.. قال الرجل: **ومن الأكفاء؟ فقال ﷺ: المؤمنون بعضهم أكفاء بعض**.

هذه الأحاديث ناظرة إلى ضرورة التعجيل في تزويج الشاب أو الفتاة ولعل التأكيد على تزويج الفتيات بعد بلوغهن ناتج عن نظرة المجتمع آنذاك إليهن حيث كانت المرأة للخدمة والجنس فقط في غالب الأحيان فمتى يصون المجتمع ويصلح كان الأمر بمثل هذه التوجيهات أما في زماننا وإن كثر الفساد وقل الوعي عند الشباب من الجنسين لا أعتقد أن هناك مصلحة من التعجيل في الزواج قبل النضوج الفكري والروحي والجسدي والعلمي لأن مثل هذه العناوين أصبحت من الضروريات في مجتمعاتنا.

ثانياً: يدرب الزواج المبكر الزوجين على تحمل المسؤولية والنزول إلى معترك الحياة بثبات وشخصية قوية وإدارة شؤونهم الأسرية بحيث يعتمدان على نفسيهما في تربية الأولاد وإنشاء المنزل وتحصيل المعاش وما إليه الذي بدوره يسهم في صقل الشخصية المسلمة القوية القادرة على مواجهة المصاعب والمسؤوليات الجسام.

ثالثاً: ما أوردناه من الأحاديث في الأمر الأول وغيرها مما لا يتسع المقام لذكره يظهر منه التعجيل في زواج الفتاة أكثر من الشاب مما يوحي بأن بقاء الفتاة بلا زواج يعرضها لمشاكل كثيرة كما في عصرنا كإطلاق لفظ العانس عليها أو عزوف الشباب عن الرغبة بها لتجاوزها سناً معيناً وهذا ما لا نلحظه في الشباب فإنه لو تأخر في الزواج لأسباب مادية فإنه لا يصبح مشكلة إلا من حيث انحرافه. وهذا يعني النظرة الاجتماعية الخاطئة تجاه الفتاة وليس ذلك نظرة الإسلام، إذ إن الإسلام يضمن حرية الفرد في الزواج ساعة يشاء ما دام صائناً لنفسه وربما تكون الأحاديث ناظرة لذلك الزمان الذي كانت فيه المرأة مقهورة لا حرية لها في العمل والخروج إلى معترك الحياة وتحمل المسؤوليات.

وهنا دعوة إلى الآباء بالسعي لتزويج فتياتهن لا انتظار الخطاب والإقلاع عن اشتراط الأمور التي ترهق كاهلهم وتحول دون الزواج.

المقام الثاني:

إن الزواج المتأخر يخلق الكثير من السلبيات والتعقيدات ويجر على صاحبه الويلات وعادة يتأخر بعض الناس بالزواج لأسباب يعتذرون بها ومنها:

١. عدم المقدرة المادية التي تساعده على تأسيس بيته وهذا في الحقيقة نوع من سوء الظن بالله، فبعد دراسة وضعه على قدر حاله كاختيار قليلة المهر واستبدال الملك بالإيجار ينبغي أن يسعى إلى الزواج وهنا قال عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]، وأما الأخبار التي تمنعهم عن مثل هذا التفكير فمنها: قوله ﷺ: «**من ترك التزويج مخافة الفقر فقد أساء الظن بالله عز وجل**».. وفي رواية أخرى «**ليس منا...**» وورد أيضاً: «**اتخذوا الأهل فإنه أرزق لكم.. إلا اللهم أن يكون الإنسان تحت خط العدم فحينئذ يأمره الله بالاستعفاف والسعي فيطلب الرزق والتوكل عليه ليجعل له من أمره مخرجاً وفرجاً**.

٢. ومنها الاعتذار من عدم وجود الشيء المناسب وهذا يعود إلى وضع شروط كثيرة التي قد يصعب إيجادها في مجتمعاتنا ويندر وجودها ويصبح ذوقه في الاختيار صعباً مستصعباً فيزيد في التأخير إلى أن يفوته القطار أو يصبح كهلاً ليرى أولاده الصغار فيحرم من هذه النعمة وقد يصل به الحال إلى الارتباط بأي كان لأنه أصبح في عمر لا تقبل به الصغيرة فتخرم شروطه وتتعس حياته.

٣. هناك نوع يترك الزواج رهبانية وهذا مرفوض في الإسلام حيث ورد عنه ﷺ قال لرجل: **ألك زوجة؟** قال: لا يا رسول الله قال ﷺ: **ألك جارية؟** قال: لا قال ﷺ: **أفأنت موسر؟** قال: نعم قال ﷺ: **تزوج وإلا فأنت من**

---

(١) سورة النور، الآية: **٣٢**.

المذنبين وفي رواية أخرى: «**فأنت من إخوان الشياطين**».

وقال الإمام الرضا عليه السلام لامرأة تركت الزواج لالتماس الفضل فقال: «**انصرفي فلو كان في ذلك فضل لكانت فاطمة عليها السلام أحق به منك، إنه ليس أحد يسبقها إلى الفضل**».

وقد يكون هناك أعذار أخرى مثل ترك أو تأخير الزواج لغاية التحصيل العلمي وغيره تراعى بحسب حالها ويرجع فيها إلى أهلها.

والآثار السلبية على المتأخر بالزواج ينبغي له مراعاتها والتفكر فيها ملياً ليأخذ قراره سريعاً في العودة عن تأخره مرّ في طي الكلام بعضه وأذكر بعضها ومنها:

* إذا تأخر الإنسان بالزواج الذي هو بحكم الغريزة والفطرة مفتقر إلى القرين وعلى ذلك حال الكون بأسره وفي جميع المخلوقات حيث إنه قائم على قانون الزوجية والإيجاب والسلبية فمع عدم وجود الشريك الذي يؤنس وحدته ويزيل وحشته ويخفف آلامه ويتسامر معه ويركن إليه لا أنيس ولا جليس يبث إليه بأسراره ويشكو إليه أحواله ومن أفضل من القرين في مثل هذه الأمور؟.

* تقل رغبته في تحصيل المعاش ويختل عنده النظام العام في الحياة فليس من هو مسؤول عنه ليسعى إلى إعاشته فيعدم المسؤولية وعنه صلى الله عليه وآله: «**اتخذوا الأهل فإنه أرزق لكم..**» أي عند تحمّل المسؤولية تسعى بكل قوتك لإيجاد الأعمال التي توفر الرزق وتزيد المال أضف إلى أنه ينثر أمواله يمنة ويسرة وينتقل من واحدة إلى أخرى فيفقد الاستقرار ويعدم المسؤولية وقد يؤدي به ذلك إلى الاتكالية والنتيجة عالة على المجتمع.

* يتحول العازب إلى مشكلة في المجتمع من نواحٍ عدة لأن الكبت يحوله إلى إنسان عصبي المزاج حاد الطباع ينفر منه المقربون ويوقعه في كثير من المحرمات الجنسية وغيرها فقد يعتدي على الناس بالضرب والفحش أو على الأعراض بالزنا وغيره وبذلك يكون أحد عوامل الفساد، ولذا نهى النبي عن البقاء في العزوبية بتأخير

الزواج أو تركه بقوله ﷺ:

«**شراركم عزابكم... أراذل موتاكم عزابكم... أكثر أهل النار من العزاب لأنهم يعطلون السنن ويحيون البدع ويضيعون النطف وينشرون الفساد فيستوجبون العقاب**».

المقام الثالث:

هذا كله مربوط بأصل حسن الاختيار من الطرفين حتى لا يقعا في المشاكل التي تخرب الأسرة أو تضيع الحقوق فيندمون بعد فوات الأوان ونورد هنا جملة من الأخبار تحدد أوصاف الزوجين ليستعين بها من يسلك هذا الطريق ويبتعد عن أفكاره:

فعن النبي ﷺ: «**إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته يخطب إليكم فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**».

وعن الرضا عليه السلام: «**إذا خطب اليك رجل رضيت دينه وخلقه فزوجه ولا يمنعك من ذلك فقره وفاقته قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾**[1]».

وكثير من هذه الأحاديث الناظرة إلى الدين والخلق والأمانة لا إلى المال والجاه والسلطة وذلك لتسيير أمر الزواج وعدم خلق مشكلة كثرة العوانس في المجتمع... وقد ورد أيضاً في الرجال: «**إن خير رجالكم التقي النقي السمح الكفين (السخي) السليم الطرفين (عفيف الفرجين) البر بوالديه ولا يلجئ عياله إلى غيره**».. كما ورد في صفات الزوجة: «**الولود الودود التي تعين زوجها على دهره لدنياه وآخرته ولا تعين دهره عليه (بكثرة المطالب) تسمع قوله وتطيع أمره، متبرجة له حصان على غيره، عفيفة، حافظة له في غيبته، حسنة لينة، قليلة المهر مؤمنة صالحة**».

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٠.

فإذا توفرت هذه الشروط فأي عذر لتأخير الزواج. . المهم أن نحسن الظن بالله تعالى ونتوكل عليه ولو عملنا بمضمون هذه الأحاديث لما وجدنا أية مشكلة وليسرنا على أنفسنا وعلى غيرنا الكثير من المشاكل والعقبات، وأما إذا لم تتوفر هذه المواصفات إضافة إلى إمكانية إعالة الزوجة والقيام بشؤونها خصوصاً في هذا الزمن الذي ارتفعت فيه أثمان السكن والمعيشة بخلاف ماضي الزمان الذي يسهل فيه إيجاد البيت بحيث يبني غرفة بجوار أهله أو خيمة ليسكنها مما لا يمكن العيش فيه في هذا الزمن وكما هو معلوم فإن لكل زمان متطلباته فمع عدم توفر الإمكانيات المادية والمواصفات الأخلاقية ربما يكون تأخير الزواج أسلم من أن نجر البلاء إلى بنات الناس والله العالم.

الروابط الاجتماعية في الأدعية

لقد أولى الإسلام أهمية كبيرة للدعاء باعتباره الأساس في بناء الشخصية الإيمانية والروحية التي تمثل ارتباطاً وثيقاً بين الله وخليفته في الأرض وربما نستطيع القول أن الخلافة الصحيحة للإنسان في الأرض يستحيل أن تتحقق من دون ذلك الدور العظيم الذي يؤديه الدعاء ولذلك كان مخ العبادة وأصلها، والدعاء ليس فقط صرخة إنسانية أمام الله تعالى لبلوغ حاجة أو رغبة لدى العبد ولا الاستعانة به للابتعاد عن موقع رهبة أو خوف وليس محصوراً في ابتهال إنساني أمام الألطاف الإلهية للتخلص من آلام ذاتية ومشاكل عملية وليس فقط حالة بكائية تخشيعية يستعطف فيها العبد ربه ليخلصه من نار جهنم وأهوال القيامة وعذاب القبر والفوز بالجنة والرضوان.

بل الدعاء إضافة إلى ذلك كله فيه تطلعات إنسانية روحية مجتمعية وتخطيطات عملية ومشاريع أخلاقية، إنه انفتاح على الحياة كلها بكل قضاياها ومشاكلها وهمومها، ولذلك نجد أن الدعاء في الوقت الذي يعلمنا فيه الوقوف بين يدي الله تعالى أذلاء خاشعين متضرعين إليه في وقفة حساب مع الذات لتذكر ذنوبها ومعاصيها والتوبة منها والتقرب اليه بالاستغفار تؤكد الإخلاص بالنية لتخرج إلى الحياة طاهراً من الذنوب مواجهاً لكل مفاسدها بالحكمة والموعظة الحسنة فتأمر بالمعروف لأن تركه معصية وترفع الظلم لأن الإعانة عليه حرام وتشكر النعم وترشد الضال وهكذا، وبحثنا هنا يدور حول العلاقة الاجتماعية

بلسان الدعاء فقد وردت أدعية كثيرة تعلم الإنسان في تربيته الروحية الارتباط بمجتمعه والشعور مع الآخرين أحياء وأمواتاً وحقوقهم عليك في الدعاء، ولذا لن نتناول الدعاء من كل جوانبه فيقع البحث في عناوين خاصة.

دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب:

من الروائع الإيمانية الروحية أن بعض الأدعية تشتمل على الشعور بمسؤولية ذكر الإخوان المؤمنين وحضورهم في دعائك وأنت تجلس بين يدي الله وحيداً فريداً وليس ذلك إلا لتعزيز العلاقة مع المؤمنين وحمل قضاياهم في سرك وعلانيتك ومشاركتهم في همومهم وآلامهم لتسأل الله تعالى لهم الفرج والمغفرة وما إلى ذلك، لذا حث الإسلام على هذه الخصوصية فقد ورد في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «**أسرع الدعاء إجابة دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب... بالدعاء لأخيه فيقول له ملك موكل به آمين ولك مثلاه**».

ولم يكتف الإسلام لإعطاء جائزة للداعي لأخيه مثلي ما سأل له بل زاد على ذلك وجعل الدعاء للمؤمنين مصدراً لنزول الرزق ورفع البلاء، فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «**دعاء المؤمن للمؤمن يدفع عنه البلاء ويدر عليه الرزق**»... ومثله روايات عدة... وهذه التربية لها فوائد عديدة فهي توثق العلاقة بين المؤمنين والاهتمام بقضاياهم والعمل على رفعها مع المقدرة وتحطيم الأنا في الذات بحيث لا يبدأ في الدعاء لنفسه وينسى إخوانه فلا يشاركهم في شيء مما يشعرون به ويعيشون من ضغوط الحياة ومشاكلها وحتى يوثق الإسلام هذه الفائدة جعلها سبباً لاستجابة الدعاء، فقد ورد أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «**ادعني بلسان لم تعصني به فقال: يا رب أنى لي ذلك؟ فقال: ادعني على لسان غيرك**» فإذا قمت بالدعاء للآخرين وقام الآخرون بالدعاء لك لأنك لم تعص بلسانهم ولم يعصوا بلسانك فتستجاب الدعوات من خلال الرابط والشعور الاجتماعي الرائع بين المؤمنين، وورد عن الباقر عليه السلام: «**أوشك دعوة وأسرع إجابة دعاء المرء لأخيه بظهر الغيب**».

الدعاء للوالدين والولد والذرية:

ولم يقتصر الدعاء في تعليم الناس للشعور بقضاياهم بل علم الإنسان بحق والديه عليه بالدعاء لهم بالمغفرة والتوبة لأنهم الذين قاموا بدور التربية له والاهتمام والرعاية له منذ صغره، بل من حين انعقاد نطفته في رحم أمه وأول من علمنا الدعاء للوالدين وللمؤمنين هو أبونا إبراهيم عليه السلام حيث قال تعالى ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[1].

وقد جاء في دعاء السحر للإمام زين العابدين عليه السلام: «**يا خير من سئل وأجود من أعطى... سؤالي في نفسي وأهلي ووالدي وولدي وأهل حزانتي وإخواني فيك؟**».

وفي دعاء آخر له عليه السلام في نهار شهر رمضان: «**واغفر لي كل ما سلف من ذنوبي واعصمني فيما بقي من عمري واستر علي وعلى والدي وولدي وقرابتي وأهل حزانتي ومن كان مني بسبيل من المؤمنين والمؤمنات في الدنيا والآخرة فإن ذلك كله بيدك وأنت واسع المغفرة فلا تخيبني يا سيدي: ولا ترد دعائي ولا تغل يدي إلى نحري حتى تفعل ذلك بي وتستجيب لي جميع ما سألتك**».

هذا المقطع الرائع يعلمنا كيف تتحرك أحاسيس المؤمن مع كل من يحيط أو يتعلق به من الأقارب والأهل ومن يشاركه في دينه من المؤمنين والمؤمنات فإذا سأل الله شيئاً سأل لكل هؤلاء وإذا استغفر استغفر للجميع وإذا طلب ستر أو قضاء الحوائج طلبها للكل.

وفي دعاء أبي حمزة الثمالي ويدعى به في قنوت الصلاة: «**اللهم اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً واجزهما بالإحسان إحساناً وبالسيئات عفواً وغفراناً واغفر للمؤمنين والمؤمنات**» هذا كله يعطينا فكرة واحدة وهي أن المؤمن لا يعيش وحده بل ضمن أمة فيها القريب وفيها البعيد الذي يشترك معه في الدين، ولكل

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤١.

هؤلاء حقّ عليه بالقرابة أو الأخوّة فعليه أن يرتبط فيهم ويشعر معهم ويعيش أحاسيسهم وآلامهم في كل ما يتحركون أو يفعلون أو يعانون من ضغوط. فالشعور لا يكون فقط بإظهار بعض كلمات المجاملة بل يعلمنا الدعاء كيف نوثق عرى هذه العلاقة معهم بالدعاء لهم في سرنا وابتهالنا.

وأيضاً... الدعاء في ذكر ذرية الإنسان وإن لم تولد بعد ليسأل الله لها الصلاح والإصلاح ولتكون سائرة على نهج الإيمان الصحيح في التواصل مع من سبقها من الصالحين في خط الاستقامة والطاعة لله عز وجل وقد جاء ذلك على لسان نبينا إبراهيم عليه السلام في سورة إبراهيم في قوله تعالى من الآية ٤٠ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾.

الدعاء للجيران:

وهكذا تؤكد بعض الأدعية خصوصية للجار توليه أهمية وعناية خاصة وليس ذلك إلا لأجل الإحساس بالعيش المشترك والشعور بالوحدة وحمل همومهم لأن الجار الذي تراه كل يوم ويراك بمثابة من يعيش في بيتك فكما لهؤلاء حق عليك لقربهم في السكن، وإذا عاش هذا الإحساس الجميل فإنه لا محالة سيبتعد عن أذاهم ومضايقتهم لأن من يعيش هم جاره فيدعو له بظهر الغيب حرصاً عليه بطريق أولى سيدفعه ذلك لعدم أذيته، ومن أروع هذه الأمثلة ما جسدته سيدة نساء العالمين الزهراء عليها السلام حيث كانت تدعو لجيرانها فيسألها ولدها الحسين عليه السلام بأني لا أراك تدعين لنفسك فتقول: يا بني الجار ثم الدار، وهناك إشارة للجار في كثير من الأدعية ندع ذكرها هنا.

تحمّل المسؤولية في الدعاء:

وهناك بعض الأدعية تقوم بدور تعليم الإنسان وظائفه في الحياة وتحمّل مسؤولياته تجاه من يحتاج إلى علمه فيبذل له علمه ومن يحتاج إلى قوته فيساعده، ومن يحتاج إلى موقفه فيقدمه ومن يحتاج إلى نصيحة فينصحه وإرشاد فيرشده

ولكل ذي حاجة قادر أنت على القيام بها أن تقوم بها مادية كانت أم معنوية وتحمل مسؤولية المؤمن عن الإسلام في حياطته وحمايته من كل شائبة وعائبة، ففي دعاء زين العابدين في كل يوم: «**ووفقنا في يومنا هذا وجميع أيامنا لاستعمال الخير وهجران الشر وشكر النعم، واتباع السنن ومجانبة البدع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحياطة الإسلام وإرشاد الضال وانتقاص الباطل وإذلاله ونصرة الحق وإعزازه ومعاونة الضعيف وإدراك اللهيف**» فهذا كله يعني أن الإنسان مسؤول عن كل ما حوله بكل ما أوتي من نعمٍ ليبذلها لمن يحتاجها ليتكامل مع مجتمعه وأنه لم يخلق عبثاً بدون مسؤوليات، حتى على المستوى الفكري عليه أن يبتعد عن البدع والخرافة التي أُدخلت على الدين ليعيش السلامة من كل شائبة.

الدعاء للأموات:

وكذلك اهتم الإسلام من خلال بعض الأدعية بالتواصل مع الأموات في عملية تذكر للموت من جهة وأننا صائرون إليه وعدم نسيان أمواتنا فندعو لهم بالرحمة والمغفرة «**اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات تابع بيننا وبينهم بالخيرات**» والمتابعة بين الأحياء والأموات ليس فقط بالدعاء لهم، بل بوصلهم بصدقة تارة وقراءة فاتحة أخرى وكل عمل يعود عليهم بالراحة والسكينة في آخرتهم من أعمال البر والخير.

ولذا جاء أيضاً في بعض أدعية شهر رمضان التي تقرأ عقب كل صلاة: «**اللهم ادخل على أهل القبور السرور**» ـ لتشعر وأنت تقرؤه كأن رسول الله ﷺ يريد هنا أن تشعر مع الميت في وحشته ووحدته ووجيب قلبه بين يدي ربه المحتاج إلى رحمته ليطمئن قلبه بإدخال السرور عليه من خلال الدعاء. وفي هذا الدعاء الصغير نفسه ذي المعاني الجليلة والمقامات الرفيعة أذكره لك لتقف عند بعض مقاطعه لأنه يمثل التواصل مع كل بني البشر أحياءً وأمواتاً والأحياء في كل طبقاتهم ومشاكلهم ونص الدعاء كما يلي:

«اللهم ادخل على أهل القبور السرور، اللهم اغن كل فقير، اللهم اشبع كل جائع، اللهم اكس كل عريان، اللهم اقض دين كل مدين، اللهم فرج عن كل مكروب، اللهم رد كل غريب، اللهم فك كل أسير، اللهم اصلح كل فاسد من أمور المسلمين، اللهم اشف كل مريض، اللهم سد فقرنا بغناك، اللهم غيّر سوء حالنا بحسن حالك اللهم اقض عنا الدين واغننا من الفقر إنك على كل شيء قدير».

الشعور مع ذوي الحاجات:

نستوحي من بعض فقرات هذا الدعاء أن يعيش الإنسان حالة التكافل الاجتماعي من خلال الشعور بجوع وكسوة العريان وقضاء دين المدين، فإذا لم يستطع المؤمن أن يوفق بقضاء حوائج هؤلاء من خلال أخوّتهم له فلا أقل أن يشعر بحالتهم ليدعو الله لهم بالفرج عما هم فيه ورفع الكرب لما نزل بهم، ونتصور أن كل مسلم يدعو بهذا الدعاء ويعيش مع مضامينه بقلبه وأحاسيسه وعقله فهل يبقى جائع أو عريان أو مدين أو صاحب حاجة؟ بالعكس تماماً سيتحول المجتمع المسلم إلى مجتمع يسعى بعضه لسد النقص عند بعضه الآخر ويتكافل مع بعضه ويتكامل نحو السعي لإيجاد الحلول لذوي الحاجات.

الشعور مع المهاجرين والأسرى:

ومن لطائف هذا الدعاء وخصوصاً ونحن في أجواء شهر رمضان أن على المؤمن أن يتواصل ليس مع الذين يعيشون في بلده فقط، بل أن يفكر بالذين هاجروا وتركوا الديار طلباً للرزق أو العلم أو غير ذلك ليدعو لهم بالعودة إلى ديارهم سالمين وهذا المعنى نفسه نجده في أدعية أخرى.

وكذلك الأسرى الذين يعيشون ظلم وظلامة السجون يجب أن نذكرهم في دعائنا ونطلب من الله تعالى الفرج لهم لنعيش قضيتهم الحقة التي أُسروا لأجلها فنكمل الطريق بعدهم وليبق الأسير حاضراً في حياة المسلمين ولا يصبح من المنسيين.

الدعاء للأمة:

ومن روائع هذا الدعاء، الدعاء للأمة بالصلاح خصوصاً بعد انتشار الفساد فيها لترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولعدم قيام الأهل بوظيفتهم التربوية الإيمانية لأبنائهم وعدم إدخال البرامج الدينية إلى المدارس وفساد الحاكم الذي يسمح بإدخال الفساد إلى بلاده، أو الفساد الفكري المتمثل بالخرافة والغلو والبدع التي يدخلها أعداء الدين والجهلة وبعض متزعمي العلم لتصبح على مر الوقت من أسس الدين وإنكارها كفر عظيم. يريدنا رسول الله ﷺ عندما نقول: اللهم غيّر سوء حالنا بحسن حالك أو قوله: اللهم اصلح كل فاسد من أمر المسلمين أن تقوم بفعل الصلاح ورفض الفساد لأن كل مسلم إذا دعا بذلك ورفض الفساد ضاقت دائرته وقلت شوكته وعلا صوت الحق وإلا نحن نعلم بأن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فإذا لم تقم الأمة بإصلاح ما فسد فيها وتسأل الله الإعانة والتسديد للقيام بدور الصلاح يكون الدعاء حينئذ لا فائدة منه.

هكذا نفهم الدعاء لا أن نجلس لندعو الله بإصلاح أمورنا وفسادنا ولا نحرك ساكناً أمام كل ما نراه من منكر في الأمة «**وإن وصول الأمة الإسلامية إلى ما وصلت اليه من هذا الانحدار والفساد ناتج عن عدم التفاعل مع لسان الدعاء**» لأن هذا الدعاء يدعو به جميع المسلمين وحالهم إلى يومك هذا كما ترى مقسمين مشرذمين يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً ويركعون أمام المستكبرين... ويتسلطون على رقاب المؤمنين ويدخلون إلى بلادهم شتى المفاسد فأدى بهم الحال إلى الفساد وترك الصلاح ولم يقتصروا على ذلك، بل حاربوا كل من ينادي بالصلاح والإصلاح. وكذا الدعاء للمرضى من الأمة في أحد فقرات هذا الدعاء فالتوجه إنما يكون لله عز وجل لأن بيده شفاءهم، وفي آخر مقاطع الدعاء الملاحظ أنه ترك الدعاء لنفسه إلى آخر الدعاء وهذا يعطينا فكرة وهي الاهتمام بقضايا الجميع على اختلافها

قبل الاهتمام بقضايا نفسك وهذا غاية في الإيثار وتقدير الآخرين حتى في لسان الدعاء.

وأختم الكلام بالدعاء لمن نقوم بظلمهم فإننا نتعلم من بعض الأدعية خصوصاً بعض فقرات دعاء يوم الإثنين للإمام زين العابدين عليه السلام الذي يعلمنا كيف لا ننسى ظلمنا للآخرين من خلال الاعتداء عليهم أو على أموالهم بتناولهم بالكلام المسيء من خلال ذكرهم في المجالس لفضحهم بالغيبة أو بالتحامل عليهم بالبهتان والكذب مما يثيره الناس فيما بينهم ليسقط بعضهم بعضاً أو ليتشفى بعضهم من الآخرين فنذكرهم في دعائنا لنستغفر الله لهم ولكي لا ننسى أعمالنا السيئة التي قمنا بها تجاه الآخرين فلا تتكرر هذه الأفعال منا مرة أخرى شعوراً منا بقبح أعمالنا تجاه من ظلمناهم فنتواصل معهم بالدعاء ونسأل الباري لهم المغفرة وأن يحللنا ممّا تعلق في ذمتنا ولذا جاء في دعاء يوم الإثنين للإمام زين العابدين عليه السلام: «**فأيما عبد من عبيدك أو أمة من إمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه في نفسه أو في عرضه أو في ماله أو في أهله وولده أو غيبة اغتبته بها أو تحامل عليه بميل أو هوى أو أنفة أو حمية أو رياء أو عصبية غائباً كان أو شاهداً وحياً كان أو ميتاً فقصرت يدي وضاق وسعي عن ردها إليه والتحلل منه فأسألك يا من يملك الحاجات وهي مستجيبة بمشيئك أن ترضيه عني بما شئت وتهب لي من عندك رحمة إنك أنت الوهاب**».

خطاب العقل والوجدان في الصحيفة السجّادية

لكل إنسان بُعدان، البعد المادي الذي يسعى لإشباعه في مسيرة الحياة فإذا جاع أكل وإذا عطش شرب وإذا ألحت عليه الشهوة قضى منها وطراً. والبعد الثاني الذي هو محور الحديث البعد الروحي فيما يعيشه من نقص أمام الكمال المطلق ليتقوى به في ضعفه وليلجأ إليه في شدته وليستعين به على قضاء حاجته وليتضرع أمامه عند زلته وليؤدي بعض حقه في شكره وما إلى ذلك. وهذا البعد ذو أهمية كبرى لأنه يحدد مصير الإنسان ونمط سيره وسلوكه. وبما أننا نعتقد أن الحياة طريق وممر يعبره الإنسان إلى الحياة الأبدية فإذا أراد الإنسان بعد التفكر والتدبر أن يحيا في تلك الحياة سعيداً لا بدّ أن يسعى في هذه الحياة للاستجابة لهذا البعد الروحي.

من خلال الارتباط بالله عز وجل، والذين يسيرون في غير هذا الاتجاه لجهلهم أو لقساوتهم ويستجيبون لرغبة الشهوات والملذات لا بدّ أن يشعروا ولو بعد حين بالنقص الفظيع في داخلهم، وهنا أسلط الضوء على أروع كلمات تركت أثراً لملء هذا الفراغ في جمالية التصوير وسلاسة العبارة وعمق المعنى وتصحيح المسار في شتى أنواع الارتباط بدءاً من الاعتراف بالوحدانية والتدبير والسلطة المطلقة لله، ثم كيفية الحمد والثناء ثم العلاقة مع الإنسان في حقوقه الإيمانية، والخضوع أمام الجبروت والربوبية والتوبة والشعور بالعجز المطلق أمامه والاعتراف بالمآثم ثم انتهاءً بالعيش في أجواء الآخرة بكل تفاصيلها وأمور أخرى لم أذكرها كل ذلك بأسلوب الدعاء المستبطن للخضوع والابتهال إقراراً ومعرفة وخشية، أعني بذلك الصحيفة السجادية ذلك الأثر الرائع الذي تركه الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

الاعتراف بالوحدانية:

في أول دعاء له عليه السلام في الصحيفة يبدأ بالاعتراف بوحدانية الله عز وجل وحمده حيث يقول: «**الحمد لله الأول بلا أول كان قبله والآخر بلا آخر يكون بعده قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين وعجزت عن نعته أوهام الواصفين**».

كلمات جميلة تظهر معتقداً عظيماً بأسلوب الحمد للخالق الأوحد الذي مهما حاولت أوهام الواصفين من خلال التفكر في ذاته وصفاته فإنها لا تصل إلى حقيقة المعنى وكيف يدرك المحدود اللامحدود لتكون النتيجة إظهار العجز عن وصفه.

ثم يأتي الفصل الثاني من الدعاء ليثير الحمد للخالق في جميل صنعه وحسن ابتداعه وعظيم قدرته من وحي إرادته عز وجل إذ يقول عليه السلام: «**ابتدع الخلق بقدرته ابتداعاً واخترعهم على مشيئته اختراعاً ثم سلك بهم طريق إرادته وبعثهم في سبيل محبته**».

ثم يسلِّط الضوء على ضرب الآجال للمخلوقات لأنها المحدودة في وجودها إذ يقول: ثم ضرب لهم في الحياة أجلاً موقوتاً ونصب لهم أمداً محدوداً يتخطى إليه بأيام عمره ويرهقه بأعوام دهره. ولا يسعنا أن نسلط الضوء في هذا المختصر على كل أدعيته لأننا نطلب عناوين أساسية فيها فلننقل الحديث إلى عنوان آخر.

في العلاقة الإنسانية:

يحدد الإمام عليه السلام في دعاء يوم الإثنين نموذجاً رائعاً في كيفية الاعتراف بالتقصير مع الناس الآخرين والإساءة لينطلق في أول الأسبوع إنساناً نظيفاً متحللاً مما في عنقه للناس ليبادر إلى عدم العودة لمثلها، إذ يقول عليه السلام: «**اللهم إني أستغفرك لكل نذر نذرته ولكل وعد وعدته ولكل عهد عاهدته ثم لم أف لك به، وأسألك في مظالم عبادك عندي فأيما عبد من عبيدك أو أمة من إمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه في نفسه أو في عرضه أو في ماله أو في أهله وولده أو غيبة اغتبته بها أو تحامل عليه بميل أو هوى أو أنفة أو حمية أو رياء أو عصبية غائباً كان أو شاهداً وحياً كان أو ميتاً فقصرت يدي وضاق وسعي عن ردّها إليه والتحلل منه**».

إنها العلاقة الصحيحة مع الإنسان أياً كان وهي تبتنى على الاستغفار لحفظ حق كل إنسان ولو في غيبته وعدم حضوره ليبتعد عن ظلمه أو الإساءة إليه. والمتابع لأدعية الصحيفة يجد مقاطع أخرى ذات معانٍ جليلة في العلاقات الإنسانية منها ما ورد في دعاء الصباح والمساء حيث يحدد برنامجاً عملياً يومياً لتلك العلاقة بقوله عليه السلام: «**ووفقنا في يومنا هذا وليلتنا هذه وفي جميع أيامنا لاستعمال الخير وهجران الشر، وشكر النعم واتباع السنن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لأن في ذلك صلاح المجتمع، وأي علاقة بين الناس أجمل من أن يسدي الإنسان لأخيه الإنسان النصيحة في الخير ليبعده عن كل مواطن الفساد الذي يؤذي به نفسه ومجتمعه**».

ثم يقول: «**وإرشاد الضال ومعاونة الضعيف وإدراك اللهيف**». ليكون الإنسان الذي يسعى إلى إنشاء الخير في مجتمعه، وليكون نفاعاً وشاعراً بكل أحاسيسه مع الضعفاء والملهوفين فيتكامل معهم ويتكافل مجتمعهم بذلك كله.

ثم يؤكد عليه السلام في أدعية أخرى على الروابط الرحمية بين الناس لأن بها قوام المجتمعات إذ يقول في الدعاء لوالده: «**واخصص اللهم والدي بالكرامة لديك والصلاة منك يا أرحم الراحمين. وألهمني علم ما يجب لهما علي إلهاماً... واجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف وأبرهما برّ الأم الرؤوف واجعل طاعتي لوالدي وبري بهما أقرّ لعيني من رقدة الوسنان**». وفي فقرة جميلة من الدعاء يقر بحقهما عليه طالباً من الله جزاءهما: «**اللهم اشكر لهما تربيتي وأثبهما على تكريمي واحفظ لها ما حفظاه مني في صغري**». وهكذا يستمر الإمام في الدعاء لوالديه ويعلمنا من خلال ذلك أن ندعو لآبائنا وأمهاتنا بحيث لا ننسى ذكرهما والدعاء لهما في آناء الليل وأطراف النهار اعترافاً منا بجميل صنعهما معنا باعتبار أنهما الأصل الذي كنا منه ولتشملهما رأفة الله تعالى ورحمته ومغفرته ولنبقى عارفين لحقهما علينا ما حيينا.

ثم يدعو الإمام لولده باعتباره امتداداً له في الحياة ويمدونه بالعون آخر عمره ويقدمون له الإحسان والبر بعد موته فلا ينقطع عمله من خلال صلاحهم إذ يقول عليه السلام: «**اللهم ومن علي ببقاء ولدي وبإصلاحهم وبإمتاعي بهم.. اللهم اشدد بهم عضدي وأقم بهم أودي وكثر بهم عددي**».

ثم يتوجه بدعائه لجيرانه ومواليه ومن وصله في شعور عاطفي معرفي بحسن المعاملة معهم وطلب العفو لهم ليبقى الود والمحبة قائماً بينهم في تواصل اجتماعي تحوطه الروعة فيهتم لهمّهم ويفرح لفرحهم ويرجو لهم الخير في أحوالهم والمغفرة لإساءاتهم ويطلب من الله التوفيق والإحسان للمسيء منهم والتجاوز عن الظالم فيهم مما فلا نجد أرفع من هذا الشعور قال عليه السلام: «**وتولني في جيراني وموالي والعارفين بحقنا والمنابذين لأعدائنا بأفضل ولايتك ووفقهم لإقامة سنتك والأخذ بمحاسن أدبك في إرفاق ضعيفهم.. وسد خلتهم. وعيادة مريضهم وهداية مسترشدهم ومناصحة مستشيرهم. وتعهد قادمهم... اللهم اجز بالإحسان مسيئهم واعرض بالتجاوز عن ظالمهم**».

وهكذا لم ينس صلوات الله عليه الدعاء بالصلاح للناس سائسهم ومسوسهم، حرّهم ومملوكهم، ذكرهم وأنثاهم وجميع طبقات المجتمع حتى أهل الثغور الذين يحرسون البلاد وإن كان على خلاف معهم لأنهم حماة الأوطان حيث يقول: «**وحصن ثغور المسلمين بعزتك وأيد حماتها بقوتك...**» إلى آخر الدعاء.

ثم لم ينس التواصل حتى مع الأموات في عدم نسيانهم بالبر الذي هم يحتاجونه في وحدتهم «**واغفر للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات...**».

أيها القارئ العزيز مهما بحثت لتجد دستوراً يرتفع بالعلاقات الاجتماعية إلى أعلى المراتب الشعورية لا القانونية الجافة فقط فلن تجد أروع من الصحيفة السجادية فإنها تدلك على الطريق وتهديك السبيل.

وقيمة الدعاء أنه ينفتح بالإنسان على الله ليطوف بفكره في مواقع عظمته

ومجالات نعمته ليتعرف إليه في كل صفة من صفاته فينتقل إلى درجة الخضوع والخشوع في معرفة حدود النفس وقدراتها ومكامن الضعف فيها والحاجة إليه سبحانه في كل حياته وتفاصيلها وفي الخلاص من عذاب القيامة والآخرة و. . . فينقطع إلى الله ولا يأنس بسواه ولا يطلب ممن عداه وهذا هو مضامين أدعية كثيرة في الصحيفة.

مهما بحثت لتجد دستوراً يرتفع بالعلاقات الاجتماعية إلى أعلى المراتب الشعورية لا القانونية الجافة فقط فلن تجد أروع من الصحيفة السجادية فإنها تدلك على الطريق وتهديك السبيل.

جهاد النفس

كل الصفات والملكات الحسنة التي يحصل عليها الإنسان وكذا بعده عن الرذيلة والملكات الدنيئة والتخلص منها يحتاج إلى المرور بالسلوك القويم والسير على الصراط المستقيم ليكتسبها وليس هذا إلا جهاد النفس وتأديبها، وبعبارة أخرى علم الأخلاق وتطبيقه وممارسته عملياً في الوصول إلى الفضيلة والابتعاد عن الرذيلة متوقف على ذلك. ولذا سمي في الأحاديث بالجهاد الأكبر، أي ترويض النفس على الفضائل والأخلاق وإبعادها عن مساوئها، بل إن جهاد العدّو الخارجي متوقف عليه لامتلاك الشجاعة ومعرفة الحق وأهله والصبر على الأذية وتحمل المشاق المترتبة على منازلة العدّو وما إلى ذلك وكلها من الأخلاق والأخلاق متوقفة على جهاد النفس.

شواهد من القرآن:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1].

قال السيد الأستاذ (حفظه المولى) في معرض التعليق على هذه الآية: إنهم المجاهدون في الله الذين تحرك جهادهم في الدائرة الإلهية فلا يتحركون به بعيداً عنها بل يتعدون في كلّ طاقاتهم إلى ما يريده الله في جانب العقيدة والعمل ليؤكدوا

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

موقفهم عنده وليتحركوا معه في جهاد النفس... بمحبة الله وفي جهاد الشيطان ليعطلوا حركته وليفسدوا خططه... وفي جهاد العدّو ليحفظوا للإسلام قوته وللمسلمين حريتهم وعزتهم... ويريد للإنسان أن يحققه في نشاطه وجهده من أجل بناء الحياة على الأسس الأخلاقية والروحية والعملية الثابتة التي تؤدي بالإنسان إلى محبة الله ورضوانه والدخول في جنته[١].

شواهد من الحديث وعناوين:

١. الجهاد الأكبر:

إن رسول الله ﷺ بعث بسرية فلما رجعوا قال: «**مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر**، قيل يا رسول الله ﷺ: وما الجهاد الأكبر؟ قال: **جهاد النفس** ثم قال ﷺ: **أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه**»[٢].

عن الأمير عليه السلام قال: «**أفضل الجهاد جهاد النفس عن الهوى وفطامها عن لذات الدنيا**»[٣].

٢. جهاد النفس:

عن الإمام الباقر عليه السلام: «**إن المؤمن معني بمجاهدة نفسه ليغلبها على هواها فمرة يقيم أودها ويخالف هواها في محبة الله ومرة تصرعه نفسه فيتبع هواها فينعشه الله فينتعش ويقيل الله عثرته فيتذكر**»[٤].

أقول: إن الله تعالى يعلم أن الإنسان ليس معصوماً وقد خلقه كذلك، لكن هيأ له سبل الخير وإمكانية سلوكها فإذا أحب الله جاهد نفسه وغلبها أحياناً وتغلبه أخرى

---

(١) من وحي القرآن: ج١٨، ص٩٠.
(٢) بحار: ج٧، ص٦٥.
(٣) ميزان الحكمة: ج٢، باب جهاد النفس.
(٤) بحار الأنوار: ج٧٨، ص١٦٣.

ولكن إذا غلبه هواه وأعلن شقوته على المعصية وغره ستر الله المرخى عليه يعود إلى ربه فيتوب فينعشه الله ويقبل توبته وهذا من منته تعالى على عباده.

وقال الأمير عليه السلام: «**ردّ من نفسك عند الشهوات وأقمها على كتاب الله عند الشبهات**»(١).

٣. مصارعة النفس كالعدو:

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اجعل نفسك عدوّاً تجاهده وعارية تردها فإنك قد جعلت طبيب نفسك وعرفت آية الصحة وبين لك الداء ودللت على الدواء فانظر قيامك على نفسك**»(٢).

أقول: هذا من أروع الأحاديث في توصيف الداء ومعرفة علاجه، فمصدر الشقاء هو العدوّ والنفس الميالة إلى الذنوب والهوى عدوّ لأنها تؤدي به إلى الشقاء وإذا انحرفت النفس فقد استعارها الشيطان لأنها بالأصل نفس رحمانية، فالإنسان معني بردها ومقارعة العدوّ فيها لأنه الطبيب، والدواء في شرع الله بينٌ واضح وفي كتابه كل الشفاء والسعادة فهل يعقل هذا الإنسان ويتحمل مسؤولية في علاج نفسه؟ وقال الأمير عليه السلام: «**جاهد نفسك على طاعة الله مجاهدة العدوّ عدوّه وغالبها مغالبة الضد ضده فإن أقوى الناس من قوي على نفسه**»(٣).

قال الأمير عليه السلام: «**جاهد نفسك وحاسبها محاسبة الشريك شريكه وطالبها بحقوق الله مطالبة الخصم خصمه**»(٤).

أقول: وهذا حديث جميل في التعامل مع النفس بحيث يشبهها الأمير عليه السلام

---

(١) ميزان الحكمة: ج٢، ص١٤٠.
(٢) البحار: ج٧٨، ص٢٨٣.
(٣) ميزان الحكمة: باب مجاهدة النفس.
(٤) م.ن: باب الجهاد الأكبر.

بالشريك في العمل فكما لا تترك لشريكك أي شيء إلا تسجله حين الحساب من الضرائب ومصاريف العمل والصادر والوارد وحاجيات العمال ورواتبهم وحاجيات العمل والآلات وما إلى ذلك. فلتكن نفسك الشريك الذي لا تترك لها شيئاً من دون ذكره لها ومطالبتها به عند حسابك إياها وأنت تضع رأسك على وسادتك قبل أن يحاسبك الله يوم الحساب وطالبها بحقوق الله وحقوق الناس والأرحام وحقوق الدين والواجبات الشرعية وما إلى ذلك بل ترقى الأمير عليه السلام في حقوق الله إلى مطالبة الخصم لأن الشريك قد يترك شيئاً يسيراً فلا يذكره لشريكه ويسامحه عليه ولكن الخصم من كان بينك وبينه عداوة تحاسبه على الصغير الحقير قبل الكبير الخطير إن في كلامه عليه السلام تشبيهاً بلاغياً لطيفاً وعميقاً فلاحظ.

٤. ثمرات مجاهدة النفس في الدنيا والآخرة:

قال الأمير عليه السلام: «**جاهد شهواتك وغالب غضبك وخالف سوء عادتك تزك نفسك ويكمل عقلك وتستكمل ثواب ربك**»[١].

أقول: وهذا لف ونشر بلاغي مرتب ومعانٍ جليلة، فجهاد الشهوات وخلو النفس منها زكاتها وسموها.

ومغالبة الغضب كما في حلبة مصارعة لأنه أساس كثير من المعاصي ويفقد الإنسان توازنه في التفكير بالأمور وعلاجها وحلول الحلم مكانه والتفكير بالأمور كمال العقل.

ومخالفة العادات السيئة حتى لو كانت في الشرع غير محرمة تركها يوجب كمال المروءة واستكمال الثواب.

قال الأمير عليه السلام: «**ألا وإن الجهاد ثمن الجنة فمن جاهد نفسه ملكها وهي أكرم ثواب الله لمن عرفها**»[٢].

---

(١) ميزان الحكمة: باب مجاهدة النفس.

(٢) غرر الكلم.

وقال عليه السلام: «**ردع النفس وجهادها عن أهويتها يرفع الدرجات ويضاعف الحسنات**»[١].

وقال عليه السلام: «**مجاهدة النفس كمال الصلاح**»[٢].

وقال عليه السلام: «**من جاهد نفسه أكمل التقى**»[٣].

وقال عليه السلام: «**في مجاهدة النفس كمال الصلاح**»[٤].

قال النبي صلى الله عليه وآله: «**جاهدوا أنفسكم على شهواتكم تحل قلوبكم الحكمة**».

---

(١)،(٤) ميزان الحكمة: باب مجاهدة النفس.

الفصل الثالث: رسائل في الصفات السلبية

نظرة إسلامية إلى المداراة والمداهنة

من المفاهيم التي وقع الخلط فيها فتستعمل جراء ذلك في غير وجهتها التي وضعت لها وينتج عندئذ سلبيات جمة تودي بدين الإنسان وتذهب أخلاقه وتضعف نفسه وشخصيته وتوقع الوهن فيها والخسة والدناءة والضعة في تربيته على ذلك أو يرتقي إلى أسمى الدرجات الأخلاقية والسلوكية التي تجعل منه شخصية مميزة في التعاطي والأداء إذا فهم المقصود.

وهو أن مفهوم المداراة والمداهنة مفهومان متضادان من حيث المقصود منها كما سنبيّن ذلك والفرق بينهما دقيق جداً لا بدّ من الالتفات اليه حتى لا يقع في المداهنة، وقبل الخوض في تفاصيل هذا البحث نشير إلى تعريفهما حتى يتضح المقصود، فقد عرفوا المداراة: بأنها موافقة الناس على وجه يسلم معه دينك وشرفك: أي أن تعامل الناس بكلام خلوق يوافق رأيهم بحيث لا تكون موافقة رأيهم موافقة للباطل إذا كانوا على الباطل، وبمعنى آخر أن تجاملهم بالكلمات الطيبة الحسنة التي تظفر من خلالها بمحبتهم وتأمن شرورهم من دون أن تميت حقاً أو تحيي باطلاً.

أما المداهنة: فهي أن توافق الناس على أمر يثلم الدين ويقدح في المروءة، بمعنى أن توافق الناس وبالأخص الأقوياء منهم على آرائهم سواء كان حقاً ما ينطقون

به أو باطلاً محسنين لهم رأيهم ومادحين فيه ـ لا إشكال في النهي عن هذا المفهوم لقبحه والأمر بالأول لحسنه ـ وهذا يستعمله الناس ميلاً منهم لمصلحة يريدون تحقيقها فيفقدون بذلك كل شعور بالاحترام والاستقلالية ويريقون ماء وجوههم أمام الآخرين هذا إن بقي له ذلك لأن المداهن خسيس ورخيص ومن كان كذلك لا يشعر بالقيمة في قرارة نفسه.

فالفرق بينهما هو في الأول كلام حسن لا يخرجك عن الحق ويليّن لك القلوب ويدفع عنك المفسدة من ذوي الشر.

أما الثاني: مدح وثناء وموافقة بالباطل وللباطل حتى لو كان حقاً وقد يكون الغرض منه دفع مفسدة ويستعمل كثيراً لجلب المصلحة، ومن دون إعمال نظر دقيق والتفات عميق لا يميز المرء بين المفهومين في الاستعمال، بعد هذه المقدمة أدخل في البحث تحت عناوين ليتضح المطلوب.

أولاً: المداراة أصل من أصول الاجتماع:

عند ملاحظة الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الباب نجد أن المداراة هي عبارة عن خلق يستعمله الإنسان مع الناس بدفعه بالتي هي أحسن لمصلحة الآخر أولاً وبالذات أو ليجلبه إلى خلقه، فإذا استعمل الناس هذا القانون الاجتماعي وهو الدفع بالتي هي أحسن تحول الجميع إلى مجتمع قائم على الاحترام المتبادل الذي يراعي فيه الإنسان شعور أخيه وتصبح بينهم مودة متبادلة من خلال الكلام الطيب الذي تطلقه، ولذلك ورد عن النبي ﷺ: «**أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض**» فالأمر بالمداراة أو فقل المجاملة الطيبة الحقة تورث في قلب السامع أو حتى الذي يريد بك شراً احتراماً لا يمكنه إلا أن يعترف بسعة أخلاقك من خلال مداراتك له على أقل تقدير وتفرض عليه احترامك حتى لو اختلف معك في الدين والمعتقد والرؤية، ولذلك نجد في سيرة أئمتنا عليهم السلام إنهم كانوا يدفعون الإساءة بالحسنة فيحولون

الخصم في بعض الأحيان إلى صديق ويطوقون عنق المسيء إليهم بالمداراة فهذا إمامنا أبو جعفر عليه السلام يقول لأصحابه: «**إني لأسمع الرجل يسب علياً وأستتر منه بالسارية وإذا فرغ أتيته فصافحته: ليعرف أن مصافحتي له خلق مني وعدم معرفة منه لجدي علي عليه السلام**»... وهذا إمامنا الحسن عليه السلام يأتيه رجل من أهل الشام ويسب أمامه أباه علياً عليه السلام وعندما أراد أصحاب الإمام ضربه أوقفهم الإمام واستقبله وطلب منه أن يحول رحله إليه لأنه غريب حتى يقوم بضيافته وقضاء حوائجه.... فخرج الرجل من عنده وهو يقول: الله أعلم حيث يجعل رسالته، فحول ما يضمره هذا الرجل من عداوة وبغضاء في نفسه لعلي عليه السلام وآله لأنه لا يعرفهم وقد تربى على كرههم في الشام إلى مودة ومحبة من خلال مداراة الإمام له بالحسنى وهذا خلق القرآن:

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[1]. فهذا الخط الإسلامي الرائع للمجتمع في أصول التعاطي فيما بينهم فلا يمكن لنا أن نفهم المداراة إلا بالأخلاق الجميلة والكلمة الطيبة، وكذا فسر إمامنا الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ حيث قال: «**أي للناس كلهم مؤمنهم ومخالفهم أما المؤمنون فيبسط لهم وجهه وأما المخالفون فيكلمهم بالمداراة لاجتذابهم إلى الإيمان، فإنه باء بأيسر من ذلك يكف شرورهم عن نفسه وعن إخوانه المؤمنين**»، فهذا الحديث يعطيك المعنى الجلي للمداراة الذي لا غبار عليه، فإن قلت الحسنى للمؤمن اكتسبت ودّه ولو بالبسمة في الوجه، وإن قلتها لغير المؤمن جذبته إلى دينك وحتى ولو لم يصبح على دينك أيسر ما تحصل عليه مداراتك له أن تكف شره عنك وعن المؤمنين لأنك النموذج الطيب الذي يكشف عن أخلاق أهل ملتك، هكذا ينبغي أن تفهم المداراة لا كما يساء فهمها. في إطار الأخلاق الطيبة والكلمة الحسنة.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

وللمزيد من الإيضاح لهذا المفهوم أورد حديثاً عن رسول الله ﷺ حيث قال: «**ثلاث من لم يكن فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله وخلق يداري به الناس وحلم يرد به جهل جاهل**»...

لو التزم الناس بهذا الحديث فقط لدفعت مفاسد جمة عن المجتمعات ومخاطر عظيمة كلها ناتجة عن سوء الخلق وفعل المعاصي، ولم أجد أروع من هذا القانون الاجتماعي الذي يعالج كل المشاكل الاجتماعية من ناحية التعاطي فيما بينهم على كل المستويات سواء في ذلك العلاقة الزوجية أو الفردية أو العائلية أو المجتمعية وحتى الحزبية وغير ذلك.

ثانياً: ثمرة المداراة:

١. قد ظهر مما ذكرناه إجمالاً أن بعض ثمرة المداراة هو الأمن من شرور المداري ودفع أذى الكثير منهم، ولذا قال إمامنا الصادق عليه السلام: «**إن قوماً من قريش قلت مداراتهم للناس فنفوا من قريش، وايم الله ما كان بأحسابهم بأس، وإن قوماً من غيرهم حسنت مداراتهم فألحقوا بالبيت الرفيع... ثم قال: من كف يده عن الناس فإنما يكف يداً واحدة ويكفون عنه أيادٍ كثيرة**».

وورد عن الأمير عليه السلام: «**دار الناس تأمن غوائلهم وتسلم مكائدهم...**».

٢. هذا من ناحية الأمن من الشرور، أما من ناحية أخرى فالمداراة غاية في الحكمة للتعاطي مع الآخرين وامتزاج لمفاهيم الخير مع بعضها فعندما تعرض لك أية مشكلة أو حادثة تحاول أن تقوم باستيعابها فترد جهل الجاهل بالحلم وتستبدل الاستعلاء والكبر بالتواضع وتواجه المصاعب بالصبر وتحل المشاكل بالحنكة والوعي فلا يصدر منك إلا الخير والإخلاص في العمل، ولذا نجد مولانا الأمير عليه السلام يعتبر الإنسان الذي يداري الناس حكيماً وصاحب عقل راجح حيث قال: «**رأس الحكمة مداراة الناس**»... وقال أيضاً عليه السلام: «**عنوان العقل مداراة الناس**».

٣. ومما يمكن أن نستفيده من ثمار مهمة للمداراة هي اكتساب صداقة الناس

ودوام هذه الصداقة لأن حسن التصرف معهم بالعفو عن زلاتهم والحرص على مصالحهم وحفظهم في ظهر الغيب بعدم تناولهم بالحديث السيّئ والسعي في قضاء حوائجهم وملاقاتهم بالبشر والوجه البشوش يورث في قلوبهم المحبة لك وتغيير النظرة التي ربما يحملونها عنك فيخفون ما في قلوبهم ضدك وتدوم مودتهم لك طالما تداريهم وتبتعد عن كل ما يزعجهم من قول أو فعل يؤدي إلى استثارتهم ضدك، وإذا أخطؤوا معك لا تعاتبهم بقسوة وتلمهم بشدة بحيث تزعج قلوبهم بذلك وإن كان العتاب الطيب والملامة بالتي هي احسن مطلوبة في بعض الأحيان خصوصاً عندما يعصون الله... وإلا ستظهر حينئذ باللامبالي لما يفعلون... وتقوم بين الحين والآخر بالمبادرة إلى زيارتهم وتقديم بعض الهدايا لهم ومدحهم بما فيهم فإن كل ذلك مما يورث دوام الصداقة والأخوّة والمحبة وهو من المداراة ولذلك قال مولانا الأمير عليه السلام: «**دار الناس تستمتع بإخائهم والقهم بالبشر تمت أضغانهم**»... من خلال ذلك كله نفهم كيف أن مداراة الناس نصف الإيمان والرفق بهم نصف العيش كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجعلت المداراة نصف الإيمان والعبادة نصفها الآخر مع الأمور الأخرى فأي قانون اجتماعي أرقى من هذا القانون الذي ينظم العلاقات الفردية والاجتماعية وبالأخص منها العلاقة الزوجية والرحمية لأن الأهل أولى بالمداراة من غيرهم وأكثرهم حاجة إليه الزوجة المكونة من فيض عاطفي جياش لطيف يحتاج دائماً إلى الكلمة الطيبة والبسمة الجميلة والهدية ذات المعنى وما إلى ذلك مما يدخل على الحياة الزوجية مرونة وليونة وسكينة لأنها مليئة بالمشاكل والمنفرات والمزعجات التي تحتاج معها لأمثال هذه الأمور.

ثالثاً: فارق مهم:

قد أشرنا في التعريف إلى الفارق الدقيق بين المداهنة والمداراة خصوصاً أن المداراة قريبة من النفاق والتملق، ولذا تجد أكثر الناس يقعون فيها من حيث يشعرون أو لا يشعرون ومع الأسف الشديد حتى أنني أجد بعض من نصّب نفسه

للناس إماماً. وبعض المؤمنين يقومون بالمداهنة والتملق أو ما يعبّر عنه بالعامية (تمسيح جوخ) مع من هم أرفع منهم مسؤولية وأخطر منصباً أو مع أولياء نعمتهم خوفاً على منصب هنا أو معاش هناك وحينما تسألهم يقولون: لا بدّ لنا أن نداري، هذه ليست مداراة إنها التملق والمداهنة المحرمة شرعاً والمذمومة، ولمزيد من الإيضاح أقول في الفرق بينهما: إن المداري للناس بأخلاقه الطيبة يفعل ذلك تكرماً منه وتفضلاً لعظم أخلاقه وحلمه وجوده وسعة صدره مضحياً بحقه كثيراً من الأحيان في الدفاع عن نفسه أو أخذ حقه من المسيئين والمعتدين عليه وذلك لوجه الله تعالى كما أسلفنا ذكر ذلك عن أئمتنا في نماذج سيرتهم... وكل ذلك يعود بالنفع على الآخرين ولأجلهم يكون ذلك فيما المتملق أو المداهن يفعل ذلك لأجل الوصول إلى مصلحته الشخصية وبروح انتهازية وصولية.

رابعاً: مفهوم المداهنة:

بعد أن عرفت مفهوم المداهنة نذكر بعض آثارها القبيحة على النفس تارة والآخرين تارة أخرى فتقول: إن المداهن لنفسه والممتدح لها والمحسن لها أفعالها فلا يرى أعرف منه وأفضل يكون أكثر معصية ووقوعاً في الخطأ من غيره لأن من يرخص لنفسه في الصغير يرخص في الكبير لذا قال مولانا الأمير عليه السلام: «**لا ترخصوا لأنفسكم فتذهب بكم الرخص مذاهب الظلمة، ولا تداهنوا فيهجم بكم الادهان على المعصية**»... فإذا داهن الإنسان نفسه وبرر لها أفعالها القبيحة واختلق الأعذار الواهية تجده يسهل ارتكابها فيما بعد، وإذا بدأ في ذلك بصغير المعصية يتدرج به الحال إلى كبيرها وعندئذ يكثر خطؤه ويسلك مسالك الظلام لأنه يعيش في الأوهام التي أبعدته عن الحقيقة بهذه المبررات. والأشد خطورة في المقام من يداهن في الدين خوفاً من السلاطين وأهل البدع والخرافة والغلو لأنه لا يتحمل الأذية في الله وفي سبيل الدعوة إليه فيبرر لنفسه تارة بالتقية وأخرى بالراتب الشهري وثالثة بالخوف من العوام ورابعة بالخوف من ذوي النفوذ فيضيع الحق عند أهل الدين قبل غيرهم من

المؤمنين وأشد من ذلك تحول الخرافة والغلو والبدع إلى دين مقدس يأمر به الناس ويطالبون بالهجوم على الدعاة للحق.

وأما من داهن فقد جعل من الأعداء ووصف بأنه شرُّ الإخوان لأنه بدل أن ينهاك عن عيبك الذي أنت فيه يحسنه لك ويحوله من خلال كل التبريرات التي يطلقها بالنيابة عنك إلى أمر حسن فيصبح كالراضي بفعلك لا يرى منك إلا الخير حتى لو كان شراً وما أكثر هؤلاء في زماننا، وما يؤلمني أنني أجدهم بكثرة بين المؤمنين لذلك قال في هؤلاء مولانا الأمير عليه السلام: «**شر إخوانك من داهنك في نفسك وساترك عيبك وقال: فمن داهنك في معايبك فهو العدو**».

خامساً: المداهن في الحق:

ومن أخطر المداهنات المداهن في الحق لأن المداهنة في الحق تعني الاستخفاف به وتزوير الحقائق وهو الخسران المبين، ألا ترى إلى الناس الذين خذلوا الحسين عليه السلام خوفاً أو طمعاً وهم يعلمون أنه المحق وداهنوا يزيد، ألا ترى إلى العرب اليوم كيف يداهنون اليهود والذين أشركوا..؟ ألا ترى وما أكثر ما ترى في ذلك مما لا يسعه مجلدات فكيف بصفحات بدءاً بالزعامات وانتهاءً بالأمم والمجتمعات والأفراد والأحزاب والعصبيات العائلية والحزبية والعشائرية والمناطقية والعرقية والدينية والطائفية والمرجعية والسياسية كله قائم على المداهنة ولذا قال تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[1] وقال مولانا الأمير عليه السلام: «**لا تداهنوا في الحق إذا ورد عليكم وعرفتموه فتخسروا خسراناً مبيناً**».

وهذا مما يستوجب شمول العقاب وعموم البلاء إذا داهن أهل الطاعة أهل المعصية والأخيار بسكوتهم عن الأشرار ومما نراه من مصائب عامة وبلوى شاملة في زماننا سببه المداهنات السياسية المحلية منها والإقليمية والدولية ودليلي على ذلك ما

---

(١) سورة القلم، الآية: ٩.

أوحى الله به لنبيه شعيب كما ورد عن إمامنا الباقر عليه السلام حيث قال الله تعالى: «**إني معذب من قومك مائة ألف: أربعين ألفاً من شرارهم وستين ألفاً من خيارهم فقال: يا رب هؤلاء الأشرار فما بال الأخيار؟ فأوحى الله تعالى إليه: داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي**»، بالله عليكم لو أن الله أنزل العذاب في هذا الزمن على مليار ونيف من المسلمين هل هذا كثير؟ لأن أكثرهم يداهن بالباطل ويسكت عن جرائم اليهود ولا يحرك ساكناً. وقسم يداهن المتنفذين من الساسة ورجال الدين على مصالح الشريعة والإسلام والمسلمين. وقسم؟؟؟ وإلى الله ترجع الأُمور.

نظرة إسلاميّة إلى العنف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾[1].

يُثار في هذه الأيام الحديث حول العنف في المجتمعات والأُسر بأشكاله المتنوعة سواء منها العنف الجسدي أو النفسي أو الفكري أو الجنسي أو حتى السياسي والاقتصادي. وتطالعنا إحصاءات مذهلة يشيب منها الصغير حول العنف الموجود في العالم، المنافي للشرائع السماوية والقوانين الإنسانية حتى في الدول التي تدعي مراعاة حقوق الإنسان. ونلحظ أن المجتمعات مهما تطورت ووصلت إلى حضارات مختلفة يبقى لديها عنصر البدائية في التعاطي، فعندما تغور في أعماقها وتستثيرها تراها تخضع للكثير من العصبيات النفسية والعرقية والطائفية والعشائرية والقومية وما إليه والمسببة في كثير من الأحيان لاستعمال العنف مع الآخر، وهذا مرده في الأساس إلى إحدى غرائز الإنسان الوحشية السبعية التي لم يسع إلى تأديبها ولم يخضعها لأحكام العقل ويردعها بتوجيهات الدين، بل ينميها بكل هذه

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

التراكمات التي ذكرناها وغيرها لينتج عن ذلك حيوان متوحش بصورة إنسان يريد فرض سيطرته وقوته على كل من هو دونه، لذلك جاءت التعاليم السماوية لتضع الأمور في نصابها ولبيان أسلوب التعامل مع الناس، أو الزوجة والأولاد أو مع الأسرى والمساجين أو غيرهم، ودعا القرآن لاستبدال العنف بالعفو والصفح والرفق واللين حتى مع الذين يستعملونه معك ما خلا موارد محددة، فقال تعالى في سورة النساء الآية ١٤٩: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وحدد للناس خطين في أخذ حقوقهم من الآخرين إذا كان لهم حقوق فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وهذا معناه أن تأخذ حقك ممن اعتدى عليك بمثل ما اعتدى من دون زيادة ولو قيد أنملة. واعتبر تعالى في الخط الثاني، وهو العفو عمن ظلمك، واعتدى عليك صدقه ليؤجلها لك أجراً وكفارة عن ذنوبك، وهذا مستوى أرفع يقربك من الله ويزيد الثواب. وكمثال حسي لكيفية استعمال الإنسان العنف مع الآخرين من خلال مخزوناته الفكرية والنفسية التي اعتاد عليها من دون بحث عن الحقيقة والسعي وراءها: ورد أن رجلاً شامياً أتى المدينة ورأى الإمام الحسن عليه السلام في طريقه راكباً فبدأ بشتمه ولعنه وسبّ أبيه من دون أي سبب في المقام بعنف وشدة، فيلتفت إليه الإمام ويخاطبه عندما ينتهي مسلماً عليه مبتسماً في وجهه قائلاً: أيها الشيخ أظنك غريباً ولعلك شبهت فلو استعتبتنا أعتبناك ولو سألتنا أعطيناك ولو استرشدتنا أرشدناك. فهذا يعطينا نموذجاً حياً عن استعمال العنف ومقابلته باللين والصفح. ونحن هنا نريد تسليط الضوء على بعض الأمور التي شاع فيها استعمال العنف حتى أصبح رمزاً للتخلف في بعض المجتمعات في قبال كل هذا التطور الفكري والعلمي الذي وصلت إليه البشرية.

العنف في الأسرة والمجتمع:

إن من الآفات في غالب المجتمعات ليس فقط الدينية منها استعمال العنف مع

الزوجة والأطفال، فنرى بعض الرجال يعتبرون أنفسهم قيّمين على أسرهم بطريقة سلطوية تعطيهم الحق في تطبيق قوانينهم وفرضها على أولادهم وزوجاتهم بأي طريقة كانت، وغالباً ما يلجأون إلى استعمال الضرب المبرح مع الزوجة والأطفال عندما لا ينفذون أوامرهم أو عندما يغضبون منهم لأي سبب مهما كان تافهاً ويستعملون العنف لإثبات رجوليتهم وقيمومتهم بطريقة وحشية بشعة، وهنا تدخل الإسلام ليحدد وظيفة كل شخص في الأسرة، ففرض حقوقاً وواجبات ليس هنا محل بحثها، واعتبر أن قيمومة الرجل هي في حدود كونه رب هذه الأسرة ينفق عليها ويرعى مصالحها وأن أمر الطلاق بيده دون زوجته. هذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[1]. وليس معناه التسلط.

ثانياً: حذر الإسلام من استعمال العنف مع الزوجة والأطفال فحرّم ضربهم واستعمال العنف معهم وحدد كيفية ضربهم وفي أي وقت، لذلك نجد أن الزوجة مثلاً لا يجوز ضربها وشتمها وأجاز ضربها في حالة واحدة فقط عندما تكون ناشزاً، وجعل الضرب العلاج الأخير بعد الوعظ والإرشاد والهجران في المضاجع فقال تعالى: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾[2] حتى يرجعن عن نشوزهن وعصيان أزواجهن في حقوقهم وخروجهن من بيوتهم، فنرى أن الإسلام حرّم ضرب الزوجة. إلا في مثل هذه الحالة وذلك كعلاج تأديبي حتى ترجع عن غيها ضرباً لا يترك أثراً فضلاً عن الإدماء أو الكسر وبعد استنفاد جميع الوسائل معها، لا كما نرى في مجتمعاتنا أن الرجل يضرب زوجته لأكلة لم تعجبه أحياناً أو لم تحضر ساعة يريد وما إليه، وكأنها أمة له وإن كان العبيد لا يجوز ضربهم ظلماً.

وأما الأولاد، فاستعمال العنف معهم بالضرب والجرح والشتم، فقد اعتبره الإسلام من أفحش أنواع الظلم لأن العنف هو ظلم، ولأنه ضرب لمن هم أضعف

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٤.

(٢) م.س.

الناس الذين لا حول ولا قوة ولا ناصر لهم مما يستقبحه العقل والعرف والدين وكل شيء، لذلك ورد في الحديث عن الأمير عليه السلام: «**ظلم الضعيف أفحش الظلم**». ويشتد حينئذ غضب الله على من يظلم من هم أضعف منه، ومن أضعف من الزوجة والأطفال؟ لذا ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**اشتد غضب الله على من ظلم من لا يجد ناصراً غير الله**». لذلك يجب أن تستعمل العفو مع الناس من حولك ومع زوجتك وأطفالك بالخصوص، وأن ترحمهم وتعفو عنهم، فانتبه رعاك الله عندما تغضب أن تغفل عن العفو لأن الله أعد للعافين أجراً عظيماً، لذلك ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا عنت لكم غضبة فأدوها بالعفو، إنه ينادي مناد يوم القيامة: من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم إلا العافون ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[1]**». وهناك فحش في استعمال الظلم مع الزوجة بمنعها حقوقها خصوصاً من يسعى إلى الطلاق من زوجته فيستعمل معها أبشع أنواع العنف مقابل تنازلها عن حقوقها ولا أجد أخس من هؤلاء الناس. وهناك طبعاً أمثلة كثيرة متنوعة للعنف في شتّى مجالات الحياة، لذا على الإنسان أن يربي نفسه على العفو في حياته لأنه إن لم يحسن العفو فإنه حتى لو أراد أخذ حقه بالعدل سيسيء استعماله، لذلك كان الأمير عليه السلام يقول: «**من لم يحسن العفو أساء الانتقام**». وكان عليه السلام يقول: «**قلة العفو أقبح العيوب والتسرع إلى الانتقام أعظم الذنوب**».

وأما إذا سعى الإنسان لإطفاء نار غيظه بالتشفي واستعمال العنف والظلم خصوصاً ضد من هو أضعف منه، كان حقاً على الله أن يعذبه بذلك، فقد ورد عن الأمير عليه السلام: «**من طلب شفاء غيظ بغير حق أذاقه الله هواناً بحق**». ويمكن لنا أن نضع عناوين متعددة للعنف الذي هو نوع من الظلم وذلك لتسهيل البحث المختصر في المقام.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.

العنف النفسي:

يمارس البعض عنفاً نفسياً من خلال حرب الأعصاب الإعلامية بمفرداتها المتنوعة من بثّ الإشاعات وتوزيع التهم والافتراء غير المبرر ليسقطوا بذلك الطرف الآخر وهذا ما يستعمله الأعداء ضد بعضهم لإسقاطهم نفسياً وإرعابهم بهذه الطريقة، ويمارس العنف النفسي على جميع المستويات وليس فقط بين الدول في الحروب، بل يمارس أيضاً ضد الأسرى والمساجين فيحضرون أهلهم وأقاربهم ويعذبونهم أمامهم بشتى أنواع التعذيب ليضغطوا نفسياً عليهم وهذا عنف مشترك بين الجسدي والنفسي. وقد يمارس الرجل عنفاً نفسياً ضد زوجته بتهديدها بالطلاق تارة، وبطردها من المنزل أخرى، وبالتشنيع بعائلتها ثالثة، وهكذا حتى تعيش الزوجة بحالة قلق دائم وخوف نفسي من جراء هذه المعاملة. وقد يمارس ذلك بحق أطفاله من حيث لا يشعر عند إهانتهم أمام أقرانهم من الأولاد وعدم مراعاة شعورهم، وأذيتهم بشتّى الألفاظ والألقاب السيئة فيعيش الطفل في حالة رعب دائم وخوف من والده وهذا مما يسقط شخصيته. وقد يمارس الإنسان مع أخيه الإنسان هذا النوع من خلال إرهاقه بالشائعات الكاذبة ضده لإسقاطه نفسياً، وما أكثر ما نشاهده في هذا الزمن من هؤلاء الذين لا يخافون الله في ما يقولون وهذا ما حذر الإسلام منه كثيراً واعتبر فاعله من رعايا الشيطان. فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من روى على مؤمن رواية يريد شينه بها وإسقاطه من أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان**».

العنف الجسدي:

وهذا نوع آخر من العنف مع الناس والأسرة، كإرهاق رب العمل لعماله مع حاجتهم إلى العمل واستغلال هذه الحاجة ولا يعطيهم حقوقهم مقابل تعبهم. أو إرهاق الزوجة بالمطالب التي لا تنتهي من قبل الزوج أو العكس أحياناً، أو إرهاق الأطفال بالعمل وحرمانهم من حقوقهم. لذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن إرهاق

الأطفال بما لا يطيقون بقوله ﷺ: «**رحم الله من أعان ولده على بره قال: يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ولا يرهقه ولا يخرق له**».

ويدخل تحت هذا العنوان ما أشرنا إليه من الضرب والتمثيل الواقع على الجسد. وهناك التعذيب الجسدي الناتج عن الضرب وغيره وما يستعمل في سجون العالم ومن قبل أعداء الإنسانية لأبناء جنسهم، وكل هذه الأمور منهي عنها وهي تدل على بشاعة وخسة ووحشية مرتكبيها، لأن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي على الناس والتسلط عليهم أو ظلمهم...

العنف الفكري:

وهذا لون آخر نراه جلياً في مجتمعنا المنقسم أفراده لا على سبيل الحصر إلى ثلاثة أقسام: وهم الجاهلون والمثقفون والعلماء. فأما الجاهلون فإنهم لا يقرون غالباً بجهلهم ويريدون فرض جهلهم على الآخرين عن طريق العنف والقوة والتسلط وما إلى ذلك فلا يرحمون أنفسهم ولا يرحمون الآخرين بجهلهم. وبعض المثقفين يريد فرض ما وصل إليه من قناعات فكرية فيثقف الواحد منهم ثقافة منحرفة لأنه يرى فيها تحرره من بعض العقد ويريد فرض ذلك على من هو أعلم منه بأي وسيلة، وقد يستعمل العنف أحياناً في أسلوبه لفرض قناعاته. وبعض العلماء يريد فرض أفكاره بالعنف الفكري على الآخرين فينصب لبعض الأمور نصاب القداسة ويحوطها بهالةٍ من صنع أمثاله وكل من يناقشه يصطدم بالتكفير والتضليل وكل ألوان الشتائم التي تشوه سمعته وواقعه لتسقطه ليس إلا لأنه حاول أن يستدل بطريقة علمية على بطلان ما قدس، ومن المعلوم أنه ليس هناك شيء مقدس إلا ما قدسه الله تعالى من كتبه وأنبيائه ورسله وملائكته وأوليائه، وأما الأمور الخاضعة للدليل تاريخية كانت أو فقهية أو فكرية أو علمية أو كلامية أو غير ذلك، فأي قداسة لها طالما أنها ليست نصاً قرآنياً ولا وحياً منزلاً. هذا عنف فكري يمارس على أصحاب الفكر أحياناً، وعلى الضعفاء تارة أخرى ليكبلوا كل من يحاول البحث عن الحقيقة والتطلع إلى المعرفة

باعتقاد أن رأيهم هو الصحيح. وليس مشكلة أن يعتقد العالم أن رأيه هو الصحيح لكن المشكلة أن لا يعتقد إمكانية الخطأ في قوله وأنه الواقع كل الواقع، وأن كل رأي مخالف له هو الخطأ والضلال وما إليه، وممارسة ذلك يعني عنفاً فكرياً بشعاً بعيداً عن كل ألوان الحوار التي فرضها الله على أنبيائه مع أعداء الرسالة فكيف بمن هم داخل خط الرسالة ومن ملة واحدة ودين واحد واعتقاد واحد، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1].

وعلمنا من خلال رسوله أسلوب الحوار وموضوعيته ومرجعية الحوار في ما بيننا لا فرض الرأي بالقوة فقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[2]. فأنا أدعو هنا كل أهل العلم ـ ولا يحتقرن أحد مقامي بعدم أهليتي لهذه الدعوة، لأننا كلنا مسؤولون لذا أدعو إلى الحوار المفتوح في كل القضايا بين الطوائف والأديان وأولاً وبالذات داخل كل طائفة ومذهب ليصلوا إلى وحدتهم وعزتهم وإلّا فإن الجميع تقريباً يمارس العنف الفكري المرفوض جملة وتفصيلاً على من هم دونهم في العلم تارة وعلى أمثالهم أخرى وهذا ليس من الإسلام في شيء.

العنف الجنسي:

وإنما أشير إليه هنا من باب ما نشاهده من بشاعة لا توصف ووحشية لامتناهية في مجتمعاتنا من اعتداء الآباء على أعراضهم وكريماتهم ما يسمى بسفاح ذوي القربى ثم قتلهن أحياناً، أو الاعتداء جنسياً على الأطفال وقتلهم أحياناً وتعذيبهم والتمثيل بهم، أو اعتداء الشباب على أعراض الغير بطريقة فظيعة، وغير ذلك مما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

تشاهدونه وتقرؤونه في وسائل الإعلام. إن هذا العنف في استعمال الجنس لهو أحقر من الجنس بين الحيوانات فنرى في الإبل مثلاً أنها لا تتصل ببعضها جنسياً أمام الناس لوجود عنصر الحياء، ونرى كيف يلاطف الحيوانات بعضهم بعضاً قبل الاتصال مما لا نشاهده عند بعض الناس، كل ذلك بسبب الثقافات المنحرفة ووسائل الإعلام التي تبث السموم في بيوتنا من الجريمة والعنف الجنسي وغير ذلك مما حرمه الإسلام وأعد لمرتكبيه أشد ألوان العذاب.

نظرة إسلاميّة إلى البغض والكراهية

ذكرنا في حديثنا السابق حول الحب وأقسامه وكذا كيفياته وموارده حتى يستطيع المسلم أن يصقل شخصيته ويصبح حبه لله وفي الله ومن أجل الله. ونتحدث هنا عما يقابل الحب وهو البغض والكره الذي هو من الصفات الخاضعة أيضاً للمدرك الوهمي عند الإنسان، ومما لا إشكال فيه أن البغض أمرٌ يمكن السيطرة على آثاره الخارجية والحد من توسعة دائرته داخل النفس، ولذلك جاءت الأحاديث الشريفة لتوضح هذا المفهوم وتعطيه بعداً أخلاقياً ينطلق الإنسان من خلاله لتهذيب أفعاله بحسن التدبير والابتعاد عن موروثات البغض التي قد لا يقتصر الأخذ بها إلى تدمير نفسه بل يدمر محيطه ومجتمعه وإذا تصورنا مجتمعاً قائماً على الكراهية والتباغض بين أفراده كيف سيكون حاله، وإلى ما يكون مآله؟.

التفكك في المجتمع: إن أهم عناصر تفكك المجتمعات والأمم وتفسخ الروابط فيما بينها واعتداء بعضها على مقدرات بعضها الآخر وارتكاب المظالم فيما بينهم وعدم التوازن في العلاقات مع بعضهم والاستيلاء على كل ما من شأنه أن ينهض بفريق على الآخر ومما نراه في العالم من ظلم واستبداد كل ذلك نتاجه هو الظلم الذي أساسه البغض والحقد العرقي تارة والمناطقي أخرى والحزبي ثالثة، وبشكل عام كره القوي للضعيف وحب الاستيلاء عليه خصوصاً إذا كان يشعر منه المنافسة على سلطان أو شيء مما يتكالب عليه أهل الدنيا حيث قال ﷺ: «**دب إليكم داء الأمم قبلكم: البغضاء والحسد**».

وقد اكتسبت الأمم هذه الأمراض من خلال عدم الصدق في تعاطيها مع بعضها وانتشار واتساع دائرة البغض بين الناس كل ذلك نتيجة تعاطي الناس بنظرة الاستعلاء والنفاق الذي يظهر صاحبه بعدم المصداقية، وهذا ما حذر منه إمامنا الصادق عليه السلام كما ورد في تحف العقول: «**ثلاثة مكسبة للبغضاء: النفاق والظلم والعُجب**».

أبغض الأعمال إلى الله:

وباعتبار أن البغض هو من الأمراض النفسية الخبيثة التي يجب علاجها باقتلاع جذورها من النفس والانتهاء من آثارها الخارجية، لذا نسلط الضوء هنا على بعض الأعمال التي يبغضها الله لأنها مؤذية من ناحية عقيدية كالشرك بالله الذي يجعل خباثة فكرية ورجاسة عقلية يجب تطهيرها، وكذلك مؤذية من ناحية علاقاته بين الأرحام من جهة أخرى، فالله تعالى يبغض قاطع الرحم لأن ذلك يشكل وبالاً على الأسرة التي أراد الله لها أن تكون مترابطة ومتماسكة ومتكاتفة حتى تكون أقدر على مواجهة قساوة الحياة وصعوبتها، ومن جهة أخرى فإن الله يكره ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن تركه يؤدي إلى انتشار الفساد في المجتمع فيكثر المنكر فلا يراعي الإنسان حقوق إخوانه ولا جيرانه ولا أهل محلته ويعتدي على الأعراض، وتستعمل الفواحش والمنكرات ويؤدي ذلك إلى فساد العباد وخراب البلاد وهذا ما نشاهده بالعيان في هذا الزمان حيث تنتشر في مجتمعاتنا العصبيات العرقية والطائفية والحزبية والعائلية وينتشر الفساد بارتكاب المنكرات الجنسية داخل شوارعنا وبيوتنا لأننا تركنا مسؤولياتنا في التربية الأخلاقية تجاه أبنائنا وساعدنا بدخول وسائل إعلامية فاسدة إلى بيوتنا أدت إلى خراب أطفالنا وهكذا المقام لا يتسع لتعدادها، ورد في الحديث عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: إن رجلاً من خثعم جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله قال: أي الأعمال أبغض إلى الله عز وجل؟ فقال: «**الشرك بالله**»، قال: ثم ماذا؟ قال: «**قطيعة الرحم**»، قال: ثم ماذا؟ قال: «**الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف...**» وما أكثر ما يؤمر بالمنكر في هذا الزمان وعلى جميع المستويات وفي كل شرائح المجتمع. حتى

بعض أهل الدين يأمرون بالمنكر من خلال التكفير والتضليل لبعضهم بدل التحاور وتحكيم الكتاب والسنة عند الخلاف وهكذا يأمرون بالفتن ويستحلون القتل والتمثيل والسباب واللعن وغير ذلك من أخلاق متخلفة وأفكار رجعية قائمة على الغلو والخرافة والكذب على الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام وتستعمل كل وسيلة لذلك من العالم الافتراضي إلى الفضائيات فضلاً عن منابر المساجد والحسينيات والأماكن العامة حتى أصبحت السمة العامة البغض والحقد حتى داخل البيت الواحد عند أدنى اختلاف في الرأي.

الأفعال والأخلاق المبغوضة عند الله:

وهناك بعض الصفات الأخلاقية المذمومة التي يبغضها الله ولا يحب وجودها في عباده كسوء الخلق الذي يكاد لا يخلو منه أحد ونسأله تعالى التعافي من هذه الصفة الموقعة للكره في قلوب الآخرين من قبل المتصفين بها والعداوة والبغضاء من قبل من لا يتفهم واقع سيّئ الخلق لأنه أحياناً يسيء خلقه من جراء بعض المؤثرات والضغوط النفسية الطارئة عليه وهو أي هذه الصفة مفسدة للعلاقات بين الأفراد وبالتالي تؤدي إلى القطيعة، وكذا يبغض الله البخل لأنه شح على نفس البخيل تارة وتضييق خانق على عياله أخرى، ومنع الحقوق الشرعية الواجبة والمستحبة المترتبة عليه ثالثة وبذلك لو كانت صفة عامة لاختل نظام التكافل الاجتماعي ما بين الغني والفقير ولترك الأيتام المعوزون من دون راعٍ وكفيل.

لذا ورد في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ما شيء أبغض إلى الله عز وجل من البخل وسوء الخلق وإنه ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل**».

وهناك بعض الأفعال التي لا يريدها الله أن تصدر من عبده لأن صدورها يؤدي إلى الكسل والخسارة وعدم النفع واستغلال الوقت الذي يهدره الإنسان من دون أن ينتفع به بعلم، أو عمل يغب به فاهه عن الناس فلا يكون عالة على غيره، وما أكثر ما نشاهده في هذا الزمان من إهدار الوقت على الملاهي والملاعب والسهرات وكل

هؤلاء يشكون من ضائقة مالية وأمراض صحية ونفسية بدل أن يستغل الوقت بالعمل كما ذكرنا أو العلم النافع له بحيث يصل به الأمر في آخر حياته إلى بطلان أعماله لأنه لم يتعلم أحكام دينه ويوقعه ذلك في الكثير من الخطأ، لذلك ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن الله يبغض كثرة النوم وكثرة الفراغ**». وكذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**ليس شيء أبغض إلى الله من بطن ملآن**». وكذا ورد في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام: «**إن الله يبغض القيل والقال، وإضاعة المال وكثرة السؤال فيما لا يعنيك**». طبعاً كثرة السؤال فيما يهمك، سؤال الناس المال وأنت تستطيع العمل، أما السؤال عن أمور الدين فهو واجب لتحصيل الخلاص في الدارين، وكذا يبغض القيل والقال لأنه يؤدي إلى الفتنة بين الناس والنميمة على بعضهم البعض وتناول الآخرين بالغيبة.

لذا ورد عن الأمير عليه السلام: «**أبغض الخلائق إلى الله المغتاب**».

وإضاعة المال في غير محله لأنه يوقعك في الحرام والتبذير من جهة وفي الإفلاس من جهة أخرى.

بعض الصفات المورثة للبغضاء:

وهناك بعض الصفات المنهي عنها والتي جُعل صاحبها بعيداً عن رسول الله صلى الله عليه وآله كالتكبر لأن هذه الصفة تجعل الفوارق في المجتمع والطبقية بين الناس عندما يشعر بالاستعلاء المؤدي إلى مرض قلبه وتلوث نفسه بينما يريد الله تعالى للإنسان مهما اختلفت مستوياته الجسدية والعقلية والمالية وما إليه أن يشعر دائماً بالمساواة مع الآخرين، ولذا فرض عليه في العبادات أموراً فرضها على كل الناس وفرض قساوة في بعضها ليشعر الأقوى بالمساواة مع الأضعف كما في الصوم والحج، وكذا هناك صفة كثرة الكلام أو الثرثرة التي تخلق المشاكل بين أفراد المجتمع وسقوط الشخصية لصاحبها وقد أشرت سابقاً إلى بعض آثارها. وهناك صفة أخرى وهي الادعاء بمعنى أن يدعي لنفسه العلم والمعرفة وما إليه ويتشدق بذلك وكأنه العالم دون سواه وهذا

مرض نفسي خطير على صاحبه من جهة وعلى الآخرين وخصوصاً إذا كان من يتصف بهذه الصفة صاحب مركز بين الناس فإنه يظلمهم ويغويهم من حيث لا يشعرون، ولذلك جمع النبيﷺ هذه الصفات بقوله: «**أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون، والمتفيهقون**». قال: يا رسول الله ما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**».

وهناك صفة أخرى ذميمة مورثة لبغض الناس وبغض الله لفاعلها وهذه الصفة منتشرة بين الناس وهي من الآفات المهلكة ووجودها يوقع الإنسان بمعاصٍ كثيرة ويرشح عنها صفات أخرى، فالإنسان الحسود لا يستطيع أن يتمالك نفسه من دون الكلام على غيره لإسقاطه، وينم عليه في كل مجلس ويغتابه مما يجعل حسده بغضاً وكراهية وغيبة ونميمة وبهتاناً وكذباً في كثير من الأحيان وليس ذلك إلا لأن صاحبه في نعمة ليست عنده فيحسده عليها بدل أن يغبطه ويسأل الله الحصول على مثلها.

ولذا ورد عن إمامنا الصادقعليه السلام: «**إن أبغضكم إلي، المشاؤون بالنمائم، الحاسدون لإخوانهم ليسوا مني ولا أنا منهم**».

أبغض الناس إلى الله: وقد جاءت الأحاديث الشريفة لتوجه الناس بالابتعاد عما يبغض الله وأكثر ما يبغضه عز وجل: الشيخ الزاني ـ والمغتاب ـ الغني البخيل ـ ومن كان همه فرجه، والغني الظلوم والفقير المختال ـ والوقح المتجرئ على المعاصي ـ وطويل الأمل السيئ العمل، والفاحش المتفحش، والعالم بالدنيا الجاهل بالآخرة، ومن يدخل العدو بيته ولا يقاتله، والكذابون والمستكبرون والذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم وهناك صفات أخرى ذكر بعضها خلال البحث وبعضها الآخر يرجع إليه في المطولات.

توجيه: أيها الناس إن البغض مرض لا ينبغي أن يتصف به المؤمن ولا بدّ لمن وجد فيه السعي الحثيث إلى علاجه فقد حدثنا الله تعالى في كتابه عن أهل الجنة وكيف نزع الغل من قلوبهم قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ

غِلّٖ﴾[١] لأن طهارة الإيمان وصفاء النفس والإخلاص في العمل ومشاعر الحب والرحمة التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن لا تتناسب مع الحقد والبغض والكراهية. فلذا ينبغي أن يكون دعاء المؤمن دائماً كما علمنا الله تعالى بقوله في سورة الحشر: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٢] لأننا لا نريد أن نحمل في أعماقنا البغضاء والعداوة والكره للمؤمنين مهما كانت الأسباب التي قد تثير فينا هذه المشاعر، بل دائماً نحمل لهم المحبة في قلوبنا التي استمديناها من محبة الله وحنان الله عز وجل لذلك يجب أن نصفي قلوبنا من كل هذه الشوائب حتى لا تكون من أغل القلوب كما ورد في الحديث عن الأمير عليه السلام: «**أشد القلوب غلاً قلب الحقود**».

لنحصد الشرَّ من قلوبنا ولنقلع الحقد والكره من نفوسنا ولنحمل المحبة والسلام لأنه سبحانه السلام ومنه السلام وإليه يعود السلام.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٧.

(٢) سورة الحشر، الآية: ١٠.

الفساد في المجتمع

إن من أسباب فساد الأمة أو المجتمعات وسيرها نحو الأسوأ هو فساد العناصر المؤثرة فيه بحيث يكون لهذه العناصر فعالية في المجتمع يدور مدارها الرفع والوضع والحل والعقد، فإذا فسدت هذه العناصر المؤثرة وتخلت عن منهج الحق في التزاماتها مع من حولها وحرفت الحقيقة الصائبة أو سكتت عنها ولم تظهر عند الحاجة إليها أو خانت الأمانة التي ائتمنت عليها فلم تؤد حقوقها أو خضعت لمصالحها الذاتية الفردية فلم تؤد ما أمرت به وما إلى ذلك، فإن هذه العناصر المؤثرة في المجتمعات اذا لم تعط من قوتها قوة للأمة لتكون سداً منيعاً أمام الظلم ـ ومن علمها علماً لترتفع هذه الأمة إلى مستوى الثقافة المطلوبة على جميع المستويات لتزيل بذلك ظلمة الجهل التي تقود إلى التخلف والسقوط، وترفع نير المذلة عن الأعناق وسطو الطغاة عن البلاد وتنتج فكراً يستدل من خلاله على إبطال الشبهات والوقوع في الهلكات ونفي الخرافات والبدع والغلو.

بعد هذه المقدمة أورد حديثاً لأمير المؤمنين علي عليه السلام يحدد فيه هذه العناصر المؤثرة في المجتمع وما يكون سبباً مباشراً في فساده. أنه سئل عليه السلام عن أحوال العامة فقال: «**إنما هي من فساد الخاصة وإنما الخاصة ليقسمون على خمسة: العلماء: وهم الأدلاء على الله، والزهاد: وهم الطريق إلى الله، والتجار: وهم أمناء الله، والغزاة: وهم أنصار دين الله، والحكام: وهم رعاة خلق الله. فإذا كان العالم طماعاً وللمال جماعاً فبمن يستدل؟ وإذا كان الزاهد راغباً ولما في أيدي الناس طالباً فبمن يقتدي؟ وإذا كان التاجر خائناً وللزكاة مانعاً فبمن يستوثق؟ وإذا كان الغازي مرائياً**

وللكسب ناظراً فبمن يذب عن المسلمين؟ وإذا كان الحاكم ظالماً وفي الأحكام جائراً فبمن ينصر المظلوم عن الظالم؟

فوالله ما أتلف الناس إلا العلماء الطماعون، والزهاد الراغبون والتجار الخائنون والغزاة المراؤون، والحكام الجائرون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»[١] انتهى الحديث.

من هذا الحديث نستوحي بعض العناصر المؤثرة في فساد المجتمع فإذا خضع العالم لمصالحه الشخصية وتحول إلى واعظ للسلطان والتمس شيئاً من فضول الحطام فترك علمه أو خاف من إظهار الحق خوفاً على لقمة العيش أو حورب بها فكانت سبباً لترك العمل بعلمه وما إلى ذلك مما نشهدْ في عالمنا الإسلامي. فهل يمكن عند ذلك معرفة الحق؟ وإذا تحول الزاهد الذي هو مظهر من مظاهر القدوة للناس في سلوكه الأخلاقي وممارساته العبادية التي يؤثر فيها بشكل كبير على محيطه ـ إلى راغب لما في أيدي الناس من الجاه والسلطان وأموال الدنيا وزخارفها وما إلى ذلك، تحول من قدوة إلى نقمة على محيطه ودينه فكيف يقتدى بإنسان يدعي الزهد ويظهره وهو يركب سيارة فخمة مثلاً أو يسكن في منزل بمواصفات لا تكون إلا عند أهل الدنيا وما إلى ذلك مما هو في أيدي الناس فلا يبقى قدوة حينئذٍ وكيف يوصلون من اقتدى بهم إلى الله؟.

وإذا خان التجار الأمانة فيما أولاهم الله من نعم وسعة في المال من خلال تجارتهم فخانوا الأمانة ومنعوا أداء الحقوق والزكاة المفروضة على الأموال تحولوا إلى طغاة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾[٢] وليس طغيانه إلا من جهة منع زكاته لأن تأدية الزكاة تعني خوف التاجر من الله ورعايته لحقوقه عليه فلا يخون حقوق الفقراء المفروضة في ماله ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٣]. لأن الفقراء والمساكين والأيتام شركاء معهم في ماله بنسبة فرضها الله عليه في زكاة المال

---

(١) ميزان الحكمة، ج ٧ ، باب الفساد.

(٢) سورة العلق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ١٩.

فإذا تصرف خلاف ذلك كان خائناً لأمانة الله ولا يتجر بما لا يرضى الله تعالى.

وإذا تحول الغزاة وهم جنود الأمة وحماة الأوطان إلى مرائين في إنجازاتهم الدفاعية فإنهم لن يدفعوا عن أوطانهم وأديانهم إلا إذا كان في أفعالهم مدعاة للرياء، ففي المواضع التي ليس فيها رياء لا يتحركون ولا يدافعون وعليه تترتب الهزائم للأمة تلو الهزائم أو إذا كان في نية الغازي الدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين أن يحصل على وظيفة براتب شهري، أي ناظراً للكسب فكيف سيفكر بروح الجهاد التي تجعله مستعداً للموت لأجل قضيته؟ ولن يعيش روح الجهاد وينظر إلى الجنة التي وعد الله المجاهدين.

وإذا سلك الحكام وما أدراك ما الحكام طريق الظلم والجور في حكمهم مما نراه عبر التاريخ والأزمان ولا يحتاج إلى كثير بيان لأن ممارساتهم في كل أوان مما يشاهده جميع الناس بالعيان، فمن يأخذ بظلم المظلوم ومن ينصره إذا ظلمه الحاكم؟ ومن سيقف في وجه هذا الحاكم؟ وكيف سيرفع الجور عن المظلومين؟ فالحاكم الظالم سبيل العدل، عنده هو هواه ومصالحه والمحافظة على كرسيه عاش الناس أو ماتوا تحسنت أوضاعهم أو وصلوا إلى الحضيض أكل الناس أو جاعوا أعطوا حقوقهم أو لم يعطوا...؟ إن ظلم الحكام هو الذي يفسد مجتمعاتهم لأن الناس كما يقال على دين ملوكهم فإذا كان الحاكم صالحاً وفي أحكامه عادلاً يمكن الإصلاح في أمته وإذا كان على خلاف ذلك فبمن يرفع الظلم عن المظلوم؟

هذه أهم العناصر التي تبعث على الفساد في الأمة وهناك بعض الأفعال التي شملها عنوان الإفساد لما يترتب على ارتكابها من أثر سيّئ في المجتمع يترك بصماته هنا وهناك نذكر جملة منها على وجه الاختصار:

قتل النفس المحترمة والاعتداء عليها بإزهاقها فساد في الأرض لأن ذلك يتحول إلى استسهال قتل الإنسان وبالتالي يؤدي إلى فنائه عندما يقتل هذا ذاك ثم يقتل القاتل ويقتله آخر وهكذا. ربما يصبح القتل عشوائياً وثأرياً.

لذا جاء عن الإمام الرضا عليه السلام: حرم الله قتل النفس لعلة فساد الخلق في تحليله لو أحل وفنائهم وفساد التدبير ـ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ

فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[١] والزنا وصف بالفساد لما يترتب عليه من آثار سلبية في المجتمع من انحدار مستواه الأخلاقي وسقوط العفة والحياء والاعتداء على الأعراض واختلاط الأنساب فلا يعرف الولد من والده وكثرة الزنا تؤدي إلى إظهار فواحش أخرى منها قتل الزاني أو الزانية انتقاماً للعرض والشرف ومنها إشاعة الفاحشة واتهام المحصنات وغير ذلك، لذا كتب الإمام الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جواب مسائله قائلاً: «**وحرم الله تعالى الزنا لما فيه من الفساد من قتل الأنفس وذهاب الأنساب وترك التربية للأطفال وفساد المواريث وما أشبه ذلك من وجوه الفساد**».

وكذا عدَّ من وجوه الفساد حرمة اللواط وقذف المحصنات وأكل مال الناس بالباطل وما اليه.

وأخيراً أذكر من وجوه الفساد هتك حرمة المؤمنين من خلال بث الإشاعات بينهم التي تؤدي إلى فرقتهم وهدم وحدتهم وتشرذمهم ما يجعلهم لقمة سائغة لأعدائهم مما يؤدي إلى فساد حالهم وهذا ما نلاحظه عند عامة المسلمين في هذا الزمن فلا نراهم يتوحدون على قضية تمس أخلاقهم ودينهم وأوطانهم. إننا نرى أن أعداء الدين يحاولون تمزيقه بكل الوسائل الإعلامية والمادية والثقافية وأحياناً العسكرية ونجد من المسلمين من يبرر لهم أفعالهم ويتصدى للدفاع عنهم في الوقت الذي ينبغي على كل علماء الإسلام والمسلمين أن يتصدوا لكل انحراف في الأمة والأفكار المنحرفة والقوانين المخالفة لمبادئ الإسلام والله تعالى يوصينا في كتابه أن لا نفسد في الأرض بعد إصلاحها فقد تم إصلاح الأرض بمبادئ الإسلام وعقائده وبالنظم التي رسمها الله تعالى لكل شيء في الكون والطبيعة، فعند استغلال الناس للثروات الطبيعية بشكل غير معقول وبطمع غير محدود وعند الاعتداء على الأشجار والخضار وتحويل مناطق واسعة إلى صحراء وعند التسبب بانقراض بعض الحيوانات ذات الفائدة للأرض والزرع، عند بث سموم الدخان والغازات ما أدى إلى ثقب طبقة الأوزون وغير ذلك

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٢.

من وجوه تعدي الإنسان على الطبيعة فإن كل ذلك يعدُّ فساداً في الأرض.

وكذلك عند التشرذم وعدم الأخذ بأسباب الوحدة وعدم الانصياع إلى أحكام الإسلام وحكم القرآن عند الاختلاف والرجوع إلى الله والرسول عند الفرقة، والابتعاد عن الحوار الذي أمرنا الله تعالى به مع أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾[1].

وقوله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2].

عندما لا نأخذ بهذه التعاليم السمحة مع المسلمين في الوقت الذي أمرنا الله بها مع غير المسلمين ألا يكون ذلك من الفساد في الأرض المؤدي إلى خراب العباد ونفوسهم وابتعادهم عن بعضهم؟ حتى وصل الأمر عند بعض المسلمين إلى أن يهدر دم مسلمين آخرين قربة إلى الله تعالى أليس هذا رأس الفساد الذي نهينا عنه؟ إن من يصنع الفرقة بين المسلمين هو رأس الفساد ومن يبث الإشاعة بين المؤمنين بغية تفريقهم فهو يبغي الفساد وعلى المسلمين الحذر من كل هؤلاء ومحاسبتهم حتى لو كانوا من كبار علماء الأمة.

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[3].

ومن المفاسد هذه الأيام انتهاك حرمة بعض العلماء لبعضهم الآخر لمجرد الاختلاف في الرأي الواقع بين أهل الخرافة والغلو وإظهار الدين وتثبته عبر الأحلام وبين من يتصدى لهم وهم قلة نادرة فتراهم يستحلون كل محرم لإسقاط المصلحين والدعاة المخلصين بحجة المصلحة الإسلامية الكبرى وليس ذلك إلا للحفاظ على مقدسات مخترعة وآراء مبتدعة وشعائر مصطنعة لأن بها معاشهم وقداستهم ومكانتهم بين الناس.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧٧.

ظاهرة السفور وانعكاساتها

من أهداف الإسلام السامي ضبط حركة الإنسان الداخلية من خلال تزكية نفسه والخارجية من خلال التدخل في حركاته وسكناته ومظهره الخارجي الذي يعكس صورة واضحة وحية عن واقعه الداخلي وليس ذلك إلا لتربية شخصيته الإيمانية الإنسانية في خط الاستقامة في الحياة ومن أخطر المفاسد الاجتماعية ظاهرة السفور المتزايدة يوماً بعد يوم والتي تؤثر سلباً على المجتمع وتهدد الأمن والحياة بأسرها وقبل أن أدخل في انعكاسات السفور السلبية على المجتمع لا بدّ من الحديث عن هذه الظاهرة.

أولاً: ظاهرة التعري:

ما نشاهده اليوم من ظاهرة التعري لدى الفتيات وحتى الشبان الذين يحاولون إظهار مفاتن الجسد متفننين في تزيينه بالحلي أو الملابس أو طبع الأوشام عليه وما إليه، مما فنستغرق نحن في عالم الشرق دائماً في استيراده من الغرب ونندمج فيه وكأنه شيء مقدس نلتزم به فيعكس شخصيتنا الهشة التي تعيش عقدة النفس في ذاتها ولا تشعر بإنسانيتها من خلال ما أودع الله تبارك وتعالى فيها من أسرار لأنها لا تعيش عمق الإيمان في شخصيتها فتسد هذا النقص الذي تشعر فيه بمثل هذه الأمور.

في الوقت الذي لا نشعر في مجتمعاتنا أننا نستورد من الغرب العلوم والتطور الفكري والحضاري الذي يخدم إنسانية الإنسان.

ثانياً: تحصين المجتمع:

لقد أراد الإسلام أن يحصن المجتمع من خلال تحصين الإنسان الذي شرع له تشريعات متنوعة الأحكام متعددة المواقع هدفها الإحاطة بكل أفعال وحركات الإنسان في جميع أبعاده، ومن هذه التشريعات النهي عن السفور والتعري بالنسبة للمرأة ولعل ذلك خاضع لميزان العلاقة مع الرجل، فالنهي عن السفور يمثل ضبطاً للأوضاع المثيرة للشهوة ولحركة الغريزة في الجسد كي تكون العلاقة بينهما علاقة طبيعية نظيفة تدخل ضمن النطاق الأخلاقي الواسع لنظافة الروح والجسد على أساس مبدأ العفة في شخصيتهما التي تحقق المناعة في النظرة والتفكير والسلوك، ولذلك جاء في الكتاب الكريم أمر للنبي ﷺ بأن يأمر النساء المتصلين به أو سائر النساء بالستر الذي يبعد التأثر لكل ناظر إليهن سواء التأثر القلبي المحض أو المتتبع إلى إظهار حركات الكلام معهن أو الابتسامة أو ما إلى ذلك مما يجر إلى المعصية والوقوع في الحرام قال تعالى في سورة الأحزاب الآية ٥٩ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ﴾ فالحجاب أو الجلباب يمثل الحاجز الخارجي الذي يتحول إلى حاجز نفسي يحول بين الشباب والفتيات من الانجذاب الشعوري أو الأساس الغريزي المفاجئ عند النظرة إلى المفاتن الظاهرة وقد كانت التجربة بين مجتمعات الاختلاط ومجتمعات الحجاب تدل على صدق ذلك من قلة الفساد في مجتمعات الحجاب وكثرته في مجتمعات التعري هذا في السابق، أما اليوم فأخالني مع هذا الحجاب المتطور بألوان الزينة والألفاظ الملفتة للفتيات مع الشباب وبالعكس أصبح الفساد سواء في مجتمعات التعري والحجاب (المودرن).

وليس معنى هذا أن مثل هذه الضوابط تمنع الخطيئة مطلقاً، بل إن الضوابط الأخلاقية الإسلامية تهيئ الأجواء التي تمنع مجال تفشي الخطيئة وتحصرها في مجالها الخاص جداً.

ثالثاً: السفور وانعكاساته:

إن انعكاسات السفور على المجتمع كثيرة وإن الاستغراق في إظهار مفاتن الجسد وتزيينه يؤدي إلى إماتة غريزة الحياء عند الإنسان فإذا بدأت المرأة مثلاً بخلع الحجاب اليوم فستظهر غداً عنقها ثم صدرها ثم منكبيها ثم ساقيها وهكذا حتى رأينا في هذه الأيام نساءً لا يرتدين إلا شبراً من القماش في موضعين فقط وليس ذلك إلا لأن جلباب الحياء منها فقد وعنها نزل، فإذا فقد الحياء وزاد التعري أتى مباشرة دور الكلام المعسول الذي بدوره يتطور ليفقد عفته وتوازنه فيتحول إلى فحش وإذا تحقق الاثنان كثر الزنى وخلافه وانتشرت الخيانة بين الأزواج وعالم الغرب أصدق شاهد على ما نقول وعالمنا المندهش بهذا التخلف المسمى حضارة بدأ ينحدر ويسقط في الرذيلة وليست الأمور مقتصرةً على ذلك بل إذا فقد المجتمع الحياء والعفة وانتشرت فيه المفاسد فإن لكل مفسدة سلبيات عديدة قد تؤدي إلى الجريمة والسرقة والتفنن في الاعتداء على الأعراض لأن الإنسان بطبيعته يحتاج دائماً إلى التجديد حتى في المفاسد. لذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**ما من صباح إلّا وملكان يناديان ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال**». لذلك حذر الإسلام من هذه الأمور وكما أمر بالحجاب والستر أمر بغض النظر عمن يظهرن هذه المفاتن وأمر بستر كل زينة لأجل صيانة المجتمع قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[1].

فهاتان الآيتان تتحدثان عن موضوعين مهمين النظر وإظهار الزينة المستتبعين للتعري الجسدي لما لهما من تأثير على إثارة المشاعر الغريزية لأن النظر إلى الجسد العاري أو المرأة السافرة يعكس انجذاباً غريزياً يغذي الخيال ويثير الريبة ليتحرك الإحساس في اتجاه التلذذ المنحرف وهذا يؤثر سلباً على روح الإنسان وشخصيته

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

لأن إثارة الغريزة في النفس مرة بعد أخرى لا بدّ من أن يسعى إلى تلبيتها.

ولذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**من ملأ عينه من حرام ملأ الله عينه يوم القيامة من النار إلا أن يتوب ويرجع**»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «**النظرة سهم من سهام إبليس مسموم من تركها لله عز وجل لا لغيره أعقبه الله إيماناً يجد طعمه**».

وأما إبداء الزينة فإنه يهيئ الجو النفسي للإغراء الذاتي من قبل المرأة فيما يثيره من شعور بالجانب الجمالي في جسدها وبالقيمة الكبيرة لما تملكه من مفاتن مثيرة ومجوهرات تجتذب إعجاب الرجال بها وتثير غرائزهم مما يجعل هذه المفاتن الجسدية في موقع الأهمية الكبيرة من أنوثة المرأة التي تجتذب قلب الرجل إليها من خلالها فيتحول ذلك لديها إلى حركة متنوعة في وسائل الإغواء التي تجعلها تلح في الاهتمام بالزينة. وبذلك تفقد الاهتمام بالجوانب الأخرى من شخصيتها كعلمها وأدبها وما إلى ذلك مما ينعكس سلباً على حياة المجتمع المسلم وعلى السلوك الأخلاقي العام.

لذا جاء في الحديث عن الأمير عليه السلام: «**النساء أعظم الفتنتين**».

وقد توعد الإسلام هذه الأصناف من النساء العاريات المظهرات للمفاتن والمتزينات بدخول النار وعدم شم ريح الجنة وذلك لما أسلفنا من تأثيرهن على إفساد المجتمع.

رابعاً: الأمر بالستر

لأجل هذا كله تنبه الإسلام إلى مخاطر التعري والسفور وحرم ذلك بحدوده التي نترك تفصيلها لعلم الفقه ونورد وصية للإمام علي عليه السلام وهو يوصي ابنه الحسن كيف يوجه النساء نحو الستر والعفاف لصيانتهن قال عليه السلام: «**واكفف عليهن من أبصارهن**

---

(١) ميزان الحكمة.

بحجابك إياهن فإن شدة الحجاب خير لك ولهن من الارتياب وليس خروجهن بأشد من دخول ما لا يوثق به عليهن وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك من الرجال فافعل».

هذه الوصية ذات جوانب ثلاثة:

الأول: أمرهن بالحجاب وذلك للأمن من الارتياب والفتنة وتقدم تفصيله.

الثاني: عدم خروجهن وليس معنى ذلك حبسهن في الدار بل اختيار كيفية الخروج.

الثالث: مبالغة في عدم معرفة أحد من الرجال لهن إن استطعت ذلك، وليس ذلك إلا لأن مجتمعاتنا تنظر إلى المرأة نظرة جنسية غالباً كان يتوافق مع ذلك الزمان أو مبالغة في عدم التعرف على الرجال حتى لا يتعرضن للأذية أو لغير ذلك، والله العالم.

قد يقال إن الإسلام يضطهد المرأة من خلال إلغاء إظهار أنوثتها والحد من حريتها ويعتبرون أن العفة هي أن لا تسقط أمام المفاتن لا أن تمنع إظهار هذه المفاتن، قلنا: إن الإسلام لا يريد إلغاء شخصية المرأة الأنثوية بل يؤكدها كحالة إنسانية طبيعية متصلة في امتداد الإنسان بالحياة وتلبية الحاجات الجنسية والغريزية كما هو الحال في الأكل والشرب وما إليه، ولكن الإسلام لا يريد للأنثى كما للرجل أن يلغي جوانب شخصيته الأخرى لينخرط في الاهتمام بالمفاتن فقط كما نشاهده في العالم من تحول للمرأة إلى سلعة دعائية وجنسية من دون أي قيمة إنسانية، ومن هنا يمتنع تحويل التحريم إلى عقد نفسية لدى المرأة وذلك عندما يقف الإنسان أمام المحرمات الشرعية ليعيش الجو الإيماني الذي فتح قلبه على الله على أساس حاجة الإنسان إلى رعاية الله له، ثم إن المقارنة بين المصلحة العامة للمجتمع التي تبعده عن الوقوف في المفاسد وبين المصلحة الشخصية لبعض الأفراد التي تلبي رغبة معينة تفرض تقديم المصلحة العامة في إطار التحريم لهذه الأمور.

وأما حكاية أن المرأة جمال وإبداع إلهي لماذا نخبئه؟ نقول: إن الجمال والإبداع

لا ينحصر في هذه الدائرة الخاصة حيث يختلط الذوق بالغريزة والشعور الغني بالمشاعر الجنسية الأمر الذي ينعكس سلباً على السلامة الاجتماعية على مستوى المبادئ العامة لأن المفروض الحفاظ على القضية العامة ومسؤولية التشريع هو تخفيف عوامل الانحراف في واقع المجتمع وتضييق دائرته التي تسيء إلى النظام الأخلاقي العام.

إن القيود الشرعية في دائرة العلاقات الإنسانية تستهدف دائماً حماية الأجواء العامة من كل النتائج السلبية التي يمكن لها أن تحرك هذه العلاقات في دائرة الاهتزاز لا من مواقع الثبات، فالتشريع يزيد المجتمع مناعة وقدرة على مواجهة الضغوط القاسية على الشباب والشابات.

أيها القارئ العزيز إن الله تعالى لا يحرم شيئاً إلا إذا كان فيه مفسدة عظيمة للإنسان ومعلومية المفسدة في التعري أوضح من أن يستدل عليها، لذا ينبغي العودة إلى الأصول والجذور، إن إنساننا كان يعيش عادات وتقاليد حسنة في الستر والعفة قبل أن يؤكدها الدين أو قبل معرفتنا لها ولكن استغراقنا في التمدن لا المدنية جعلنا ننسى كل تلك العادات الحسنة التي ربما منشؤها الدين، فأصبح الأب يغض الطرف عن بناته ليواكب عصره ولكي لا يوصف بالتخلف، والأم تنسى دورها في تربية بناتها على العفة وعدم التعري لكي تظهر نفسها أنها متحضرة والسؤال لكل الأعزاء هل الحضارة تكون بعرض الأجساد للناظرين؟؟ هل الحضارة تعني جلب الغاوين والذين في قلوبهم مرض لفتياتنا وأعراضنا؟ هل الحضارة تعني أن يتكلم جسد ابنتك أو زوجتك ليقول لكل طامع إلي إلي؟؟ كم من الجرائم ارتكبت جراء ذلك؟ كم رجل قتل ابنته لأنها زنت وجلبت العار للعائلة؟ والسبب في الأصل يكون غالباً هو إظهار مفاتنها. وكم أخ زج في السجن لقاء أنه يدافع عن عرضه من الطامعين؟ وكم من الأولاد ولدوا من غير طريق شرعي؟ إن الرجل العاقل هو الذي يحصن أزواجه وبناته من الوقوع في الأخطاء.

إن القيود الشرعية في دائرة العلاقات الإنسانية تستهدف دائماً حماية الأجواء العامة من كل نتائج سلبية.

الشباب بين التربية والانحراف

قال الأمير عليه السلام: «**لا تقسروا أبناءكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم**».

كلمات عظيمة ووصية علوية رائعة أطلقت منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ونيف انطلقت من صميم الواقع لتكون شاملة وعامة للآباء والمربين الذين وضعت القدرة الإلهية أرق الأفئدة وأخصب مراحل العمل الإنساني بين أيديهم يستفيدون منها.

هل يطبق الآباء تلك الوصية في هذه الأيام؟

وما هي المشاكل التي يعاني منها الشباب؟

وما هو الحل؟

بين هذه السطور نحاول الإجابة على هذه الأسئلة وذلك بولوج الأبواب المغلقة للنفوذ إلى عقول الشباب وقلوبهم لمعرفة حقيقة أفكارهم والمشاكل التي يعانون منها، ولطالما اعتبر علماء النفس والاجتماع أن معظم المشاكل التي يعاني منها الشباب تكون بسبب تربية الأهل غير الواعية أو غير المسؤولة وبسبب البيئة المحيطة بهم وهذا ما سنستعرضه في النقاط التالية:

النقطة الأولى: جهل المربي: وهو أمر له أشد السلبيات على الشباب يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**مؤدب نفسه أحق بالإجلال من مؤدب الناس**» ومن هنا لا بدّ من أن يتمتع المربي بمستوى معين من الأخلاق يؤهله لتربية الأجيال التي ستتلمذ على

يديه ولكن المشكلة تكمن في جهل العديد من الآباء الذين يسيئون تربية أولادهم وذلك من خلال التعامل معهم بطريقتين، إما يعاملونهم كأطفال لن يكبروا أبداً فيربكون بذلك حياتهم ويعقدونها وكأن لسان حالهم يقول: لم تزل ليلى بعيني طفلة لم تزل عن أمسي إلا إصبعاً، مما يؤدي إلى حالة التمرد والانقلاب ضد الأهل ومعتقداتهم ومحاولة الشباب تغيير الواقع والإثبات لأهلهم أنهم بلغوا سن الرشد ويستطيعون تحمّل مسؤوليتهم بأنفسهم.

وإما يعاملونهم كناضجين فيعطونهم الحرية المطلقة دون التدخل لتهذيب أفكارهم وتشذيب السيّئ منها مما يعطي الشباب ثقة كبيرة بأنفسهم تدفعهم إلى حب المغامرة والمخاطرة في سبيل تجربة بعض الأمور الجديدة والتي لا تتناسب مع أعمارهم وأخلاقياتهم كالاجتماعات السرية أو المعلنة التي يتناول خلالها السجائر أو ما هو أشد منها ضرراً كالكحول والمخدرات وغيرهما وكذلك الإعلام الفاسد، ولهذا لا بدّ من اعتماد طريقة وسطية بين التقييد والحرية وبين الجدية والهزلية حرصاً على أولادنا.

النقطة الثانية: الثواب والعقاب هو من الضوابط الأساسية التي ينبغي مراعاتها في التربية وكثيراً ما يغفل الأهل عن هذه الضابطة أو ينتبهون لجزء منها دون الآخر.

فالشاب إذا لم يجد الحافز الذي يرغبه بالخير ويرهبه من الشر لن يتفاعل أبداً مع المربي. كما نجد بعض الآباء يسيئون استخدام فكرة الثواب والعقاب فيثيبون أبناءهم على أقل عمل أو نجاح وتكون هذه الإثابات لا تتناسب مع أعمارهم كالأب الذي يهدي ابنه أو ابنته سيارة جديدة مع العلم أنهما لم يبلغا بعد سناً تؤهلهما لقيادة السيارة، وبعضهم الآخر يستعمل أساليب العقاب السيئة كشتم الشاب وإهانة كرامته بكلمات قاسية أو الضرب المبرح أحياناً مما يؤثر سلباً على نفسية الشاب ويدفعه نحو التمرد والانفجار وبالتالي الانحراف.

النقطة الثالثة: عدم تثقيف الشباب من الناحية الخلقية والعقلية والجسدية.

عندما ينتقل الشاب من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ يتحرك لديه الشعور بوجوده ككائن بشري له استقلاليته وكيانه وغرائزه. والمشكلة تقع عندما لا يقوم الأهل بتوجيه هذه المشاعر وغرز بذور الأخلاق الحميدة داخل نفس الشاب وتعريفه بالمرحلة التي سيواجهها فنجد الفتى في مرحلة الشباب يعيش حالة من الضياع كأنه في دهاليز متشعبة ومتشابكة لن ينتهي منها أبداً. ولهذا لا بدّ من وضع منهجية تربوية توضح للشباب مراحل حياتهم والسبل المساعدة للانتقال من مرحلة إلى أخرى لاسيما الانتقال إلى مرحلة الشباب.

النقطة الرابعة: التفريق في التربية بين الفتى والفتاة وهذا الأمر كثيراً ما يميز الأهل في التربية بين الذكر والأنثى مما يشكل لدى الفتاة عقدة نفسية تدفعها إلى الخوف والحذر في كل تصرفاتها ذلك أن التربية في مجتمعنا غالباً مما تتركز على أساس أن البنت هي العار والشرف، لذلك يجب أن نحفظها في علبة مغلقة يملك مفتاحها الأب أو الأخ وهذا لا يجري مع الفتى الذي يربى على أنه إنسان عادي له حرية التصرف والتنقل والعمل بعكس الفتاة.

النقطة الخامسة: المشاجرات العائلية داخل الأسرة بين الوالدين وأمام الأولاد وخصوصاً العنيفة منها فضلاً عن أنها تؤدي إلى شرخ كبير في العائلة فإنها تكسب أفراد الأسرة صفات سيئة يحاول الشباب تطبيقها عند أقرب فرصة وتخلق عندهم عقداً نفسية كحالة الكآبة والنفور وغيرها.

بعد كل الأخطاء التي يرتكبها الأهل بحق أبنائهم لا عجب أن يلجأ الأبناء إلى نحو الهروب من واقعهم وهنا ينقسمون إلى فئات متعددة:

الفئة الأولى: بعضهم يعيش حالة تمرد وانفعال فيكسر كل القوانين والقواعد ويقفز فوق الحواجز الأخلاقية والعرفية متجهاً نحو الانحراف والفساد.

الفئة الثانية: البعض منهم يقفل باب غرفته عليه ويعيش الوحدة فيهرب من الواقع باتجاه الخيال ليكتب قصص التمرد والعنف والجنس مما يجعل مناعته

الداخلية هشة قابلة للانكسار والتلف بشكل سريع.

والقسم الأخير يندفع نحو أفلام العنف والجنس المستوردة على شاشاتنا ويحاول تطبيقها على أرض الواقع فتكون النتيجة شباب ضائع ومنحل ومنحرف وغارق في وحول الجريمة..

في هذه الحال تتولد مشكلة من مشكلة وهي ردة فعل الأهالي تجاه انحراف أولادهم فيسلكون أحد الاتجاهات التالية:

الاتجاه الأول: يتخلون كلياً عن الشباب ويتبرؤون من أفعالهم.

الاتجاه الثاني: يرفعون بوجههم بيرق الحرب ويشهرون عليهم سيف الممنوعات كأنهم لا يتحملون عن وزر الوقوع في الخطأ وخير ما يعبر عنه في كلتا الحالتين هو قول الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

الاتجاه الثالث: وهو الأخطر وتلخص بموافقة الآباء لأبنائهم على أعمالهم ومحاولة تبرير أفعالهم سواء من الطرفين (الوالدين) أو من طرف واحد مما يخلق مشكلة جديدة في الأسرة وهذا يؤدي إلى تمسك الشباب بخط الفساد.

ما هي الحلول؟

الحل الأول: أن يحاول المربي اكتساب العلم والثقافة كي يتمكن من التقرب إلى أفكار الشبيبة وتفهم تصرفاتهم وتطلعاتهم بعقل وقلب منفتحين.

الحل الثاني: التعامل مع الشباب على أساس أنهم ذوو كرامة وآمال ومحاولة التقرب منهم كأصدقاء وتوجيههم عن طريق تقديم النصح والإرشادات لهم، وقد أشار أهل بيت العصمة عليهم السلام إلى ذلك في أحاديث منها: «**احمل صبيك حتى يأتي عليه ست سنين ثم أدبه في الكتاب ست سنين ثم ضمه إليك سبع سنين فأدبه بأدبك فإن قبل وصلح وإلا فخل عنه**».

الحل الثالث: الاعتدال في معاملتهم فلا حرية مطلقة ودلالاً وحباً زائدين ولا إهانة وإيذاء وعبودية.

الحل الرابع: عدم التحيز في التربية واعتبار الفتاة إنساناً كالذكر ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[١]، ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[٢] لها إنسانيتها ومشاعرها وإرادتها في الحياة والعلم والعمل حتى تتمكن من تقوية شخصيتها لمواجهة كل الأخطار التي يمكن أن تعترضها وتقابلها في الحياة.

الحل الخامس: الالتزام بكتاب الله وتوجيهاته وإرشادات النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين التي تجعلنا نسلك السبيل الصحيح لتربية الشباب وذلك بالاقتداء بتصرفات النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[٣] وهو الذي أوصانا بالشباب بقوله: «**أوصيكم بالشباب فإنهم أرق الأفئدة**».

ختاماً: لا يسعنا الادعاء أننا شخصنا وحللنا مشكلة تربية الشباب بشكل جيد أو وضعنا الحلول المناسبة لها لكننا استطعنا أن نعبر عن رأينا في هذا الأمر المهم عسى أن يوفق كل المهتمين إلى مثل هذه المعالجات آملين التجاوب مع هذه الهمسات الخجولة.

وليكن معلوماً أن الشباب أحباء الله وأنه تعالى يباهي بالصالح منهم ملائكته كما ورد في الأحاديث لأنه يترك كل شهواته والإعجاب بجماله وقوة جسده بطاعة الله سبحانه وتواضعه لله وترك شهواته والفرص التي تقدم له في شتى أبواب المعاصي لله سبحانه وتعالى وهم الذين أوصى بهم رسول الله ﷺ خيراً.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٥.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

ضوابط العلاقة بين الشاب والفتاة

البحث في العلاقة بين الشاب والفتاة يتمحور حول نقطتين:

النقطة الأولى:

حيث إن الإنسان في فترة الشباب يكون في أوج عنفوانه وقدراته العالية فيحاول دائماً التعبير عن إثبات شخصيته بتفجير طاقاته المخزونة بشتى الوسائل مما يستدعي الالتفات إلى ضرورة وضع الضوابط لهذه الطاقة حتى لا تهدر في غير محلها مما يؤدي إلى الفساد الأخلاقي والاجتماعي.

النقطة الثانية: أهم ما بحثنا حول موضوع العلاقة بين الشاب والفتاة هو الاختلاط الذي إن أسيء استخدامه يؤدي إلى هدم المجتمعات بأسرها سلوكياً وأخلاقياً وما إليه وهذا ما نشهده كثيراً وبالأرقام الخيالية في مجتمعات الغرب والذي يمكن دراسته باتجاهين رئيسيين يخضعان لضوابط متقاربة فيما بينهما من الناحية السلوكية يأتي الحديث عنها:

الاتجاه الأول:

ما يمكن أن نعبر عنه بالاختلاط العام سواء في المجالس العامة أو المدارس أو أماكن العمل أو الأسواق وغيرها.

الاتجاه الثاني:

وهو العلاقات الحميمة التي تنشأ بين الشاب والفتاة والتي يعبر عنها بالحب سواء كان عذرياً أم إباحياً.

وكلا الاتجاهين يقع البحث فيهما في مقامين، المقام الأول في نظرة الشرع المقدس إلى الاختلاط والمقام الثاني في آثار الاختلاط السلبية.

المقام الأول: لا مانع من الناحية الشرعية اختلاط الرجل بالمرأة خصوصاً مع الحفاظ على الضوابط الشرعية من حرمة اللمس من قبل أحد الطرفين إلى الطرف الآخر أو نظر أحدهما إلى الآخر بشهوة أو تلذذ أو ريبة والتلفظ بالكلام المشتمل على الألفاظ القبيحة أو يصل إلى حدّ الضحك أو الحركات المثيرة أو ترقيق الصوت من قبل المرأة فيطمع الذي في قلبه مرض وما إلى ذلك من الأمور التي تثير الغرائز وتحرك المشاعر عند الطرف الآخر من خلال ما يسمع أو يلمس أو ينظر فتكون النتائج حينئذ سلبية وتؤدي إلى ما لا تحمد عقباه وفي ذلك قال الشاعر:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب الوسائل في حديث المناهي قوله: «**من ملأ عينيه من حرام ملأ الله عينيه يوم القيامة من النار إلا أن يتوب ويرجع**». وقال عليه السلام: «**ومن صافح امرأة تحرم عليه فقد باء بسخط من الله عز وجل ومن التزم امرأة حراماً قرن في سلسلة من النار مع شيطان فيقذفان في النار**»... وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله: «**من صافح امرأة حراماً جاء يوم القيامة مغلولاً ثم يؤم إلى النار، ومن فاكه امرأة لا يملكها حبسه الله بكل كلمة كلمها في الدنيا ألف عام**». وهذا لعله إشارة إلى طول العذاب والله العالم، من هذه الأحاديث نستوحي التأكيد عن الامتناع في مثل هذه الأمور التي تثير الغرائز لصيانة المجتمع من الانحراف وإبعاده عن الفساد وتنظيم العلاقة بين أفراده وخصوصاً بين الشاب والفتاة على أسس العفة والاحترام المتبادل الذي يصون كرامة الإنسان والحفاظ على كيانه.

المقام الثاني: إن طبيعة الواقع الذي يحكم علاقة الشاب بالفتاة وما يعبّر عنه بالمشاعر والأحاسيس التي تختزنها الثقافات المتنوعة خصوصاً إذا كان المجتمع قد تلقى المفاهيم المدسوسة والمستوردة من الخارج عبر الإذاعات المرئية والمسموعة

واليوم عبر العالم الافتراضي أو عبر الوسائل المكتوبة تحت عناوين الحضارة والحرية والتي تخترق نفوس الشباب، ذكوراً وإناثاً، بشتى أنواع المفاسد الأخلاقية بحيث تثير فيهم الانتقام وشتى أنواع الإثارة للوصول إلى أبشع الصور الأخلاقية، ولهذا فنحن نرى الفساد الذي لا حدَّ له قد تحكم بالشباب حتى بالشكل الخارجي للشاب والفتاة وأصبح هو السبب الرئيسي للمشاكل المتزايدة من طلاق وتهديم للأسر وتضييع للنطف والمجتمع حتى أصبح الابن الشرعي مستهجناً في بلاد الغرب لأن العادة أن يكون الابن ابناً لعلاقة غير شرعية محرمة، هذا بالإضافة إلى مفاسد كثيرة ليس أهمها الأمراض الخطيرة الناتجة عن العلاقات غير المحددة الضوابط والتي تفتك بأفراد المجتمعات وتهدد حياة الإنسان كالإيدز وغيره الذي دبّ الرعب في نفوس الأمم وهذا مما لا يخفى على متتبع، ولو غضينا النظر عن هذه الأمور لوجدنا أن العلاقة بين الشاب والفتاة تنشأ في غالبها بل في كلها من الاختلاط أو الصداقة أو الحب وكلها علاقات مشرعة تشوبها أخطاء كثيرة لأن الإنسان لا يقف فيها عند حدّ الضوابط الأخلاقية والشرعية إذا لم يكن ملتزماً بحدود الله، ولهذا قد تؤدي العلاقة إلى نتائج سلبية وهذا ما حذر منه أهل البيت عليهم السلام في الحديث المأثور الذي يتناول الخلوة بين الشاب والفتاة: «**ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما**»... فالخلوة بين الجنسين أو الاختلاط ليس له موضوعية إلا من حيث أنه يهيئ الأجواء النفسية للانفتاح على الحرام، فالصداقة الحميمة التي تتنوع في لقاءاتها وأحاديثها وشجونها تؤدي إلى ما أشرنا إليه، أما إذا استطاع الطرفان ضبط أنفسهما من عدم الوقوع في الحرام وكان الاختلاط خاضعاً للحدود الشرعية المفروضة فلا مشكلة في ذلك ويمكن إجراء ذلك في العلاقات الحميمة أيضاً ولو بضبطها بعقد شرعي وما إلى ذلك.

من باب الحرص نقول لكل الآباء والأمهات: إن أبناءكم أمانة الله في أعناقكم لذا نقول: إن الواجب عليكم تربية شبابكم وفتياتكم بنحو لا يقعوا فيه بالمفاسد ويكونوا حذرين عند أي امتحان، ونقول للشابات وللشباب: إن عمركم الآن في

أوجه وهو أول ما تسألون عنه يوم القيامة بعد الصلاة. تسألون فيمَ قضيتم أعماركم وفيمَ ضيعتم شبابكم فتوبوا إلى الله وارجعوا إليه عز وجل وقد ورد في الأحاديث:

«**ما من شيء أحب إلى الله تعالى من شاب تائب**».

«**إن الله تعالى يباهي بالشاب العابد الملائكة يقول: انظروا إلى عبدي ترك شهوته من أجلي**».

«**ما من شاب يدع لله الدنيا ولهوها وأهرم شبابه في طاعة الله إلا أعطاه الله أجر اثنين وسبعين صديقاً**».

وهناك أحاديث كثيرة في هذا المعنى تحثّ الشباب على الاتجاه نحو الله وترك الدنيا ولهوها فقيمة عمل المرء في غاية قدرته لا في هرمه وهزله.

أيها الشباب انتبهوا إلى افعالكم وتصرفاتكم أثناء الاختلاط وواجهوا بكل قوة وعزم ما يسمى بالحضارات المستوردة التي هي عنوان التخلف والفساد الأخلاقي فبدل من أن تضيعوا شبابكم بلهو وعبث فتذهب مروءتكم وشخصيتكم ويغضب الله عليكم بسبب ذلك املؤوه في مواجهة الفساد والإفساد. قال تعالى:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[1].

ابتعدوا رحمكم الله ما استطعتم عن الاختلاط ومجالسة الصنف الآخر عند عدم الأمن من أنفسكم حتى لا تقعوا فيما لا يرضي الله.

إننا في هذا المختصر لا نعالج كل الآثار السلبية للاختلاط والمفاسد الناتجة عنه بل من باب التذكير لعل الذكرى تنفع المؤمنين، ولكم في يوسف الصديق عليه السلام رسولنا الأكرم في شبابه وجماله أسوة حسنة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧١.

نظرة إسلامية إلى الشهرة

من المفاهيم التربوية التي لها دخالة في تهذيب النفس البشرية والصفات الغريزية التي يسعى إليها أكثر الناس. واهتم بها الإسلام وهذبها بطريقة لا تصطدم مع طموح الفرد من جهة، ولا تسعى به نحو الهاوية من جهة أخرى، هذه الصفة هي الشهرة أو فقل حب البروز والظهور بين الناس بحيث ينتشر له صيت وسمعة واسم يعرف من خلاله. وتجد الكثير يستعمل طرقاً وأساليب غير شرعية للوصول إلى هدفه مستحلاً بذلك كل محرم لأن الغاية عنده تبرر الوسيلة في الوصول إلى المبتغى والأغرب من هؤلاء أنك تجد البعض يحب الاشتهار ولو بالمعنى السلبي له المهم عنده أن يذكر في كل مقام. ونحن نريد أن نفصل بين ما هو سلبي وما هو إيجابي.

الشهرة السلبية

ونقدّم هنا السلب على الإيجاب لأنه خاضع في الغالب لحب الذات الناشئ من كثرة الإعجاب ليخرج بها من كل باب يتسنى له الوصول منه إلى منصب أو جاه حباً برفع درجته بين الناس وعلو منزلته حتى لو كان ذلك على حساب الفقراء والمساكين وظلم العامة والخاصة وسرقة الناس وغشهم وما إلى ذلك مما يوصله إلى مراده من دون الوقوف عند حدٍّ من حدود الله.

واعلم أن من ترتفع مكانته في الدنيا درجة سيطول موقفه بين يدي الله عز وجل في الآخرة ليحاسب على كيفية الوصول من ناحية واستغلال درجته من ناحية أخرى،

ولذلك ورد عن النبيﷺ: «**ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها وأطول**» ـ (كنز العمال) ـ لأن ارتفاع درجته الدنيوية إن كانت ناشئة من الأساليب المنحرفة كخضوعه للظالم ليعطيه منصباً أو سرقة ثروات الناس ليصبح له جاه أو أي أمر يستعمله ليحصل على الشهرة سيطول حسابه ليُسأل عن كل صغيرة وكبيرة، ومن الناس من يعجبه زيادة الناس حوله ويستعملهم مطية للوصول إلى شهرته وهذا حال أكثر الزعامات، وعندما يرى الرجل كثرة هؤلاء الناس من حوله والهتف باسمه يموت قلبه ويكثر ظلمه لأنه يشد أزره بمن حوله ولذلك حذر النبيﷺ ممن فيه هذه الصفة بقولهﷺ: «**ما أرى شيئاً أضر بقلوب الرجال من خفق النعال وراء ظهورهم**». وهذا كناية عن الأزلام والحاشية التي تلتف حول زعيمها أو مسؤولها أو رئيسها. فيحذر هؤلاء من موت قلوبهم لكثرة تكبرهم وعجبهم بأنفسهم فيستعلي ويتفاخر مما يؤدي به إلى ظلم الناس لأن قلبه قد مات. ونرى في هذه الأيام زحفت هذه الآفة إلى بعض رجال الدين وبعض الروواديد حيث يجتمع حولهم الناس يقبّلون أيديهم فيمسحها المرافق له أو يبعد المرافقون الناس عنه بالدفع والقوة واستعمال طرق الاستعلاء خصوصاً عند من يصطنع القداسة حوله بكثرة الخرافة وأفكار الغلو وما إلى ذلك.

وهؤلاء الذين يشار إليهم بالبنان جراء شهرتهم لمكانتهم الاجتماعية ومسؤولياتهم السياسية والدينية وغيرها إذا لم يكونوا جديرين بالمسؤولية ولم يعدلوا في الرعية فقد استحقوا غضب رب البرية. ولذا ورد عن رسول اللهﷺ: «**كفى بالمرء من الإثم أن يشار إليه بالأصابع، قالوا: يا رسول الله وإن كان خيراً قال: وإن كان خير فهو شر له، إلا من رحمه الله وإن كان شراً فهو شر**».

هذا الحديث أيها القارئ العزيز تهتز له النفس وينبغي لكل صاحب مسؤولية يشار إليه بالبنان سواء كانت مسؤولية صغيرة أم خطيرة وفي أي موقع دينياً كان أم دنيوياً الحذر من دخول الغرور والعجب والتكبر وكل هذه الصفات الرذيلة إلى نفسه عندما يشار إليه بالإصبع، وتكبر مسؤوليته أكثر كلما كبر منصبه أكثر، فإذا لم يرب

نفسه ويعصمها بحدود الله فسيقع حتى لو كان خيراً له لأن العجب أو الرياء أو أي صفة مذمومة ستدخل قلبه حتى لو أعطى خيراً أو حكم بخير.

وهذا ما نشاهده بالعيان، والوجدان أدل برهان، من أصحاب المناصب والمسؤوليات والقيادات الزمانية والأخروية، وحتى بعض من ليس لديه مسؤولية بل في موقع الوجاهة أو صاحب مال، فإنه إذا أشير إليه استعلى وإذا ساعد منّن وإذا أعطى أعطى رياء واذا حكم ولو بالعدل فلأجل تحسين سيرته وليس لله ولذلك تكون الشهرة خيرها وشرها في النار كما ورد عن إمامنا الصادق عليه السلام.

شهرة العبادة واللباس

وهناك شهرة مذمومة سلبية يصل إليها بعض الناس عن طريق العبادة بحيث يقوم مطولاً في صلاته ويعلم الناس بكثرة صيامه ومساعدة الناس، لكي يشاع عنه بأنه عابد، ويعمد البعض إلى إحداث أثر في جبهته ليراه الناس فيتحدثون باسمه، أو يقرأ القرآن ليسمعه الناس شهرة أو أي أمر عبادي يقوم به بغية الشهرة فهو المتهم في دينه البعيد عن ربه يأتي يوم القيامة فيقال له: أنت قرأت القرآن لأجل الناس وقد أخذت أجرك من الناس وهكذا في غيره، ولذا ورد عن مولانا الرضا عليه السلام: «**من شهر نفسه بالعبادة فاتهموه على دينه فإن الله عز وجل يبغض شهرة العبادة**» ومثله وردت أحاديث كثيرة.

وهناك نوع آخر من الناس يحاول الاشتهار عن طريق ارتداء الأثواب المتميزة بألوانها الفاقعة وأشكالها المتنوعة أو يركب مركباً متميزاً بغية الشهرة، ولذا حرم الإسلام لباس الشهرة، وورد عن مولانا الصادق عليه السلام: «**كفى بالمرء خزياً أن يلبس ثوباً يشهره أو يركب دابة مشهورة**». وليس هذا إلا لأنه يصبح مظنة تهمة الناس ويكثر الكلام عليه ويجر العيب إليه.

الشهرة الإيجابية

هذا كله في الشهرة السلبية، وهناك شهرة إيجابية تحصل عند الإنسان لكن ليس

عن طريق السعي إليها بل تحصل تلقائياً عندما يتعب على نفسه كمن يطلب العلم لله خالصاً فيصبح من العلماء المرموقين ذا شهرة وهذا في خطر إلا أن يعصمه الله.

وكذا من يطلب رزقه فيعطيه الله فيصبح ذا جاه واشتهار. إن أي سبب مشروع يصل الإنسان من خلاله إلى الشهرة من دون السعي إليها والتخطيط الحثيث لها إذا استعملها في ما يرضي الله فلا بأس بذلك وهو في خطر دائم بقدر خطر مسؤوليته ووجاهته لأنه مسؤول عن ذلك يوم القيامة لذلك قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى ليسأل العبد في جاهه كما يسأله في ماله فيقول: يا عبدي رزقتك جاهاً فهل أعنت مظلوماً أو أغثت ملهوفاً؟**».

وهذا الحديث يلزم أصحاب الشأن والجاه بإعانة الناس ودفع الظلم عنهم وإغاثة الملهوف الذي عاش القلق والألم والخوف في كل حالاته. وأحب في هذا المقام أن أتوجه بالسؤال لكل الوجهاء في مسؤولياتهم أو أموالهم أو مقاماتهم وكل من حصل على الجاه من أي طريق، أين أنتم من هذا الحديث وخصوصاً في هذا الزمن الذي كثرت فيه المظالم والاعتداءات على حقوق الآخرين والنيل من كرامات الناس وأعراضهم وأموالهم وأرزاقهم هلا تستعملون جاهكم في خدمة الناس أم أن أكثركم أصبح قاطع طريق يبدل العطاء بالسرقة والمساعدة بالظلم ورفع الحرمان بزيادته؟ أين هم الذين يسعون في قضاء حوائج إخوانهم عند معارفهم من أصحاب الجاه والشهرة؟ فقد عطلت هذه الحسنة الرائعة خوفاً من أن يخرب علاقته بصاحب الجاه فلا يطلب منه شيئاً لأي أحد أو خوفاً من أن لا يحصل هو على عطائه وما إليه إننا نعيش في زمن كل إنسان يخدم فيه نفسه ومن بعدي الطوفان. وأجد هنا حديثاً يطابق زماننا لأن في زماننا تجد المستعفف الذي يعيش الفقر والجوع والحرمان ولا يسأل الناس شيئاً لعزة نفسه لذلك لا يسأل عنه أحد بل على العكس لا بدّ أن يسأل ويسأل حتى يكل أو يمل ويذهب بماء وجهه أمام كل صاحب جاه ليقضي حاجة هنا أو هناك وفي الغالب لا تقضى لأن الكبار همّهم حواشيهم وجماعاتهم وأقرباؤهم وأما الناس فلهم الله. لذا روى إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: قال:

«**يأتي على الناس زمان من سأل الناس عاش ومن سكت مات**».

قلت: فما أصنع إن أدركت ذلك الزمان؟ قال: «**تعينهم بما عندك فإن لم تجد فبجاهك...**».

انظروا إلى عظمة تعاليم أهل البيت وإلى ابتعادنا عنهم وعن تعاليمهم، أكثر الذين يساعدون بمالهم أو بجاههم يفعلون ذلك رياء وعند وجهاء القوم ليحصلوا على مكانة عندهم، وأما الفقير إن سأل الناس عاش وإن كان متعففاً فإنه يموت ألف موتة في اليوم وأعرف نماذج من هؤلاء الذين لا يسأل عنهم أحد لأنهم عفيفو الأنفس غير منتمين إلى جهات ويريدون وجه الله..

ورد عن رسول الله ﷺ: «**كفى بالمرء من الإثم أن يشار إليه بالأصابع**»، قالوا: **يا رسول الله وإن كان خيراً؟** قال: «**وإن كان خيراً فهو شر له، إلا من رحمه الله وإن كان شراً فهو شر**».

المؤمن لا يحب الشهرة:

ينبغي للمؤمن الذي يتطلع إلى الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا أن يخرج من قلبه حب الشهرة والرفعة وعلو الدرجة في الدنيا لأن ذلك يجعله محط الأنظار فإذا لم يقم بالعدل ولم يخدم من يحتاج إليه تكون عليه وبالاً، هذا إذا لم تورث في نفسه صفات سلبية كالكبر والعجب، ولذا كان الأمير عليه السلام عندما يصف المؤمن يقول عنه: «**يكره الرفعة ولا يحب السمعة**».

ولا يجتمع في قلب مؤمن حب الرفعة في الدنيا وعلو المنزلة ومثلها في الآخرة لأنهما متضادان في الطريق إليها فالأولى طريقها ما أسلفنا الحديث عنه، والثانية طريقها التواضع والعمل الصالح والى هذا المعنى أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «**من أحب رفعة الدنيا والآخرة فليمقت في الدنيا الرفعة**».

وهذا ليس معناه أن يتخلى المؤمن عن شهرته أو رفعته إذا حصلت له في الدنيا بل عليه أن يزيد من تأديب نفسه والسلوك بها نحو الطاعة والعبادة ومحاسبتها

ومراقبتها دائماً والاستماع إلى النصائح والإرشادات ولذلك نجد مولانا زين العابدين عليه السلام في بعض أدعية الصحيفة السجادية يشير إلى هذا بقوله: «**إلهي لا ترفعني في الناس درجة إلا حططتني عند نفسي مثلها ولا تحدث لي عزاً ظاهراً إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها**».

يعلمنا كيف نزداد تواضعاً عند ازدياد مكانتنا ومسؤولياتنا في المجتمع، لا أن نبتعد عن تأديب أنفسنا بالتواضع كما يفعل الكثيرون ممن يحصلون على المناصب الدنيوية ويشتهرون برفعة مادية أو معنوية فإنهم يتكبرون عن حضور مجلس وعظ أو صلاة تقام أو دعاء يقرأ فهم في مكانة أكبر من أن يستمعوا لمثل هذه الأمور ولم يعلموا أن ذلك نقص في شخصياتهم ورذالة في أنفسهم لأن الله أمر نبيه موسى عليه السلام أن يتعلم من الخضر عليه السلام ما يجهله وانتظره وذهب معه قائلاً: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1].

أيها الأعزاء، عزة المؤمن من ربه، ورفعته في تواضعه، وشهرته في إخلاصه، فمن تواضع لله رفعه الله من دون أن يسعى إلى الرفعة، ومن استكبر على الله وضعه الله ولذلك يعلمنا الأمير عليه السلام في دعاء كميل «**وفي جميع الأحوال متواضعاً**» فمن وصل إلى الإمرة والخلافة وجميع الصفات الكمالية الإنسانية مثل الأمير عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله؟ ومع ذلك لا تزيده هذه الرفعة والشهرة إلا تواضعاً لله عز وجل. ومن تواضع لله رفعه الله.

وفي دعاء ولده زين العابدين عليه السلام: «**يا رب إن رفعتني فمن يضعني وإن وضعتني فمن يرفعني**» الرفعة والضعة منه تعالى ولا تغرنكم الحياة الدنيا والعاقبة للتقوى.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٦٦.

الخاتمة : حول نموذجين قدوة

النبي ﷺ الشاب... قدوة الشباب

بحث يدور حول مرحلة الشباب قبل بعثة النبي محمد ﷺ بأسلوب تحليلي مقارن بين الشاب القدوة الواعي والمدرك لحقائق الأمور وبين الشباب الذين يعطلون جانباً أو أكثر من شخصياتهم وقدراتهم العقلية. لنأخذ من ذلك تجربة حية وقدوة للشباب في حياتهم وإذا أردنا الحديث عن ذلك الشاب قبل النبوة فإننا نبحث عن نزر يسير في بحر لجيّ يستحيل الأخذ بمجامع أطرافه وأغواره، فمن الصفات الكمالية الإنسانية الأخلاقية والسلوكية ما هو منقطع النظير من رجاحة عقل إلى حكمة فائقة تضع الأمور في نصابها، إلى تأمل في الكون وحالاته ودقة صنعه وتناسق نظامه إلى غير ذلك لم تجتمع في ميزات غيره سوى ذلك الشاب الذي اختاره الله عز وجل للنبوة في الأربعين من عمره وإن كان المؤرخون لم ينقلوا لنا إلا شيئاً يسيراً من مراحل حياته قبل النبوة إلا فيما اتصل بولادته المباركة وذكر نسبه الشريف وأحواله مع مرضعته وبعض مشاركات محدودة خلال شبابه كحلف الفضول وإشارته على القوم بوضع الحجر الأسود عند اختلاف القوم وغير ذلك مما سنتناوله بالبحث والتحليل، لعلنا نلقي ضوءاً على حياة النبي ﷺ في شبابه ومن ثمّ يكون شباب اليوم على بيّنة من ذلك مما يتيح لهم فرصة التعرف على شخصيته المميزة وتالياً للاقتداء به، لأن العلم مقدمة للعمل، ولا يستغني المرء عن قدوة ليمضي قدماً نحو الكمال.

اتفق المؤرخون والمحدثون أن النبي محمداً ﷺ كان في مطلع شبابه مرموقاً

ومثلاً كريماً لكل الصفات النبيلة والأخلاق الفاضلة وكان يعرف بالصادق الأمين فما دخل مجلساً أو محفلاً إلا قالوا: جاء الصادق الأمين الذي لم يعرف الكذب إلى لسانه سبيلاً في رد أي أذية توجّه إليه، ويظهر من الأخبار الكثيرة التي أوردها ابن شهرآشوب وغيره ممن أرخ أنه كان أحكم الناس وأشجعهم وأعدلهم وأعطفهم لا تمس يده امرأة لا تحل له، وكان سخياً لا يثبت عنده درهم ولا دينار، وكان متواضعاً بل أشد أهل زمانه تواضعاً يجلس على الأرض وينام عليها ويأكل عليها ويخصف النعل ويرقع الثوب ويفتح الباب ويحلب الشاة ويعقل البعير ويطحن مع الخادم إذا أعيى ويجيب دعوة الحر والعبد والناس عنده سواء إلى غير ذلك من الصفات الكمالية الإنسانية التي لم تجتمع في شاب مثله.

النبي الشاب:

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ سيد قريش يتصل إلى هاشم من أشراف العرب وكذا من جهة الأم آمنة بنت وهب سيد بني زهرة نسب شريف وعائلة ميسورة.

شاب لا ينقصه شيء من الجمال والكمال، فقد جاء في كتاب أعيان الشيعة المجلد الأول نقلاً عن ابن شهرآشوب وغيره ممن اهتم بنقل صفات ذلك الشاب الخلقية أنه كان أطول من المربوع عظيم الهامة رجل الشعر أي ما بين الجعودة والاسترسال أزهر اللون واسع الجبين، أزج الحاجبين أي رقيق في طول، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، وكان كث اللحية سهل الخدين وكأن عنقه جيد دمية في صفاء فضة، معتدل الخلق بادناً متماسكاً سواء البطن والصدر بعيد ما بين المنكبين، إلى غير ذلك من الأوصاف الجميلة التي يتمناها أي شاب في حياته يصرف وقتاً ومالاً وجهداً في سبيل تحقيق بعضها.

وشاب بهذا الوصف الجميل لا بدّ أن يكون محط أنظار الفتيات له حتى فيما لو لم يكن يحمل من المواصفات الخُلقية والروحية، لأن كثيراً من الشباب يستغل جماله أو عضلاته أو شعره أو أي شيء فيه ليلفت أنظار الفتيات إليه ساعياً بكل جهد

إليهن ملبياً نداء نزواته وشهواته منهن متفاخراً بين أقرانه بما يمتلك من جمال الجسد وقوة العضلات، ولكن على الشباب أن يعرفوا أن جمالهم مهما بلغ فهو أقل من جمال محمد ﷺ ويوسف عليه السلام، فيوسف ورد أن الجمال قسم نصفين بينه وبين الناس بحيث لا تراه امرأة إلا شغفها حباً وأذهلها جماله وأسكرها حسنه ومع ذلك كله كان مستعففاً بعيداً عن هذه الملذات المحرمة مترفعاً عن استغلال الفرص، لأن امرأة العزيز هي السيدة الأولى التي تملك القرار تستطيع حمايته وإغناءه وجعله في مناصب متقدمة في الدولة وربما تسعى لقتل زوجها وتنصيبه مكانه، ولكنه استعفف وفضل السجن على ما يدعونه إليه مخافة من ربه وعملاً بأخلاقه وسجاياه التي تحفظ الجميل لمن رعاه في بيته. ومحمد ﷺ لا يقل جمالاً في الجسد والهيئة والنور المتلألىء منه عن يوسف عليه السلام فيما ورد من أوصافه بحيث ما رآه رجل ولا امرأة إلا أعجب بشخصيته وتساءل.

وقد اشتهر عن السيدة خديجة بنت خويلد عليها السلام كما يروي المؤرخون قولها في مدح جماله:

جاء الحبيب الذي أهواه من سفر والشمس قد أثرت في وجهه أثرا
عجبت للشمس من تقبيل وجنته والشمس لا ينبغي أن تدرك القمر

وينسب أيضاً إليها قولها:

لواحي زليخا لو رأين جبينه لأثرن بالقطع القلوب على الأيدي

هكذا صفات جمالية تلوث نفسية الشاب الجميل من حيث الفخر والعجب الذي يعكسه جماله مما يجعله متكبراً متعالياً على من دونه في الجمال والقوة وحسوداً مبغضاً لمن هم أجمل منه أو مساوون له إذا لم يرب نفسه.

أما محمد ﷺ هذا الشاب الفريد، فقد كانت القيم التي يحملها في نفسه والشعور الذي يخالج وجدانه والعقل الذي ينفتح على كل الإنسان من حوله تمنعه من أن يمارس أي صفة سلبية يعكسها جماله الجسدي.

الشاب العامل الكادح:

وهذه ميزة أخرى للنبي محمدﷺ في شبابه حيث لم يبق عالة على أقربائه في تحصيل قوته وقد تركته المشيئة الإلهية يتيماً في صغره، فحاول أن يعمل بالتجارة مع عمه أبي طالب حيث ألحّ عليه بالخروج معه في تجارته إلى الشام ليتعلم فنون التجارة وليكسب قوت نفسه بعرق جبينه بدل من أن ينتظر الصدقة من هنا وهناك ليعتاش كما يفعل الكثيرون من الشباب هذه الأيام، حيث إنهم عطالون بطالون لا عمل لهم سوى ربط زوايا الطرقات والجلوس على حافة الشرفات والنظر والتعرض للذاهب والآتي حتى أدى الأمر ببعضهم إلى الجريمة والفساد من الفراغ الذي يعيشونه فعليهم التأسي بهذا النبي الشاب الذي سارع منذ نعومة أظفاره إلى تعلم التجارة وقيل: إنه في طفولته كان يرعى الغنم حتى روى عنه ابن إسحاق أنه كان يقولﷺ: «**ما من نبي إلا وقد رعى الغنم قيل: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا**».

إن ذلك لو صح يفيد أن العمل مهما كان وضيعاً ليس فيه بأس وعيب وعلى الإنسان أن يعمل أي شيء في حدود ما أحل الله لا أن يكون بطّالاً يعيش الفراغ ولا يعمل.

ثم إنهﷺ كان يخرج للتجارة في مال خديجة بنت خويلد إلى الشام وكانت ترى الخير على يديه وتأتمنه لصدقه وأمانته ورعاية أموالها فدخل قلبها ووافقت على زواجه بعدما بلغه من صدق حديثه وكرم أخلاقه وعرضت عليه نفسها وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً وكل قومها كان يحرص على الاقتراب منها لو يقدرون على ذلك.

وخرج أبو طالب وأصدقها وقال لها في نفر من أعمامه: إن ابن أخي محمد بن عبد الله لا يوازن برجل من قريش إلا رجح عليه ولا يقاس بأحد إلا كان أعظم منه وإن كان المال قل فإن المال رزق حائل وظل زائل وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة وصداق ما سألتموه عاجله من مالي.. وتم الزواج.

عنفوان الشاب العاقل:

من الطبيعي أن كل شاب يمتلك من المواصفات التي قدمنا بعضها يشعر بالعنفوان وهو في أوج قوته خصوصاً بعد سن المراهقة إلى الأربعين من عمره فيندفع لإثبات ذاته وإظهار قدرته ولو عبر الدخول في معارك وحروب من دون تفكير في سلبيات تلك الحروب وما تعكسه على المجتمعات من عداوات وبغضاء وأخذ بالثأر يمتد مع الزمن بين القبائل والعشائر والجماعات، ولكن النبي ﷺ القدوة لم يكن ليندفع وراء ما لا طائل وراءه لإرضاء الرغبة النفسية ومجاراة أهل قومه وعشيرته.

فقد شهد ذاك الشاب العظيم حرب الفجار وقد سُميت بذلك لأنهم فجروا بالحرب في الأشهر الحرم التي كانت تعظمها العرب ولا يقاتلون فيها حيث نشبت الحرب بين قريش ومن ساندهم من كنانة ـ وبين قيس ومن ساندهم، وكان عمر النبي ﷺ إذ ذاك أربع عشرة أو خمس عشرة سنة ـ وجاء عن ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ كان عمره عند نشوب حرب الفجار عشرين سنة. والمهم في الأمر أن محمداً ذاك الشاب القوي الجاهز للقتال والنزال لم يشارك في تلك الحرب ولم يكن موافقاً عليها لأنها لم تكن حرباً عادلة.

وجاء في السيرة: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم أخرجه أعمامه معهم وقال ﷺ: كنت أنبل على أعمامي: أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

والشاهد من هذا النقل أن هذا الشاب العشريني أو أقل، في كل عنفوانه وقوته وشدة شبابه كان يمتلك من رجاحة العقل ما منعه المشاركة أو الموافقة على هذه الحرب لأن حرباً تنشب بين أكبر القبائل لمجرد خلاف بين رجل من قيس ورجل من كنانة يقتل أحدهم الآخر ليس سبباً وجيهاً لكل هذا النزف من الدم ومجرد رده بعض النبل عن أعمامه لا يعني مشاركته بالحرب وموافقته لعرقه وعشيرته على ما قاموا به. ويستنتج من ذلك:

أولاً: على الإنسان أن يفكر ويدرس مواقع الحق والباطل ولو اجتمع الناس على خلاف رأيه ليقف مع الحق.

ثانياً: أن القرابة والعشيرة أو الحزب والجماعة لا يمليان عليه موقفاً لا يرتضيه عقله ونظره.

ثالثاً: أن يكون للإنسان رأيه المستقل عبر دراسته للأمور وعدم تبعيته لقومه.

رابعاً: أن هذا الشاب لم يحاول إظهار قوته ولم يتخذ الحرب فرصة لكي يثبت لعشيرته وقومه أنه الأقوى والأشجع والمقدام لأنه لا يرى أحقية في هذه الحرب.

والحاصل: إن على الإنسان وخصوصاً الشباب الذين يمتلكون القوة والعنفوان أن ينظروا ملياً إلى شخصية نبيهمﷺ في شبابه حتى لا ينساق مع انفعالاته وأهوائه بل يحكّم العقل ويدرس الصحيح من الفاسد في كل قضية وواقعة ليستخلص النتيجة التي تتماشى مع قضايا الحق والعدل في الحياة، ويبتعد هذا الشباب عن كل همجية عصبية أو قبلية أو أية تبعية فيها سخط الله تعالى ومخالفة الحق والعدل.

أيها الشباب ليكن محمدﷺ هذا الشاب العظيم قدوتكم في مواجهة العصبية بالحلم، والباطل بالحق، والظلم بالعدل، والجور بالنصفة، ليست البطولة في أن تقهر القوي بالباطل أو أن تثير نعرة عصبية تجر الويلات على نفسك وقومك، بل البطولة في أن يدير العقل كل حواسك وأعضاءك وعضلاتك وقوتك في طريق الخير والصلاح، وهكذا كان محمد الشاب العظيم، ولم يقبل بكل تلك التجاوزات والاعتداءات من شباب قريش على الوافدين إلى مكة والتي كان بعضها يؤدي إلى نشوب الحروب.

الشاب المنتصر لقضايا الحق:

وهكذا نجد محمداًﷺ بعد أن تجاوز سن العشرين من عمره الشريف بقليل يشارك قومه في قضاياهم العادلة فعندما عقلت قريش وأرادت أن تضع حداً لتجاوز

شبابها وغطرستهم حيث أن التجاوزات التي كانت تصدر من فتيان قريش على الوافدين لم تكن لتقف عند حدٍّ لولا حلف الفضول. ومن الأسباب التي دعت الزبير ابن عبد المطلب وأخاه أبو طالب للدعوة إلى هكذا حلف هي نفسها التي أدت إلى نشوب حرب الفجار.

فقد جاء في السيرة أن رسول اللهﷺ حضر حلف الفضول وكان منصرف قريش من الفجار وكان أشرف حلف وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتميم في دار عبد الله بن جدعان فتعاقدوا وتعاهدوا بالله لنكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه وقد سمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ولا يعلم أحد قد سبق بني هاشم بهذا الحلف وقالﷺ: «**ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم ولو دعيت به لأجبت**». والشاهد عند دراستنا لمشاركة ذلك الشاب العظيم بعد سن العشرين بقليل في حلف الفضول أن محمداً بدل أن يشارك الشباب كونه شاباً مثلهم في ما يقومون به من أعمال اعتداء وأكل أموال بالباطل وما إلى ذلك، وفي وقت يعيش الناس فيه الجاهلية العمياء بكل ظلاماتها بدون شريعة تحكمهم أو قانون يوقفهم أو رادع يردعهم، الحياة فيها للقوي والسلطة للظالم وشباب يعيشون الطيش واللهو وإثبات الرجولة بكل وسيلة قذرة همهم بطونهم وفروجهم كما قال الشاعر:

وابن عشرين لا تسألني عنه فابن عشرين ما عليه كلام
حبب الطعام والشراب إليه وصنوف اللذات وهي حرام

نجد أن هذا الشاب ينتفض على كل ذلك الواقع بكل عزيمة صادقة وإرادة صلبة، ضد شباب قومه وعشيرته لأنه يرفض الظلم والاعتداء ليكون شاهداً وموقّعاً على ذلك الحلف الذي نستفيد منه.

أولاً: الوعي الكبير لهذا الشاب العظيم في رفض حرب الفجار ومشاركته حلف الفضول لأن أساس الأول باطل وأساس الثاني إرساء قواعد العدل.

ثانياً: تشجيع العنصر الشبابي على المشاركة بقضايا الأمة الحقة التي فيها صلاح العباد وحفظ الحقوق.

ثالثاً: عدم تهميش الشباب في القضايا الكبيرة بحجة صغرهم وطيشهم، فالعنصر الشبابي عنصر هام في بناء المجتمع والدولة.

ظاهرة التعري عند الشباب:

ربما لا تجدون هذه النقطة مهمة في البحث ولكن خلال مطالعتي استوقفتني حادثة جرت مع ذاك الشاب محمدﷺ حيث كان الأطفال يرفعون أثوابهم عند اللعب وكذا المراهقون عند نقل الحجارة أو الأخشاب لعمارة البيوت فتظهر في بعض الأحيان عوراتهم، أما هذا الطفل الرائع الحيي لم يكن ليرفع ثوبه حفاظاً على الحشمة والحياء.. فأين المقتدون بهﷺ خصوصاً في هذا الزمن الذي انعدم فيه الحياء والستر وإظهار العورات من النساء والرجال فضلاً عن الشباب والأطفال ليكن محمداًﷺ قدوتكم في صيانة عفتكم وعفة أولادكم.

الشاب الحكيم:

وله حكمة نادرة ظهرت في طريقة حله للقضايا العالقة، ففي حادثة هدم الكعبة وإعادة بنائها بعد أن صدعها السيل اختلفت قبائل قريش أيهن يكن لها شرف وضع الحجر الأسود في مكانه، وتجمهر القوم وكاد القتال يقع بينهم وكان فيهم الشيوخ وكبار القوم ولم يجدوا حلاً لهذه المعضلة وكلٌّ يصر على رأيه لعصبية الجاهلية والعرقية، ونقل ابن هشام في سيرته أن أبا أمية بن المغيرة بعد أن تحالفوا على القتال وأعدوا له ومكثوا خمسة أيام اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وأشار عليهم قائلاً: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا وكان أول الداخلين عليهم محمدﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين «وكانت الصفة التي يعرف بها» رضينا هذا محمد فلما انتهى إليهم وأخبروه

الخبر قال ﷺ: هلم إلي بثوب فأُتي به فأخذ الركن أي الحجر الأسود فوضعه بيده فيه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوا جميعاً ففعلوا حتى بلغوا موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه. ورواه الحاكم وأحمد في مسنده والطبراني وغيرهم.

وهذه الحادثة تدل على وفير حكمته ورجاحة عقله في حل المشاكل العالقة والمعضلات التي كادت أن تؤدي إلى نزاع بين القوم.

الشاب المتأمل في الخلق المتأله:

لقد أجمع المحدثون والمؤرخون على أن النبي الشاب ﷺ ومعه جماعة من بني هاشم كانوا قبل نبوته على شريعة إبراهيم الخليل عليه السلام ولم ينحنِ لصنم ولا خشع قلبه لغير الله الواحد الأحد لأنه رأى المسيحية في خلاف وشقاق شديد في شخصية عيسى عليه السلام وطبيعة خلقه وخلق أمه وكانوا يتراشقون بالسباب والشتائم وتفرقوا جماعات وأحزاباً يتلاعنون ويتحاربون وغالوا فيه فجعلوه إلهاً أو ابنه مبتعدين عن أدنى الضوابط العقلية والعلمية في الوصول إلى العقيدة التوحيدية، وقد أدرك بفطرته الصافية وعقله المنير المتفكر أن هذه العقيدة غير سليمة إضافة إلى عقائد عديدة كانت تسود تلك الجزيرة ولكل منها أنصار وأتباع والجامع بينها الانحراف عن الفطرة السليمة والعقل الصحيح. في هذا الجو المشحون بالعقائد الفاسدة ينظر محمد فيرى الانحراف في فهم حقيقة عيسى، ويرى ضلال قومه وعبادتهم للأصنام وقد اتخذت كل قبيلة حجراً تعبده. فيعود إلى تأملاته بعيداً عن إنسان عصره ويتفكر في خلق السماوات والأرض وما أعد الله فيهما من نِعَم ومخلوقات وما سخره الله للإنسان ويرى كل هذا الخلق الدقيق والنظام الكامل حتى ابتعد عن قومه وكثر صمته وتفكره ليصل إلى الحقيقة التي تأخذ به إلى السعادة والنقاء، كان يتألم للضلال وللانحراف في قومه ولكل هذا الظلام الذي يعيشه إنسان عصره ويعتصر قلبه الكبير لشدة التخلف والجهل عن قومه، لا ليكون راهباً أو ناسكاً بل ليتأمل في الحقيقة لعله يجد شيئاً يضيء به ظلام الجاهلية، لا ليكون حكيماً كحكماء الإغريق ولا فيلسوفاً كفلاسفة

اليونان ولا ليكون عارفاً يخبر الناس عن ضمائرهم وما يجري عليهم، بل ليكون صاحب العقل المستنير الواعي العارف بكل ما يجري حوله وليجيب على أسئلة تطرق قلب كل إنسان على هذه الأرض، هل خلق عبثاً؟ من أين أتى ومن الذي أوجده؟ ما هي هذه القوة التي تسيطر عليه وعلى الكون كله ما هو المطلوب منه في هذه الحياة ما هي مسؤولياته تجاه الكون وما فيه تجاه نفسه ومجتمعه؟ ومن أوجده؟ إلى أين يعود بعد هذه الرحلة الدنيوية وما هو الموجود في ذلك العالم؟ هل كما يقول قومه يفنى أو هناك حياة أخرى؟ أسئلة تجول في ذهن كل شاب واعٍ مدرك لمسؤولياته ومبتعد عن اللهو واللامسؤولية.

كان محمدﷺ الشاب المتفكر والمسؤول المتوازن في كل شيء لذا وحتى يكون الفكر صافياً لا تشوبه أية شبهة علمية أو تأثير بيئي أو عصبية عرقية أو قومية أو انحراف جماعي التجأ إلى غار حراء في جبل عال بعيداً عن بيوتات مكة مشرفاً على ذلك البيت العتيق الذي جعله الله للناس أمناً ليتأمل من دون ضوضاء ولغو، كان يذهب إلى هذا الغار في شهر رمضان في كل عام يمكث الشهر كله ليتفكر ويتأمل طالباً للحقيقة وناشداً للمعرفة والسعادة ليبلغ الحقيقة العليا بوجود إله ليس كمثله شيء لهذا الكون ليزداد قناعة بجهل قومه وتخلفهم كلما رآهم يلوذون بالأحجار، ثم بقي على تلك الحال في كل سنة يمكث في غار حراء وحيداً متأملاً في الإله الواحد مكتفياً بما تأتيه به خديجةعليها السلام من زاد إلى أن شارف على الأربعين من عمره قبيل النبوة.

إن هذا الشاب محمدﷺ بكل ما أوردته مما تسنّى لي ذكره أو عثرت عليه من سيرته المباركة ينبغي أن يكون القدوة الأولى في حياتكم لأنه جمع من صفات الكمال الإنسانية قبل النبوة ما لم يجمعه إنسان قبله، إنكم تتخذون بعض الأسماء قدوة لأن صاحبه قام بثورة هنا أو رفض ظلماً هناك له جانب واحد في شخصيته وهذا جيد لكن هل بحثتم عن الجوانب الأخرى؟ لقد جمع محمد الشاب كل الجوانب في شخصه فاستحق أن يكون القدوة بحق ومثالاً للشباب يحتذى به.

إطلالة على أبعاد شخصية الزهراء عليها السلام

الفصل الأول

الحديث عن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام له أبعاد متعددة لا يحصيه مختصر كهذا، مع قلة ما ورد في سيرتها، وأغفل التاريخ تسليط النظر على شخصيتها سلام الله عليها، مع هذا فالحديث عن امرأة معصومة من الرجس استحقت لقب سيدة نساء العالمين أو السيدة الأولى في العالم بأسره منذ آدم إلى يوم القيامة مع الالتفات إلى أنها ليس لها ذلك المقام من الإمامة أو القيادة للأمة يترك الباحث مكباً لمعرفة سر هذه الشخصية العظيمة. لذلك سنقسم الكلام إلى فصول ثلاثة:

أولاً: يقول سيدنا الأستاذ المرجع (رض) متسائلاً ما هو السر في عصمة الزهراء عليها السلام مع أنها لم تكن في موقع النبوة أو الإمامة؟... مجيباً أولاً (وهذا مختصر كلامه لا نصه):

إن الله بلطفه أعطى العصمة للزهراء عليها السلام ليوحي للناس رجالاً ونساء أن المرأة يمكن أن ترتفع في تكريم الله تعالى إلى أعلى المراتب وهي مرتبة العصمة.

ثانياً: إن الله يريد أن يجعل للمرأة دوراً في الحياة يقارب دور النبوة والإمامة وهذا معنى العصمة فيما تحمله من دور للقيادة.

ثالثاً: أراد الله سبحانه أن يجعل الزهراء عليها السلام مثلاً أعلى للناس لتكون قدوة

للنساء والرجال والنموذج الأمثل الذي يحمل العقل والقلب النوراني المنفتح على الناس.

إن خلاصة هذه الإنسانة العظيمة أنها لم تعش لنفسها طرفة عين ولم تقم وزناً لذاتها، وإنما عاشت لأجل الرسالة متفانية في حفظها وتبليغها وحمل مسؤوليتها مساعدة لأبيها وراعية له ولزوجها بحسن التبعل ولأولادها بالتربية الصالحة.

لقد عاشت همّ القضايا الكبرى فطافت على بيوت المهاجرين والأنصار ـ كما ورد في الإمامة والسياسة لابن قتيبة ـ تذكرهم بحق علي عليه السلام في الخلافة وجدارته بها وتنصيب الله تعالى له من دون أن يكون لعلاقتها الشخصية الزوجية به أي أثر لأنها تدافع عن الرسالة وتحمل همّ الإسلام.

لقد عاشت هذه الآلام، فكان حزنها حزن الرسالة وفرحها فرح الرسالة، لقد بكت أباها الرسول أكثر ما بكته الأم العطوف وحزنت على خذلان المسلمين وتركهم تعاليم النبي صلى الله عليه وآله حزناً شديداً أدى لخروجها إلى المسجد وخطبتها المعروفة أمام المهاجرين والأنصار ومن أخذ الخلافة، فكان كلامها خطاً سياسياً ونشاطاً اجتماعياً ووثيقة في التشريع الإسلامي في مفردات هذه الخطبة، لقد خاضت العمل السياسي كأقوى ما يكون، وقفت وحدها بين النساء لتبين أحقية الإمام علي عليه السلام بالسلطة وتبيّن الحجة عليهم بالآيات وتذكرهم بأقوال الرسول صلى الله عليه وآله، ولكنها لم تسمع سوى اعتذارات واهية، ولذا بقيت في خط المواجهة إلى أن ارتحلت الى الله تعالى.

الزهراء العابدة:

وهكذا نجد بعداً آخر لا يمكن أن نغفله وهو التميز في عبادتها وإخلاصها لله تعالى وتلاوتها للكتاب ونحول جسمها من العبادة وإطعام الطعام لوجه الله ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[1]، وإيثار الناس ودعائها لهم قبل نفسها حتى دخل عليها الحسن عليه السلام

(١) سورة الإنسان، الآية: ٨.

فوجدها تدعو للمؤمنين وللجيران بغفران الذنوب وصلاح الحال ورفعة الدرجات وتحقيق الأمنيات وما الى ذلك، فسألها: أماه لِمَ لا تدعين لنفسك؟ فتجيبه: **يا بني الجار ثم الدار**.

وعندما علمها رسول الله صلى الله عليه وآله التسبيح بدلاً من الخادم كانت روحها تسبح مع الله فتنسى آلامها ومتاعبها لتعيش الذكر مع الله في تسبيح الزهراء عليها السلام.

الزوجة الصالحة:

لقد ساعدت علياً في السراء والضراء فلم ترهقه بالطلبات كما تفعل كثير من النساء، حتى دخل عليها يوماً فلم يجد عندها طعاماً، فسألها: فأجابت: لأنه لا يوجد في الدار شيء، فلامها على عدم طلبها منه وكانت تعلم أنه لا يملك شيئاً فلم ترد إرهاقه بالطلب إليه بما لا يقدر عليه، وكانت تطحن القمح ـ وفي ذلك قال علي عليه السلام: «**إنها طحنت بالرحى حتى مجلت يداها** (اخشوشنت) **وأثر في صدرها وكنست البيت حتى اغبرت ثيابها**» ـ وتسقي بالدلاء وتقوم بأعمال المنزل وهي ابنة خير النبيين وسيد المرسلين، فلم تتكبر ولم تتعال عن ذلك وكانت مطيعة له في كل شيء حتى عندما كانت على فراش الموت وهي توصيه قالت: «**ما عهدتني كاذبة ولا خائنة ولا خالفتك منذ عاشرتك، قال: لا والله، أنت أبر وأتقى وأعرف بالله وأعز على الله**».

تربية الأطفال:

لقد ربت أطفالها تربية إيمانية رسالية علمتهم كيف يحملون همّ الإسلام ويدافعون عنه، لذلك ضحى الحسن عليه السلام بنفسه والحسين عليه السلام بأهل بيته وأصحابه وعياله، كل ذلك لأجل الإسلام والدين والقرآن ليعرف الناس أن هناك ديناً غير الدين الذين يدينون من تزييف التعاليم والتمسك بالشعارات الزائفة الخالية من روح الإسلام والقرآن. وهناك الكثير من أبعاد شخصيتها عليها السلام لم نذكره هنا ولكن أريد أن

ألفت النظر إلى مسألة خطيرة في مجتمعنا وهي أن معظم الناس لا يعرفون عن الزهراء إلا أنها بكاءة وضج أهل المدينة من بكائها وكسر ضلعها وما إلى ذلك، ولو قمنا بإحصاء بين النساء والرجال لنسأل كيف عاملت زوجها وكيف ربت أطفالها وكيف حملت همّ الرسالة لوجدناهم لا يعرفون عنها سوى الحزن والمأساة وهذا بحدّ ذاته مأساة. علينا أن نعلم نساءنا الصدق مع أزواجهن كما كانت صادقة وعدم الخيانة كما كانت الزهراء عليها السلام، وعدم إرهاق الزوج بالطلبات كما كانت الزهراء عليها السلام المعينة لزوجها على الدهر لا التي تعين الدهر عليه، فهي المربية الصالحة والمتعلمة فهي برغم كل أعبائها كانت تتعلم الحديث وتكتبه حتى سميت تلك الصحائف بمصحف الزهراء وكانت هذه الأوراق تعدل عندها حسناً وحسيناً عليهما السلام كما قالت هي سلام الله عليها عندما جاءها ذلك الأعرابي وقال لها: اطرفيني شيئاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله فطلبت من فضة أن تأتيها بالجريرة المكتوب فيها الحديث فلم تجدها فقالت لها: ويلك إنما تعدل عندي حسناً وحسيناً عليهما السلام وهذا يدل على عظمة الدين والعلم من ساوته بالحسنين عليهما السلام أن المأساة هي أن ننسب إليها ما لا تفعله أي امرأة عادية عندما تبكي عزيزاً لها فكيف وهي تعلمنا الصبر، تُسمع صوتها لأهل المدينة حتى ضجوا من ذلك وطلبوا من علي عليه السلام أن يكون لها ليلة ولهم ليلة، لقد تمسكنا بالباطل وجعلناه حقاً وتمسكنا بالذي أدخل على الدين وجعلناه مقدساً ونسينا أنهم تفانوا (صلوات الله عليهم) لحفظ وتعليم الرسالة والقرآن وبذلوا كل ما يملكون من أوقاتهم وراحتهم وجهدهم في سبيل الله والقرآن، وأين نحن منهم ومن اهتماماتهم؟

أدلة عصمتها سلام اللّه عليها:

مضافاً إلى سيرتها وحياتها المليئة بالإيمان والتقوى والمحاسن الأخلاقية والخشوع والتواضع وحمل الرسالة ومواجهة الظلم وغير ذلك يمكن التركيز على ثلاثة أدلة كما يذكر أستاذنا العلامة المرجع رضوان الله عليه ما نصه:

الأول: إننا لو درسنا حياتها منذ ولادتها الى حين وفاتها مع أبيها وزوجها ومع

أولادها ومع الناس جميعاً لما وجدنا لها خطأ في فكر أو زلة في قول أو اشتباهاً في فعل، فقد كانت حياتها سلام الله عليها تجسد العصمة أتم تجسيد.

ثانياً: إنها من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فتشملها آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وتشمل أيضاً أهل البيت عليهم السلام علي وفاطمة والحسن والحسين والرسول صلى الله عليه وآله الذين كانت الآية دليلاً على عصمتهم. فآية التطهير هذه شهادة حق لا ينال منها باطل على عصمة الزهراء عليها السلام، وعندما نستدل بهذه الآية على عصمتها فهذا لا يعني أنها لم تكن معصومة من قبل، بل كانت معصومة من قبل نزول الآية ويشهد لها سلوكها، والآية جاءت لتكشف عن عصمتها لا لكي تمنحها لها.

ثالثاً: ورد من الفريقين كما في مسند أبي داود، ص١٩٦ ـ ومستدرك الحاكم، ج٣ ـ ١٥٦ وغيرهم، أن النبي صلى الله عليه وآله قال لها: «إنها سيدة نساء العالمين»، وفي عوالم الزهراء عليها السلام ص٨٨ روت عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**يا فاطمة أبشري فإن الله تعالى اصطفاك على نساء العالمين وعلى نساء الإسلام، وهو خير دين**». وحاشى لرسول صلى الله عليه وآله أن يطلق الألقاب جزافاً أو لقرابة، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2].

وعليه، فأن تكون سيدة أهل الجنة أو العالمين معناه أنها استجمعت في عقلها وقلبها وفضائلها كل عقل وقلب وفضائل نساء العالمين، بل وتفوقت عليهن، إذ كيف تكون سيدة نساء لقوم من لا تفضلهم بشيء ولا تملك الميزة التي تكون بها السيادة، فهي تعيش الحق كله في عقلها وقلبها وحركتها ولا يمكن أن يزحف الباطل إلى شيء منها.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٣ ـ ٤.

الفصل الثاني: التعرض لواقعة الباب في نظر العلامة المرجع

لقد امتلأت حياتها القصيرة بالمعاناة الكثيرة والمصائب الجليلة، فقد تعرضت للظلامات بعد وفاة أبيها مما يدمى له الفؤاد الغيور ويحترق لوقعته قلب المسلم ويفتت كبد الرسول ما شكل جزءاً نازفاً في الجسم الإسلامي أسس لجراحات مؤلمة أعقبته انقسامات وفجائع، وكان أعظمها ما جرى في كربلاء. ولا نبالغ إن قلنا أن الروايات التي وردت في ظلامتها مستفيضة من الفريقين، بل تكاد تكون متواترة.

ذكر المؤرخون ومنهم ابن قتيبة في الإمامة والسياسة: إن القوم جاؤوا بعد وفاة الرسول ﷺ وحادثة السقيفة بالحطب ليحرقوا بيت فاطمة تهديداً لها وللمعارضة الذين اجتمعوا في بيت علي عليه السلام، وقيل لقائد الحملة: يا هذا في الدار فاطمة: وهي التي يلتقي المسلمون على حبها وإجلالها لأنها الوحيدة التي تركها رسول الله ﷺ بعد وفاته ولأنها بضعة منه يغضبه ما يغضبها ويؤذيه ما يؤذيها كما قال، فكيف تأتي بالنار لتحرق بيتها؟، فقال كلمته المشهورة ـ ائتوني بالحطب لأحرق الدار على من فيها ـ كما نقل الطبري ـ قالوا له: في الدار فاطمة قال: وإن ـ.

ونحن نعتبر أن هذه الكلمة من أخطر الكلمات، لأنها تعني أن لا مقدسات في هذا البيت، فلا مانع من إحراقه وتشير الى روحية القوم وما كانوا يهيئون له، وهذا من أبشع الظلم الذي تعرضت له الزهراء عليها السلام بعد فقد أبيها وتجاسر الناس عليها، وهضمها حقها وحق زوجها، وهناك بعض الحوادث التي تعرضت لها مما لم يتأكد لنا بشكل قاطع لأنني أقول: إن النفي يحتاج إلى دليل كما الإثبات يحتاج إلى دليل.

ولذا، أثرنا بعض الاستفهامات كما أثارها بعض علمائنا السابقين (رض) كالشيخ المفيد في الإرشاد الذي يظهر منه التشكيك في إسقاط الجنين، بل في أصل وجوده (وإن كنا لا نوافقه على الثاني)، ولكننا لم نصل إلى حدِّ النفي كما فعل الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء بالنسبة لضربها ولطمها وما إليه، بل المتواتر والثابت

كشف دارها والأمر بإحراقه وهذا كافٍ للتدليل على حجم الجريمة التي حصلت في هتك المقدسات، ولذا لما دنت الوفاة من الخليفة الأول قال: «**ليتني لم أكشف بيت فاطمة ولو أعلن علي الحرب**»[1].

إن هذا الفصل من المظالم عليها عليها السلام لم يلق قبولاً لدى المسلمين بشكل عام، لما للزهراء عليها السلام من مكانة في نفوسهم جعلتهم يرون أن الإساءة إليها إساءة الى رسول الله صلى الله عليه وآله، مما اضطر اللذان ظلماها أن يأتياها تحت تأثير العام والاستهجان من هذه الأعمال وطلبا من علي عليه السلام الإذن للدخول عليها لاسترضائها.

ينقل ابن قتيبة أن عمر قال لأبي بكر: انطلق بنا الى فاطمة فإنا أغضبناها، فانطلقا جميعاً فاستأذنا عليها، فلم تأذن لهما، فأتيا علياً فكلماه فأدخلهما، فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط، فسلما عليها فلم ترد السلام، فقال أبو بكر: يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله أحب إلي من قرابتي وإنك لأحب إلي من ابنتي عائشة...

فقالت: أرأيتكما إن حدثتكما حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله تعرفانه وتفعلان به، قالا: نعم. فقالت: نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: رضا فاطمة من رضاي وسخط فاطمة من سخطي، فمن أحب ابنتي فاطمة أحبني ومن أسخط ابنتي فاطمة أسخطني. قالا: نعم سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالت: إني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطماني وما أرضيتماني ولئن لقيت النبي لأشكونكما إليه، فقال أبو بكر: وأنا عائذ بالله من سخطه وسخطك، يا فاطمة، وهي تقول: والله لأدعون عليك في كل صلاة أصليها.

أقول: المسألة ليست من باب التبرير لأحد بقدر ما لم تثبت علمياً سنداً ومتناً وبعض التحفظات، كوجود علي عليه السلام في الدار وعدم دفاعه عن زوجته ولو كان

---

(١) عوالم الزهراء: ص٤١٧.

مأموراً كما يدعي، فالأمر بعدم أخذ الخلافة بالقوة حتى لا يمحى ذكر الإسلام وتسفك الدماء ولا معنى، لأن يأمر الإنسان بعدم الدفاع عن بيته وزوجته، وكذا فإنها لم تذكر ذلك في خطبتها مع أن ذلك مادة دسمة في الاحتجاج على القوم ـ وما بقي من الباب بعد إحراقه ـ وكون المكسور ضلعاً لا يمكن إخفاء آلامه وغير ذلك كثير نتركه هنا.

الفصل الثالث: بيان المنهج في التعاطي مع القضايا التاريخية

هناك طريقة يعيش فيها الناس في الماضي بحيث تنتقل الأمة إلى التاريخ لتسكن فيه وتنفصل عن حاضرها ومستقبلها لتعيش مع من عاش في التاريخ.

وهناك طريقة أخرى، أن ننقل التاريخ إلى الحاضر لنجعله يتفاعل معه ويعطيه من إيحاءاته وأفكاره ما يجعل منه قوة تتحرك لتصنع المستقبل.

وفي الأولى لن تستفيد الأجيال شيئاً من التاريخ وإنما تتحول المسألة الى ما له تقديس للتاريخ وعبادة عظمائه، بحيث يصبح همّ الناس ذكر فضائل هذا العظيم أو ذاك، ويستغرقون في شخصيته وينسون دوره وتعاليمه ومبادئه، وهذه طريقة الكثيرين مما نلاحظه مع الذين عاشوا مع النبي عيسى عليه السلام تقديساً وتعظيماً وتأليهاً وولادة لكنهم لم يأخذوا شيئاً يفيدهم في حياتهم.

وهكذا نجد الكثيرين الذين يحتفلون من المسلمين بالنبي محمد صلى الله عليه وآله في يوم مولده، ولكن لا يسمحون لمحمد صلى الله عليه وآله أن يأتي إلى بيوتهم ليصلحها أو يدخل إلى عقولهم ليحركها أو قلوبهم ليطهرها أو ساحاتهم ليدفعها إلى الجهاد في سبيل الله.

والحال نفسها نجدها في الاحتفالات بذكريات أهل البيت عليهم السلام، فترى الكثير يذكرون علياً والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، ويبكونهم ولكن شرط أن يبقوا في أماكنهم في التاريخ، لأنهم إذا ما جاؤوا إلى حياتنا الحاضرة فإنهم يخربوها علينا

ويفسدونها من خلال تعاليمهم التي ترفض ما نحن عليه من الضلال والانحراف والمصالح والفساد وما إليه.

أما الطريقة الثانية، فنقول للمسيح عليه السلام ولأمه العذراء ولرسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام: ندعو هؤلاء العظماء التاريخيين لزيارتنا لا زيارة الجسد بل زيارة الفكر والأخلاق والروح، لنقول لهم: تعالوا إلينا وادخلوا بيوتنا ونوادينا وكل ساحاتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية، حتى نستلهم منكم القيم والمعاني السامية. وفي هذا الجو فإننا عندما نتحدث عن فاطمة لنأخذ من روحها وقيمها وخلقها ونورها وعبادتها ومناجاتها لله عز وجل وحركتها في توجيه المجتمع.

أقول: إن علينا أن نظهر تلك المرأة العظيمة والسيدة الأولى لكل المجتمعات التي أعدها الله القدوة لكل النساء والرجال، نظهر ما بكل ذلك التاريخ القصير في مدى العمر والكبير في مدى الزمن، لا يكفي الاستغراق في المأساة، فإنها لا تصنع شخصية إيمانية لأن التفاعل مع المأساة يكون حتى مع غير المعصوم، بل لا بدّ أن نظهر الزهراء عليها السلام في تقواها وإيمانها وعبادتها ومناجاتها وعلمها وتعليمها للنساء وتصديها للباطل وللحاكم ووقوفها الى جانب المظلوم والحق وصلابة إيمانها، لا بدّ أن نعلم النساء معنى القيم الزوجية في فاطمة عليها السلام، معنى التضحية أمام الزوج والأولاد وحمل الأعباء المنزلية غير الواجبة عليها في الشرع تبرعاً وقربة إلى الله مع صعوبة الحياة في وقتها وتحمل مسؤولية الأولاد وتربيتهم وصناعتهم صناعة إيمانية وروحية وإسلامية أصلية نقية.

إننا نحتاج إلى الزهراء في كل بيت من بيوتنا، لأن أكثر نسائنا فسدت وتخلت عن مسؤولياتها وخانت أمانة ربها وزوجها وقصرت في تربية أبنائها وانحازت إلى الاشتغال بمفاتنها وزينتها وتركت الفقيرة منهم الشارع لتربية الأبناء والغنية الخادمة لمراعاتهم، وليس معنى هذا أنني أدافع عن الرجال أبداً، بل لأن مقتضى الحال الحديث عن هذه العظيمة التي نبكيها ولا نعرفها ونندبها، ونحن نؤذيها لأنها تريد منا

الإيمان والإسلام والعفة ونريد منها المأساة فقط.

يقول السيد الأستاذ: إننا عندما نذكر التاريخ بعناصره المشرقة ونماذجه الحية، لأنه يمثّل الجذور التي يجب المحافظة عليها وتعميقها وتأصيلها على أساس الحق والعدل لأن أمة بلا جذور هي أمة لا تصمد أمام معترك الحضارات وصدامها في حوارها وتلاقيها، وإن رجوعنا إلى التاريخ ليس معناه أن نتجمد في التاريخ أو أن نعيش الماضي لأنه في مدى التاريخ توجد محطات ليس لها ماضٍ وحاضر ومستقبل، لأنها محطات الحقيقة ومحطات القيمة والحق والعدل الذي ليس له عمر محدد في الزمن، بل هو الزمن كله، فالحق يعطي الزمن معناه ولا يعطيه الزمن تاريخه لأن الحق لا يؤرخ.

والحمد لله رب العالمين

ياسر يوسف عودي

٢٥ أيار ١٩٩٥م

المحتويات

المقدمة ٥
الفصل الأول ٧
العلاقة مع اللّه عز وجل ٧
علاقة الفرد بالأنبياء والأوصياء ١١
العلاقة مع العلماء ١٦
أولاً: من هو العالم؟ ١٧
ثانياً: ما هي مواصفات العالم؟ ١٧
ثالثاً: كيف تكون العلاقة مع العلماء؟ ٢٠
علاقة المؤمن بأخيه الإنسان ٢٣
العنوان الأول: حقوق المرء ٢٣
العنوان الثاني: حقوق المؤمن ٢٣
العنوان الثالث: المكاشفة والتناصح ٢٦
علاقة الإنسان ببيوت اللّه (المسجد) ٢٩
عناوين البحث ٣٠
العنوان الأول: الحضور إلى المسجد والجلوس فيه ٣٠
العنوان الثاني: جار المسجد ٣٠
العنوان الثالث: فوائد المسجد ٣١

العنوان الرابع: الكلام في المسجد وعدم توقيره ٣٢
العنوان الخامس: ما نهي عن فعله في المسجد ٣٣
العنوان السادس: الصلاة في المسجد ٣٤
العنوان السابع: مستحبات المسجد ٣٤
العبادة وموقعها من الإيمان ٣٥
الأول: معالجة المفهوم الشائع الإيمان بالقلب على نحوين ٣٦
الثاني: الإيمان والإسلام ٣٧
الثالث: حقيقة الإيمان ٣٨
الرابع: المزاوجة بين الإيمان والعمل الصالح ٣٩
الخامس: الأثر الدنيوي والأُخروي لهذه الأعمال ٣٩
العمل الصالح ٤٣
نتائج العمل الصالح ٤٤
أثر العمل الصالح ٤٥
ملاحظات في الآيات ٤٦
شرط العمل النية ٤٧
الحث على العمل ٤٧
لا يستويان ٤٨
العلاقة الزوجية النموذجية ٤٩
هناك جانبان للعلاقة الزوجية يتكاملان ٥٠
نظرة إسلامية للحاكم وعلاقاته في عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشتر ٥٥
صفات الحاكم ٥٥
ميزان العدل بين الخاصة والعامة ٦١
في اختيار البطانة أو الحاشية ٦٩

المحتويات ٢٣٥

تشجيع العامل المنتج ٦٦
عدم نقص السنن الصالحة ٦٧
مشاورة العلماء ٦٧
كيفية توزيع مناصب النفوذ في الدولة ٧٠
حرمة سفك الدم في عهده للأشتر ٧١
الفصل الثاني: رسائل في التربية والاجتماع ٧٧
الآداب في الإسلام ٧٧
أولاً: الأدب قوام الإنسان ٧٨
ثانياً: أدب النفس ٧٨
ثالثاً: كيفية التعاطي بالأدب ٨٠
رابعاً: أدب الحديث ٨١
خامساً: تأديب اللّه للإنسان ٨٢
سادساً: توجيه ٨٣
حق الإنسان في الحياة ٨٤
الحياة الفردية ٨٧
خاتمة ٩٠
الحرية المنشودة على ضوء القرآن والسنة ٩١
الحرية في جميع الأحوال ٩١
الأصل في الإنسان الحرية ٩٣
المؤمن لا يذل نفسه ٩٣
حرية اختيار العقيدة ٩٤
الحرية الفكرية ٩٧
الحرية أمام الأعداء ٩٩

القوة تكمن في الإيمان الراسخ ١٠٠
نظرة إسلاميّة إلى القناعة ١٠٣
القناعة في الأسرة ١٠٤
القناعة على مستوى العمل ١٠٥
كيف تكسب القناعة؟ ١٠٥
القناعة كنز ١٠٦
فوائد القناعة ١٠٧
توجيه ١٠٧
نظرة إسلامية إلى الإحسان ١٠٩
أحسنوا إن اللَّه يحب المحسنين ١٠٩
الإحسان في التعامل والعطاء ١١٠
الإحسان في العبادة ١١١
أثر الإحسان على القلوب ١١١
أثر الإحسان على قلب المسيء ١١٢
ثمرة الإحسان في الدنيا والآخرة ١١٢
الإحسان في العلاقات ١١٣
جحود الإحسان ١١٤
تمام الإحسان ١١٤
نظرة إسلاميّة إلى الحياء ١١٦
أولاً: الحياء الممدوح ١١٦
ثانياً: آثار الحياء الإيجابية ١١٧
ثالثاً: الحياء المذموم ١١٨
رابعاً: آثار ترك الحياء ١١٩

المحتويات ٢٣٧

الغاية من الحياء ١١٩
الحياء من اللَّه عز وجل ١٢٠
حق الحياء ١٢١
نظرة إسلاميّة إلى السعادة ١٢٢
أولاً: ما يوجب السعادة في الدنيا ١٢٣
ثانياً: من هو السعيد حقاً؟ ١٢٤
ثالثاً: من هو أسعد الناس؟ ١٢٥
الحب في الإسلام ١٢٦
أولاً: حب اللَّه ١٢٦
ثانياً: حب النبي وأهل بيته عليهم السلام ١٢٧
ثالثاً: ما يورث حب اللَّه ١٢٨
رابعاً: أحب الناس إلى اللَّه ١٢٩
خامساً: أعمال يحبها اللَّه ١٣٠
سادساً: الميزان في حب الإنسان ١٣٠
سابعاً: كيف تحصل على محبة الناس؟ ١٣١
تربية الطفل ١٣٣
حب الأولاد ١٣٤
العدل بين الأولاد ١٣٥
تأديب الأولاد وتعليمهم ١٣٦
الزواج بين التعجيل والتأجيل ١٤٠
الروابط الاجتماعية في الأدعية ١٤٧
دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ١٤٨
الدعاء للوالدين والولد والذرية ١٤٩

الدعاء للجيران ١٥٠
تحمّل المسؤولية في الدعاء ١٥٠
الدعاء للأموات ١٥١
الشعور مع ذوي الحاجات ١٥٢
الشعور مع المهاجرين والأسرى ١٥٢
الدعاء للأمة ١٥٣
خطاب العقل والوجدان ١٥٥
الاعتراف بالوحدانية ١٥٦
في العلاقة الإنسانية ١٥٦
جهاد النفس ١٦٠
شواهد من القرآن ١٦٠
شواهد من الحديث وعناوين ١٦١
الفصل الثالث: رسائل في الصفات السلبية ١٦٥
نظرة إسلامية إلى المداراة والمداهنة ١٦٥
أولاً: المداراة أصل من أصول الاجتماع ١٦٦
ثانياً: ثمرة المداراة ١٦٨
ثالثاً: فارق مهم ١٦٩
رابعاً: مفهوم المداهنة ١٧٠
خامساً: المداهن في الحق ١٧١
نظرة إسلاميّة إلى العنف ١٧٣
العنف في الأسرة والمجتمع ١٧٤
العنف النفسي ١٧٧
العنف الجسدي ١٧٧

المحتويات ٢٣٩

العنف الفكري ١٧٨
العنف الجنسي ١٧٩
نظرة إسلاميّة إلى البغض والكراهية ١٨١
أبغض الأعمال إلى الله ١٨٢
الأفعال والأخلاق المبغوضة عند الله ١٨٣
بعض الصفات المورثة للبغضاء ١٨٤
الفساد في المجتمع ١٨٧
ظاهرة السفور وانعكاساتها ١٩٢
أولاً: ظاهرة التعري ١٩٢
ثانياً: تحصين المجتمع ١٩٣
ثالثاً: السفور وانعكاساته ١٩٤
رابعاً: الأمر بالستر ١٩٥
الشباب بين التربية والانحراف ١٩٨
ما هي الحلول؟ ٢٠١
ضوابط العلاقة بين الشاب والفتاة ٢٠٣
النقطة الأولى ٢٠٣
نظرة إسلامية إلى الشهرة ٢٠٧
الشهرة السلبية ٢٠٧
شهرة العبادة واللباس ٢٠٩
الشهرة الإيجابية ٢٠٩
المؤمن لا يحب الشهرة ٢١١
الخاتمة: حول نموذجين قدوة ٢١٣
النبي ﷺ الشاب... قدوة الشباب ٢١٣

النبي الشاب ٢١٤
الشاب العامل الكادح ٢١٦
عنفوان الشاب العاقل ٢١٧
الشاب المنتصر لقضايا الحق ٢١٨
ظاهرة التعري عند الشباب ٢٢٠
الشاب الحكيم ٢٢٠
الشاب المتأمل في الخلق المتأله ٢٢١
إطلالة على أبعاد شخصية الزهراء عليها السلام ٢٢٣
الفصل الأول ٢٢٣
الزهراء العابدة ٢٢٤
الزوجة الصالحة ٢٢٥
تربية الأطفال ٢٢٥
أدلة عصمتها سلام اللَّه عليها ٢٢٦
الفصل الثاني: التعرض لواقعة الباب في نظر العلامة المرجع ٢٢٨
الفصل الثالث: بيان المنهج في التعاطي مع القضايا التاريخية ٢٣٠